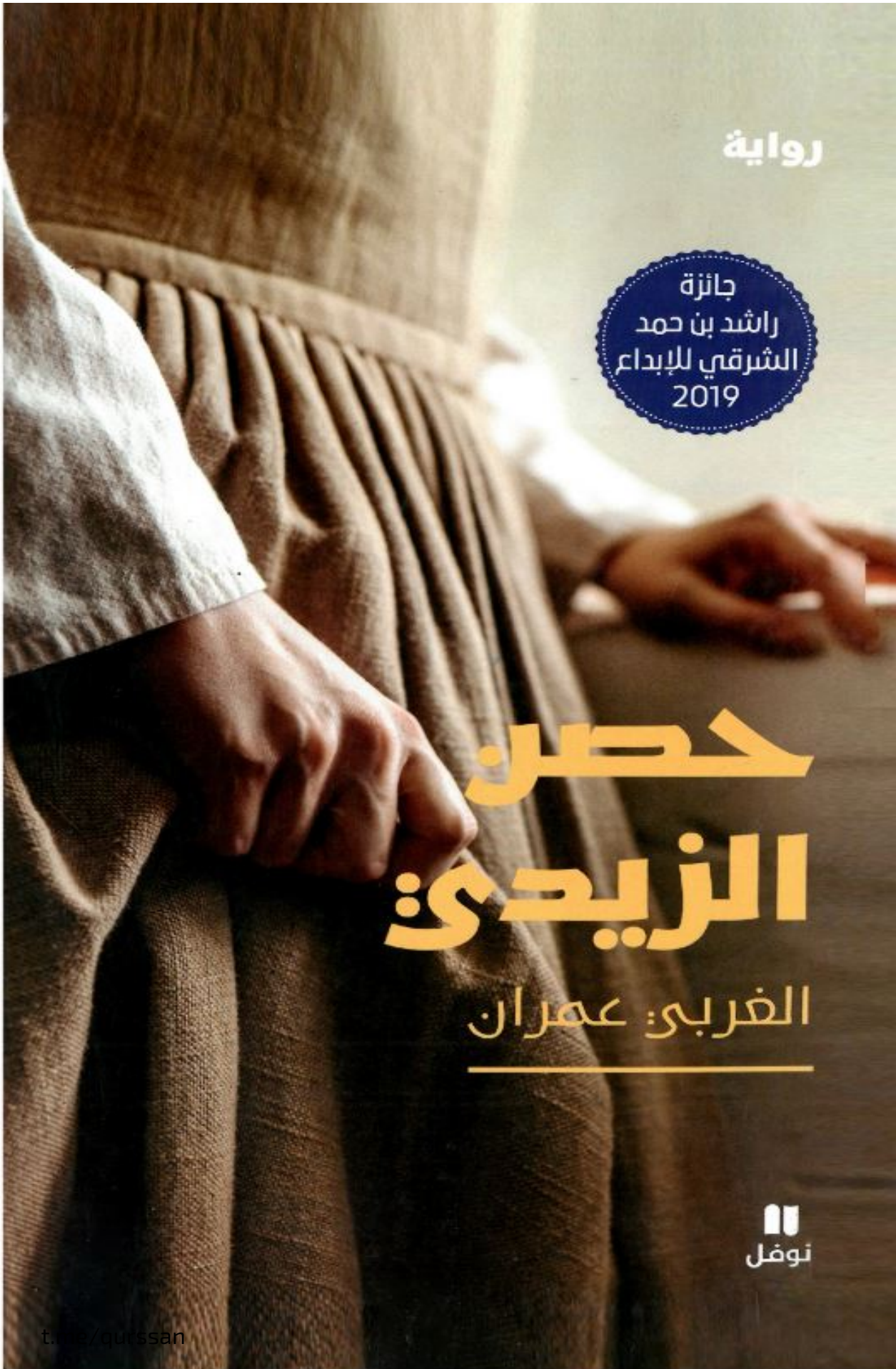
رواية
جائزة
راشد بن حمد
الشرقي للإبداع
2019
حصن
الزيدي
الغربي: عمران
نوفل
t.me/qurssan

رواية

حصن الزيدي

الغربي عمران

نوفل

t.me/qurssan

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© Shelley Richmond / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-290-5
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-291-2

t.me/qurssan

مرداس

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كان عبد الجبّار ملقى على الأرض وقد تشبّثت أصابعه بفوهة بندق والده الشيخ مرداس، الـ«قرنوف»، ناظراً في عينيه يستجديه الرحمة، بادله الأب بنظرات مبهمة، قطعها دويّ رصاص «قرنوفه»، وردّدت جبال الوادي صداها الحزين. عمّ صمت مغلّف بالتساؤلات غطّى ملامح من التفّ حوله من الرعيّة، فيما كان الشيخ راكعاً إلى جوار ابنه، يرى سيلان الدم من صدره، ويتأمّل عينيه الذاويتين، محاولاً رسم ابتسامة رضى يشجّعه بها، ومتسائلاً: هل ما صنعته صائب؟! لحظات ثمّ لفظ عبد الجبّار أنفاسه، ليرتفع صراخ حناجر من حوله من الرعيّة. احتضن الشيخ رأس ولده بحنوّ مدارياً صوته الباكي، ثمّ وقف تساعده سواعدهم، كان رأسه مكشوفاً والريح تتلاعب بشعره الكثيف، أجال ناظريه في من حوله، مشيراً على عدد منهم بأن يسرعوا في لفّ جثمان جبّار وحمله ليدفنوه في مقبرة الحصن. للحظات تعاون الجمع، ثمّ حُمل على أكتاف ثلّة ابتعدت به، بينما وقف مرداس يشيّعهم بملامح جامدة، وكفّ مستشاره زيد الفاطمي ممسكة بيده يشدّ من أزره، تابعاً مجموعة الرجال السائرين بالجثمان وهم يبتعدون وسط سهول الوادي شرقاً حتى صعدوا به مرتفعات الحصن، مخلفين الطولقة

t.me/qurssan

الكبيرة الناشرة أفرعها في كلّ اتجاه فوق ملتقى السيول. وصلوا بعد حين إلى الساحة الأمامية للحصن، وانعطفوا به ليدخلوا بوابة المجنة حيث تفرّقت حولهم شواهد القبور، وضعوه في جوار ركام ضريح جدّه الكبير، وبدأوا بحفر قبرٍ له.

أثناء ذلك، كانت عيون نساء الحصن تراقب متسائلةً، وما لبث أن تصاعد نواح جماعي، وقد أخذن يعَدِّدن بطولاته. في تلك اللحظات ظلت والدته شبرقة في حجرتها رافضة ما وصل إليها من الخبر، وقد أرسلت من يزجر النائحات، غير مصدّقة ما وصل إليها من أنّ زوجها قد قتل ابنها جبّار. أغلقت أبوابها على نفسها رافضة استقبال مَن قدمن لمواساتها. انقضى ذلك النهار وتسرّب الليل وهي تنتظر قدومه ليخبرها كذب ما تتناقله الأفواه، ظلت ساهرة في ليلتها الأولى حتى أشرقت شمسُ نهارٍ جديد، وهي تقف أمام النافذة المطلّة على الوادي الفسيح، مركّزةً ناظريها على أطراف غابة الجبال حيث تدور الحرب، باحثةً بين جموع الرعيّة عن جبّار.

أزعجها تواصل نحيب النسوة لليوم الثاني، فأرسَلت مراراً من يزجرهنّ، ظلت لأيّام تجيل النظر باحثة بين تلك الجموع عمّا يطمئن روحها، متسائلة لمَ لم يرسل مرداس من يطمئنها إن كان مشغولاً بالحرب؟

تواصل نحيب نسوة الحصن للأسبوع الثاني على التوالي، خلخلن يقينها، لكنّها استمرّت تظهر عناد انتظارها لعودته.

تغلق النافذة وتنكفئ على نفسها كسيرة، تتمدّد دامعة وقد لفتت ناظريها بشرة ذراعيها الجافة، الشبيهة بقشور السحالي، تهامس نفسها: ماذا بقي لي في هذه الحياة ومرداس يواصل قتلي منذ حين؟ وها هو اليوم يقتل ما بقي لي!

t.me/qurssan

ممدّدة على فراشها، تسحبها وحدتها وحيرتها إلى ذكريات الأمس، وقد أغمضت عينيها، لترى مرداس في زيارته لها. كانت تلك زيارته الأخيرة بعد زواجه بزوجته الثانية فاطم قبل خمس عشرة سنة. تلك الليلة خرج من حجرتها دامعاً، ولم يعد قطّ. تبلّل الدموع خدّيها وتشعر بالاختناق، تنهض لتطرد إحساساً بالغبن يفجّر قلبها. لكنّ الذكريات تنهال عليها. تذهب بها إلى أيّام صباها، إلى ذلك اليوم البعيد وقد زُفّت عروساً، يسير بها حمار «صبياني» وسط صفوف يتقدّمها والدها على خيله البيضاء، يحيط به إخوتها وبنو عمومتها، يتقدّمهم راقصو «البرعة»، ملوّحين بنصالهم العاكسة لأشعّة الشمس. حين أشرفوا على الوادي، بدا لها حصن مرداس مهيمناً من قمّته البعيدة. وقف المستقبلون في دائرة عظيمة، تردّد الأودية دويّ رصاص بنادقهم، وقد خَفَتَ وقع الطبول. أشارت عليها «الشارعة» إلى وسط الدائرة، لترى شابّاً قصير القامة، تميَّز بإكليل من أغصان الريحان يعلو رأسه، تطيل النظر إلى وجهه البيضوي بشعره البازغ، تلتقي عيناها بعينيه، فتمسّ قلبها رعشة غامضة لم تألفها، إحساس لذيذ يستقرّ في أعماقها.

تمرّ السنوات وقد أمست أمّاً لابنتين، تبعتهما بذكر سُمّي عنصيف، احتفى الحصن بقدومه، وذبح الشيخ العجول الرضيعة شكراً لله، لتصبح شبرقة سيّدة الحصن، ثمّ رُزقت بعبد الجبّار.

تتذكّر طفولة عنصيف الذي حرص والده على اصطحابه إلى مجالسه ومواقفه القبليّة، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال أطلق يده على الوادي، على مزارع البنّ والقات، وقضايا رعيّته، ليفرض سريعاً سطوته على الجميع. تتذكّره يوم غادر إلى صنعاء لتسليم إمامها خراج الوادي، وهو يقود الرعيّة تلبية لنداء الإمام لإخضاع قبيلة متمرّدة على طاعته. كان دوماً يعود متقدّماً أبناء رعيّته الذين يقودون قطعان

t.me/qurssan

المواشي إلى زرائب الحصن، كما يحملون الأسلاب من أثاث وحبوب وأوانٍ منزليّة.

تنتظر مثوله بين يديها بوجهه الباسم الذي يحمل كثيراً من بياض وجهها واستطالته، يركع محاولاً لثم ركبتيها، فتمدّ كفّيها بغبطة رافعة وجهه، ناظرة في عينيه الباسمتين، ثمّ تحتضنه هامسة: لي أن أفخر بك ابناً.

تتذكّر يوم وصلت مجموعة من الرعايا إلى باب الحصن يشكون توافد غرباء على الوادي وتكاثرهم منذ شهور، استمع إلى شكواهم: أخدام سود. غوغاء لا يهتمّون بنظافتهم ولا معيشتهم، يهيمون جامعين ما يصادفونه من بقايا ملابس وأحذية وأوانٍ، وقد بنوا مجموعة أكواخ متجاورة تحاذي الطولقة الكبيرة. في البدء لم يهتمّوا لوجودهم. لكن توافدهم استمرّ وأكواخهم تكاثرت. ومع الأيّام تحوّلت الأكواخ إلى درم، ثمّ انتشرت الأدرام على امتداد حافتي الوادي، يهيمون أسراباً يتسوّلون ممّن يجدون في طريقهم، وقبيل نهاية النهار يعودون إلى أكواخهم يمضغون القات، ومع قدوم الليل يشعلون النار ويرقصون على قرع الطبول. توالت الأيّام وقد تعوَّد الناس على وجودهم على هامش حياتهم، يعاملونهم بشفقة، والبعض بازدراء.

كان عنصيف يستمع إلى هلع من يحكون، وهم يصفون حياة «الأخدام» بأنّهم لا يرتادون المساجد، ولم يُرَ أحدهم يصلّي قط، أو يُسمع عن عرس في أدرامهم منذ ظهورهم، يعيشون حياة بهائميّة، بعض نسائهم يُبحن أنفسهنّ لمن يرغب ولو بالقليل، ولم تُشاهد لهم جنازة منذ وفدوا إلى الوادي، ولا تُعرف لموتاهم قبور.

استمع لشكواهم، وابتسم قائلاً:

– أتودّون القول إنّهم غوغاء؟

t.me/qurssan

هزوا رؤوسهم صامتين علامة الإيجاب، ليقف رافعاً كفّه دون أن ينطق. وكان ذلك ما تعوّدوا عليه حين يريد انصراف من حوله، ليفكّر وينظر في ما سمع. انصرفوا على أمل أن يلبّي عنصيف ما يأملونه. لكنّ الأيّام ظلت تمرّ، والوافدين من «الأخدام» في تزايد، وقد امتهن بعضهم سرقة ما يصادفونه في طريقهم، حتى بات بعض الرعيّة يتعرّضون لهم بالرجم والملاحقة، بل إنّ منهم من ذهب للاعتداء على أكواخهم بهدمها وإحراقها. وكان ردّ «الأخدام» بإحراق محاصيل بعض حقول الرعيّة.

يحضرها ذلك اليوم حين كلّف عنصيف مجموعة من حرّاس الحصن الطواف على الأدرام وإنذار سكّانها بسرعة مغادرة الوادي، مع تهديد من يتخلفون منهم بهدم الأكواخ فوق رؤوسهم، ثمّ منظرهم في ذلك الصباح الغائم وقد خرجوا من أدرامهم، يسيرون مصطحبين نساءهم وأطفالهم في مجموعات كبيرة، حاملين طبولهم وأسمالهم. كانت مقدّمة صفوفهم تتّجه شرقاً، فظنّ من شاهدهم أنّهم راحلون عن الوادي، لكنّهم ما إن حاذوا الطولقة الكبيرة حتى انحرفوا صاعدين سفوح مرتفعات حصن مرداس، وقد انتظموا في طوابير طويلة تحاكي خيوط النمل، إلى أن وصلت مقدّمتهم إلى الساحة الأمامية للحصن، لتتوافد صفوفهم الباقية مشكّلةً طوقاً شبيهاً بحذوة الحصان على أطراف الساحة، لحظتها كانت عيون الحصن ترقبهم بحذر، وقد صوَّبت البنادق الطويلة من فتحات الأسطح وأبراج الحراسة، لم يمرّ وقت حتى سكبت السماء مزونها، ظنّ من في الحصن بعدها أنّهم سيتفرّقون، لكنّهم ظلوا في أماكنهم دون حركة رغم استمرار هطل الأمطار، تلبّست من في الحصن حيرةٌ وتساؤلات، وسرت خشيةٌ من أن يقتحموا البوّابة وقد اقتربت صفوفهم، فانطلقت زخات من الرصاص، سقطت على عددٍ منهم. لكنّ ما زاد حيرة الحصن هو أنّهم ظلوا في

t.me/qurssan

وقفتهم دون حراك، حتى انحسرت السحب، حينها دبّت الحركة بينهم وصدحت أنغام مزاميرهم بنواحٍ شبيهٍ بأنين الماء، تلته ضربات طبولهم المبللة، يهزّون على وقعها أجسادهم في دوائر يميناً وشمالاً، مردّدين كلماتٍ تماثل عواء رعود شاردة. ازدادت حيرة من في الداخل حيال ما يدور خارجاً. تشجّع عنصيف وأخرج مجموعة من الحرّاس لمعرفة ما يضمرونه، وقف أحدهم مشيراً عليهم بالصمت، خفت إيقاع الطبول والمزامير، وصمت كلّ شيء إلّا من حفيف رياح باردة. ثمّ قال مخفياً خوفه:

– أتريدون الموت؟

سرت همهماتهم، أخذوا يتلفتون بعضهم إلى وجوه بعض، ليرفع شابّ منهم كفّه، توجّهت الأنظار إليه، وأشار البعض له بأن يتقدّم، متشبّثاً بذراع فتاة تقاربه عمراً، تقدّم حتى أصبح أمام الحرّاس، وأجاب الحارس قائلاً:

– إن أردتم قتل من بقي، فافعلوا!

خيّم صمت، إذ لم يتوقّع الحارس ذلك الردّ، وبعد تفكير خرج صوته مرتبكاً:

– إذن ما تبتغون من صعودكم؟

– نبتغي حماية الشيخ.

هنا أدرك الحارس أنّ عليه أن يثبت لسيّده أنّه أهلٌ للمهمّة التي أرسله فيها، فرفع صوته بحدّة:

– الشيخ لا يحمي من يمارسون المحرّمات ولا يعرفون دين الله!

– نحن ضعفاء، ونريد أن نعيش في سلام.

– لا بقاء لكم في الوادي، ومن تأخّر سيُقتل!

يتابع عنصيف ما يدور، ويفكّر بينما تردّد الأودية صدى أصوات قرع طبولهم، ونفخ مزاميرهم التي استأنفوها. يفكر بالخطوة

t.me/qurssan

التالية، متيقناً من سذاجتهم. لحظتها، برقت في ذهنه فكرة أن يستغلّ رغبتهم في البقاء لتسخيرهم في أعمال الزراعة. تمتم هامساً: لمَ لا؟ وقرّر الخروج إليهم، تتبعه مجموعة من الحرّاس، ما إن ظهر حتى أصمتوا طبولهم ومزاميرهم، والتفتوا يتطلعون بصمت إلى وجهه المستطيل وقد رسم عليه ابتسامة مراوغة، وقال محاولاً أن يجعل صوته قويّاً للتأثير عليهم:

– اسمعوني جميعاً، سأطرح عليكم فكرة.

انتشر همسهم، ليستنتج أنّهم لم يفهموا، فأردف وقد لان صوته: تهيمون بين المزارع دون عمل، وهذا ما لا نقبله. على كلّ منكم أن يعمل أو فليرحل عن الوادي.

تقدّم من بينهم الشابّ المتأبّط ذراع الفتاة:

– كلنا على باب الله، ولقمتنا تأتينا بمشقة وتعب.

أثناء ذلك انشغل عنصيف متأمّلاً قدّاً ملتصقاً بثيابها المبتلة، كانت تبتسم وهي تشدّ على كفّ رفيقها، تخيّل جسمها الأسمر عارياً. ابتلع تخيّلاته وقد تغيّر تفكيره:

– سنعفو عنكم جميعاً إذا وافقتم على أن يعمل القادرون منكم في مزارعنا، وحينها يعود من لا يقدر إلى أدرامهم ليعيش الجميع في سلام.

ساد ارتباك بين صفوفهم، وقد أصابت الشابّ حيرة ممّا طُرح، صار ينقل ناظريه بين من حوله يستمدّ منهم العون، بينما عينا الشابّة لا تفارقان وجه عنصيف وقد شدّتها نظراته وابتساماته المتكرّرة، وكأنّها سُحرت بذلك الوجه الأبيض، عاود رفيقها يخاطب من حوله:

«ما رأيكم في ما سمعتم؟»، لترتفع أصوات من هنا وهناك: «انتدبناك فافعل ما تراه».

t.me/qurssan

أدركت الشابّة تردّد رفيقها، فالتفتت لتحتضن بكفّيها وجهه وتهزّه بحنوّ، مركزة عينيها في عينيه:

– ألا ترى أنّ الجميع في محنة. هيّا كن شجاعاً وأنقذنا!

ابتسم عنصيف حين التقت عيناه بعينيها، راقه وجهها الأسمر الفتيّ، وتيقّن من أنّه على وشك اصطياد حجرين بعصفور واحد.

خرجت كلمات الشاب مرتبكة:

– نوافق على ما طرحت.

تقدّم بعدها عنصيف ليصافحه، رافعاً صوته:

– لقد عفونا عنكم، من اليوم أنتم أبناء الوادي، وجميعكم في حمى الشيخ مرداس.

لم يكن هدفه من تلك المصافحة سوى الإمساك بكفّ الشابة، حينها أحسّت بدفء يسري في كيانها وتيقنت أنّ تلك الرسائل منه كانت حقيقيّة.

هلّل الجميع فرحاً، وقد أعطى عنصيف الإشارة للحرّاس بفرز القادرين على العمل. لم تغب شمس ذلك النهار حتى كان أكثر من مئتي رجل وامرأة قد اقتيدوا إلى مأوى ملاصقٍ لحبس الحصن، وتُرك كبار السن يصطحبون الصغار منحدرين باتّجاه أدرامهم، تاركين جثث قتلاهم في الساحة.

أفاقت شبرقة من ذكرياتها على صوت من تخبرها بأنّ حريقاً هائلاً قد شبّ في غابة الجبال العالية، عادت بوعيها كمن أفاقت من حلم، لتقف فزعة أمام نافذتها، وقد بدا لها منظر النار وأعمدة الدخان العملاقة مرعباً.

أمّا تلك الشابة السمراء، حمامة، فقد أمست داخل أسوار الحصن، وقد أُلحقت بخادمات دار شبرقة، وذلك جلّ ما تحلم به أيّ خادمة، جدران كانت تراها بالأمس بعيدة المنال عالية تعانق السماء،

t.me/qurssan

واليوم تسكن بداخلها وتطلّ على الوادي من عليائها، متأمّلة أدراماً تتناثر على الحافات كمقاور نملٍ، وقرى متباعدة على قمم الجبال وسفوحها، وخضرة مزارع تملأ العين.

لم تتقبّل أيّ من الخادمات مجالستها، تركن لها أحطّ الأعمال وأشقاها من كنس وتنظيف وطحن. لم تكن تلك الأعمال لتنتهي إلّا لتبدأ من جديد. ولم يكن العمل يقتصر على النهار بل يمتدّ إلى أنصاف الليالي، وما إن تنهي عملها حتى تتكوّم في إحدى زوايا بيت النار كالقتيلة تغطّ في نوم عميق. وأمام قساوة من حولها وعناء العمل، كانت تستدعي نظرات عنصيف وابتسامته التي سكنتها منذ يوم إطلالته على الساحة، ومن ليلة إلى أخرى تتوقعه، ترهف السمع وسط ظلام دامس، وما إن تشعر بحركة أو بصوتٍ حتى يركض قلبها مستبشراً، تسارع إلى خلع ملابسها، تتخيّل بياضه يبدّد ظلمة معاناتها، أنفاسه تلفح وجهها، وتغمض عينيها ذائبة تحت أغطيتها. وفي النهاية، تلعن الريح التي تحرّك النوافذ والأبواب، وتلك القطط العابثة بليلها.

تتابع حمامة أخبار رفيقها بعد أن كلفه عنصيف سَوق «الأخدام»، يعاونه عدد من الحرّاس بسياطهم، إلى المزارع، تسترق النظر لتراه عند الفجر يخرج بهم، أو مع عودته مساءً، عدّة مرات حاولت التسلل للقياه، لكنّ عيون الحرّاس في كلّ زاوية وخلف الأبواب تترصّد كلّ حركة. اكتفت باستراق النظر وبأخبار تعْشاقه لمن تحت يديه من خوادم ممّن يعملن بالمزارع. مع الأيّام، بدأت تشعر بأنّها وقعت في دوّامة من الشقاء، وإنْ أَلْهَتْها بقايا أمل، لتزيد معاناتها مع ما يصلها من أخبار عن اتّهام «الأخدام» لرفيقها ببيعهم للحصن، ثمّ جرأتهم عليه بالضرب، بعدما تُوفّي عدد منهم صرعى الأمراض وإعياءً من قسوة العمل. تكرّر الاعتداء عليه، حاولوا قتله. أثناء ذلك

t.me/qurssan

هربت منهم مجموعة. تخفّوا وسط أشجار المزارع، ليتعقبهم الحرّاس ويقتلوا منهم عدداً، ويُسحب من بقي بعد أن أصيبوا بإصابات خطرة، فيأمر عنصيف بإحكام وثاقهم إلى أعمدة استُحدثت في ساحة الحصن الخارجية، ومع خروج مصلّي الجمعة يُعدمون بزخة رصاص. من يومها أصبحوا يساقون مقيّدين بعضهم إلى بعض، تحرسهم بنادق الـ«بشلي» عوضاً عن سياط نُقِعَت بزيت السمسم.

استمرّ تحاشي خادمات الدار لحمامة وعدم مشاركتها طعامهنّ، مردّدات على مسمعها «آكل يهودي ولا تآكل خادم»، وظلّت زاوية بيت النار ملاذ دموعها. لم تعد تحلم بتلك النظرات وتلك الابتسامة التي رافقت وحدتها كثيراً، إلى أن أيقظتها ذات ليلة أصابع لامست وجهها. ظنّت أنّها تحلم، أو ربّما هي حشرة عابرة، لكن رائحة لم تألفها داهمت أنفها، أعقبها همسٌ عذب انسكب في مسامعها، فاجتاحتها رجفة شلّت حركتها، ثمّ أخذ بدنها ينتفض لهبوط أصابعه إلى رقبتها، وانسلالها إلى صدرها. كغريقة استعادت حركة ذراعيها، فردتهما لتحتضنه خوفاً من أن يتبخر كأحلامها السابقة، وتمتمت باكية: أخيراً، تذكّرتني أخيراً. لم ينطق سوى بهمس محموم، تاركاً كفّيه تتفقّدان تضاريس جسمها. للحظات دهمها خوف من أن يكون شخص غيره يعابثها، فكّرت في رفيقها، لكنّها تذكّرت أنّها تعرفه خاصّة في الظلام. شرعت تتلمّس وجهه بخوف، تحاول تذكّر ما يمكن تذكّره من ملامحه. في وجل تلمّست أنفه. كان طويلاً وضخماً، بينما هو يرتجف من حمّى شبق تعوّد عليه حين شروعه في مداعبة أنثى جديدة، وينشغل بإزالة ما بقي من أسمالها إلى أن عرّاها تماماً. أغمضت عينيها وتركته يقودها إلى مشارف اللذة، لعلها تشفي غليل شوق يحتلّها منذ شهور. لا تعرف كيف انقضى الليل قبل أن ينسلّ من بين يديها وترى شبحه الداكن واقفاً. لم تنم بعدها حتى

t.me/qurssan

تسرّب الضوء وهي تتفقد آثاره على بشرتها الأبنوسيّة، وفي مداخل لذّتها، تكتم صرخة «لم يعد حلماً وقد بتُّ في أحضانه» وإن انتقصت الشكوك من متعتها. بعد تلك الليلة أمست تنتظر عودته لتتيقن من أنّه هو. ومع عودته الثانية، تمنّعت وقد حاولت استدراج منادمته. ظلّ يراوغها بضحكات قصيرة، وحين أدرك إصرارها، حدّثها بكلمات أسكرتها، ليحملها على أجنحة الشهوة الحارقة.

توالت الليالي سخيّة بلهيب الشوق، تروي حرمانها، وقد بدت راضية بحياتها، تداعب من حولها على الدوام ببهجة، تاركة تساؤلاتهنّ عمّا اعتراها من تغيّر. يسمعنها مندهشات تغنّي بهيام طوال النهار، وقد تبسّم وجهها الأسمر. لكن أربكتها مفاجأة فلم تدرِ أتسعد أم تحزن وقد أحسّت بأعراض الحمل. أخذت تفكّر برهبة في ما سيحلّ بها حين يكتشفنها. رجته ذات مساء السماح لرفيقها بلقياها، أن يراه الجميع يجالسها، قالت له: «هو من اخترته زوجاً!» وكان لها ما أرادت، حين أشار على الحرّاس السماح لرفيقها بالاختلاء بها. كان صوته يتردّد وسط الساحة الداخلية للحصن ليسمعه كلّ من في الدور.

مضت الليالي وفرحها يتزايد بزيادة تكوّر بطنها. تتمنّاه صبياً. تتشوّق لرؤية عنصيف يضمّه إلى صدره.

ما زال ذلك اليوم عالقاً في ذاكرة شبرقة. يوم مقتل عنصيف وفرار قاتله ليحتمي بالشيخ شنهاص، شيخ غرب الوادي. سريعاً ما امتلأت ساحات الحصن بالرعيّة بعدما سمعوا بالخبر، جاؤوا ليشاركوا في تشييع الجنازة، مطالبين بالقصاص من القاتل. لم يكن القاتل غريباً، فهو أحد سكّان الحصن من أبناء عمومة الشيخ مرداس، بل آخرهم، بعدما طرد مرداس جميع أبناء عمومته من الحصن في

t.me/qurssan

سنوات متباعدة، وحوّلهم إلى أجراء يسكنون قرية منحدر الحصن. ظلت أسباب القتل غير واضحة، وإن كان البعض يؤكّد أن وراء ذلك تنافساً على قلب فتاة.

وقف زيد الفاطمي مستشار الشيخ خطيباً في جموع الرعيّة بعد الدفن، يحثّهم على الثأر، وعلى التكاتف وطاعة وليّ الأمر في ما يوجّه.

جلس زيد إلى الشيخ بعدما تفرّق الجمع، مشيراً: «أرى أن تشيعوا أنّ شنهاص هو من يقف خلف قتل عنصيف، وأنّه من شجّع القاتل على ما ارتكبه. ولنعمل بسرعة لتجهيز الرعيّة فنباغت قرى الغرب ونضمّها إلى مشيختنا. علينا أن نستغلّ هذه الفرصة التي لن تتكرّر».

ظلّ الشيخ يستمع إلى مستشاره صامتاً، وقد راقته الفكرة، ليدعو عقّال القرى وأمناءها، ويطرح عليهم ما أشار عليه مستشاره، داعياً الجميع إلى سرعة إعداد الرعيّة لمسح العار، ذاكراً لهم أنّ قرى شنهاص وما فيها «فيد» حلال لهم وللرعيّة، ومؤكداً عليهم ضرورة إعداد الرعيّة سرّاً فالحرب خدعة.

انشغل الشيخ ومستشاره بتوفير البنادق ومؤونتها، مرسلاً من يثق بهم لجلبها، حتى يكون كلّ شيء جاهزاً ليوم الفصل والهجوم.

لم يكن لشبرقة أن تفهم ما يدور حولها بعد انهيارها ضحيّة لأحزانها، ورفضها تناول الطعام، لتسوء حالتها إلى حدّ فقدان الوعي. أمست لصيقة الفراش تبول على نفسها، فاضطرّت ابنتاها إلى نقل حمامة من زاوية بيت النار في طابق الخادمات، لتبيت بجوار باب حجرة أمّهما للسهر عليها والعناية بنظافتها. في الليل تهبّ مسرعة كلما شعرت بحركة أو سمعت أنّة، وطوال النهار تقف إلى جوارها تهشّ الذباب عن وجهها. ولا يعلم أحد أنّ حمامة هي الأخرى قد أصابها

t.me/qurssan

حزن عميق على رحيله، تخفيه عمّن حولها، وإن سألتها إحداهنّ تشير إنّما ذلك عوارض الحمل.

في لحظات إغفاءة شبرقة، تطيل حمامة النظر إلى وجهها، تدنو وقد أغمضت عينيها وتسترق قبلة على جبينها، تعرف أنّ ذلك الوجه ليس وجهه وإن ظنّته للحظات وجهه، تمدّ أصابعها تلامس أنف المرأة المدبّب الطويل، وجهها المستطيل، فمها الصغير. تدمع عيناها حزناً وهي ترى ذلك الشبه يخفّف بعض أحزانها.

تخدمها بحبّ، فتهتمّ بإطعامها، وتبولها وتنظيفها كما لو كانت طفلتها، ودوماً سعيدة لقربها منها، تراها سادرة في غيابها لأسابيع، ولذلك كان الجميع يتوقعون رحيلها. إلى ذلك الصباح حين فتحت عينيها لتصطدم بوجه حمامة الذي كان يهمّ بتقبيلها، للحظات تحرّكت عيناها، تأمّلت وجه خادمتها ثمّ ابتسمت وعادت لغفوتها. تكرّر ذلك لأيّام، ثمّ حاولت النطق، فسألتها: من أنتِ؟! أجابت بلهفة: خادمتك حمامة سيّدتي. ثمّ صمتت وقد طالت نظراتها تتابعها بعينين متعبتين. ظلّ ذلك يتكرّر لأيّام، ويوماً بعد يوم أضحى صحوها يزداد وأسئلتها تتكرّر: لماذا أنت إلى جواري؟! إلى أن اعتادت وجودها، وصارت تطلب منها مساعدتها لتذهب إلى بيت الراحة. ولم يمرّ وقت حتى عادت إلى طبيعتها وقد تغلبت على أحزانها، ولو أنّها سكنت أعماقها.

رأت حمامة أنّ عليها العودة إلى طابق الخادمات، لكن شبرقة أمرتها بالبقاء إلى جوارها، ما زرع في قلوب خادمات الدار العجب وقد فضّلت سيدتهنّ السوداء عليهنّ. تبتسم حمامة جازمة بأنّ روح عنصيف هي من تحميها، وأنّها هي من أوعزت لوالدته الرأفة بها.

لكنّ القدر كان يقف لسعادتها بالمرصاد، فما إن دخل حملها شهره الأخير حتى زُفّ إليها خبر مقتل رفيقها، بعدما وُجِدت جثته

t.me/qurssan

في سكن «الأخـدام» مشوّهة، ما بعث أحزانها وضاعفها، لتصاب مشاعرها بتبلّد مفاجئ، ويغزوها شعور بأنّها وحيدة في هذه الدنيا، وآخر من لها لا تعلم عنهم شيئاً بعدما انقطعت أخبار أمّها أو أخيها إثر دخولها الحصن. لم يتحمّس الشيخ لمعاقبة الجناة، فـ«الأخدام» كائنات بلا قيمة يجري نسيانهم. أحسّت شبرقة بحزنها، وقرّبتها إليها أكثر، وطلبت نقل مكان نومها إلى إحدى زوايا حجرتها، ما أعاد لها بعض اتزانها. في تلك الزاوية وضعت طفلتها التي أدهش بياضها الجميع. أظهرت شبرقة حفاوتها بالوليدة، واختارت لها اسم زُهرة، وإن ظلّ شغل الخادمات الغمز واللمز حول بياضها اللافت.

لم ينتظر مـرداس حتى يبرأ جـرح مقتل عنصيف في قلب شبرقة، ليفاجئها بالزواج بصبيّة من صبايا قرية المنحدر. كان جرحها لا يزال ينزف، وكأنّه بتلك الصبيّة أراد قتلها. يحضرها ضجيج الزغاريد وضرب الطبول وهم يدخلون بالعروس بوابة الحصن. لحظتها كادت تفقد صوابها. تبحث عن مبرّر لخطوته تلك، فلا تجد ما يقنعها، تردّد سؤالها بصوتٍ مسموع: ما حاجته لزوجة جديدة؟ وللمرّة الأولى تسمع حمامة ترد على ما يعتمل في قلبها: لو وقفت يا سيدتي عند أفعال غيرك لتوقف قلبك. وبالفعل أشعرتها كلمات حمامة في تلك اللحظة بأنّ عليها أن تكون أمام مرداس دون قلب. بعد دخول تلك الصبيّة الحصن تغيّرت مشاعرها تجاهه. وما زاد إيلامها انقطاعه عن زيارتها لعدّة أشهر، إلى أن جاء محمّلاً بهدايا كثيرة، كان واثقاً من قدرته على إرضائها: أنتِ سيّدة الحصن، وما الصبيّة الجديدة إلّا خادمة ضمن خادماتك الكثيرات، ولم آتِ بها لتحتلّ مكانك، فأنتِ زوجة الشيخ مرداس، وأنت أمّ الشيخ عبد الجبّار. تزوّجتها من أجل أن يكون لابنك إخوة وعـزوة. كانت تسمعه صامتة وقد أظهرتْ له رضىً زائفاً، ولم يكن يـدري أنّ كرهه قد استقرّ في أعماقها. تلك الأحـداث المؤلمة

t.me/qurssan

أفضت إلى علاقة وثيقة بين شبرقة وحمامة، وقد تحوّلت من خادمة إلى جليسة، تتحدّث إليها طوال الوقت كأنّها صديقة قديمة. بل إنّها أصبحت تشاركها طعامها، ما أثار تعجّب الجميع، لتهمس إحدى ابنتيها تذكّرها بمقولة يردّدها الجميع «اغسل الوعاء بعد الكلب، واكسره بعد الخادم». لكنّها لم تأبه لكلام من حولها. ولم يكُن لإحداهنّ أن تتجرّأ على حمامة بعد ذلك، في حديث عن لون طفلتها.

حتى يوم مقتل عنصيف، كانت قرى الوادي مقسمة إلى مشيختين، فقرى مشرق الوادي تتبع حصن مرداس، وقرى مغربه تتبع دار شنهاص في قرية الجفنة. وكانت العلاقة بين الشيخين تتّسم بالعداء المستمرّ، فكلّ منهما يتربّص بالآخر. هكذا، كان فرار القاتل مبرّراً لهجوم مباغت وواسع اجتاحت فيه رعيّة مرداس قرى غرب الوادي في أيّام قليلة. وكانت البداية حين انتهج مرداس مناورة تمويه، طارحاً على شنهاص ثلاثة خيارات، أولها تسليم القاتل دون قيد أو شرط، ثانيها ترحيله من الوادي وإسقاط أملاكه وهدر دمه إن عاد، أمّا ثالث الخيارات، فالحرب بينهما. ولم يكن مرداس صادقاً في خياراته، فالغاية منها كانت فقط ظهوره في مظهر الرجل المسالم.

لم يتردّد شنهاص لحظة وهو يوافق على الخيار الثاني ويعلن طرد القاتل لتؤول جميع أملاكه لمرداس، لكنّ الهجوم باغته بعد أيّام قليلة، لتتساقط قراه الواحدة تلو الأخرى، ولم يستفق حتى كان الرعيّة يطوّقون داره. جرى اقتياده وابنيه وعدداً من بني عمومته وزوجته وابنته، ولم يكتفوا بذلك بل نُسفت داره ودور من قاوم. بُترت الأكف اليمنى للذكور، وسُملت العين اليسرى لكلّ أنثى، ثمّ أودع الذكور حبس الحصن، ومن يومها لم يخرج منه أحد عدا الابن الأكبر لشنهاص الذي تُوفي نتيجة لتعفّن جراح ذراعه، وأعلن مرداس ضمّ القرى إلى أملاكه. أثناء الهجوم كان مشايخ الأودية المجاورة

t.me/qurssan

قد عقدوا اجتماعاً لمتابعة تلك الحرب، أعلنوا فيه إدانتهم لما أقدم عليه مرداس، فهي أفعال منافية لأعراف وأسلاف القبيلة، رافضين ما وصفوه بالقسوة في معاملة شنهاص وأفراد أسرته، معلنين استهجانهم لذلك الهجوم الذي لم يكن هدفه إزالة مظلمة، بل التوسّع والطغيان، معبّرين عن رفضهم لنتائج تلك الحرب، ومهدّدين بالتدخل عند عدم التجاوب.

كانت شبرقة تدرك سذاجة العروس الجديدة عيشة، لكن ما كان يؤلمها هو صِلات قُربى والدها بقاتل عنصيف، فهم أبناء عمومة مرداس الذي سلبهم ممتلكاتهم على سنوات متباعدة، وجعلهم كسائر سكان الوادي أجراء، ولو أنه ميّزهم بسكن قرية أسفل الحصن سمّاها «قرية منحدر الحصن». وما زاد من ألمها تباعد زياراته بعد زواجه، ثمّ انقطاعه عنها، لتتحامل على نفسها وتبادر إلى زيارة عيشة محمّلة بالهدايا، بعدما رُزقت ببكرها جمال، مظهرةً سروراً بالغاً، وكاتمةً غيرة تفتك بها وهي تتأمّل ما يحيط بالنفاس من طنافس وأثاث ثمين، وعناية لافتة. كان عزاؤها أن ابنها عبد الجبّار قد أمسى يد والده اليمنى، بعدما دفعت به صغيراً لمرافقته وحضور مواقفه. لم يمرّ وقت حتى حلّ مكان أخيه الراحل، ودوماً ما كان مرداس يردّد عليه: «من شابه أباه ما ظلم. أريدك أن تتعلم منّي، كما تعلم الراحل، كيف تدار الرعيّة، وكيف تكون شيخاً. حين كنت في سنك كنت مرافقاً لوالدي، وذات يوم نهرني بعد أن لاحظني أتباسط مع الرعية وقال لي موبّخاً الرعوي يا ولدي مثل سقف البيت، إن لم تدعسه تسرّبت مياهه فوق رأسك. يا ولدي، كن ذئباً وإلّا دهستك البهائم. وأنا أريدك أن تكون شيخاً، والشيخ يدعس ويسلخ وإلّا فلن يكون شيخاً».

وهكذا، اقتدى جبّار بوالده، يتبعه نهاراً، ويقضي لياليه متفقداً أرجاء الحصن، زائراً مخازن البنّ ومقاشره، وشونة الحبوب. يتوقعه

t.me/qurssan

الحرّاس في كلّ وقت. تتذكّر شبرقة أنّها دوماً ما كانت تحذره من أنّ النساء آفة الرجال، خوفاً من أن يتبع خطى شقيقه الراحل. كان يسعدها أنّه يقضي أوقاته بجوار والده حتى أضحت له كلمة مسموعة. لكنّ بدايته الفعلية كانت بعد أن قلده والده مسؤوليّة مزارع البنّ والقات، وهي المزارع التي يعتمد الحصن على مواردها، إذ إنّ ما تنتجه تلك الأشجار من بنّ يدرّ عدّة أشولة من عملة «الفرانصي» إلى جيب الشيخ، من تجّار يحملونها باتجاه البحر. كما أن القات يوزَّع يوميّاً في الأسواق الداخلية محمولاً فوق قوافل الجمال القادمة إلى الوادي. باشر جبّار مسؤوليته بعد أن وزع المهامّ على رجاله: أشخاص عليهم الإشراف على عمل «الأخدام» في المزارع، آخرون مسؤولون عن مقاشر البنّ وتجفيفه وتشوينه، ومجموعة تتابع قطاف القات وتسويقه، متخذاً من الشدّة والحزم وسيلة لإخضاع الجميع. لم يمرّ موسم حتى توسّع في استصلاح المزيد من سفوح الجبال وغرس آلاف الشتلات. ومع زيادة المساحة، ظهرت مشكلة تناقص أعداد «الأخدام»، مع توالي الوفيات بينهم، نتيجة للإعياء وانتشار الأمراض، ولم تأتِ السنة الخامسة حتى تفاقمت المشكلة مهدّدة تلك المساحات الشاسعة بالجفاف، فسارع عبد الجبّار إلى سدّ النقص المتزايد بإشراك المحابيس من الرعيّة. لأول مرّة، رأى الناس المغضوب عليهم من الرعيّة جنباً إلى جنب مع «الأخدام»، مسخّرين للعمل في مزارع الشيخ.

تسعد حمامة وهي تتابع ابنتها وقد بدأت تحبو، تخرج أصواتاً محبّبة تدعو كلّ من حولها: دادا، دادا، دادا. أمّها وابنتي شبرقة والخادمات وكلّ من يقترب منها. وفي قرارة نفسها، تتمنّى حمامة أن تشبّ ابنتها وقد تناسى الجميع همزهم ولمزهم حول اختلاف لونها، ليقبلوها كما لو كانت واحدة منهم. تلك الأماني كانت تُخرجها

t.me/qurssan

من القلق الذي يعتريها كلما فكّرت في مستقبل ابنتها. تحلم بزهرة وقد أضحت إحدى فتيات الحصن يتسابق إلى ودّها الجميع، لتمدّها تلك الأحلام بسعادة نابضة. ومع تكرار تلك الأحلام تتلاشى أحاسيس الخوف، ومشاعر الغربة التي غزتها بعد مقتل عنصيف ومقتل رفيقها. وكان اهتمام شبرقة وعطفها على زهرة يزيدها ثقة بضمان غد ابنتها، ويزرع في قلبها مزيداً من الطمأنينة. لذلك تفانت في خدمة سيّدتها، تطير سعادة كلما شعرت برضاها عنها. تقضي النهارات قرب قدميها، ومع حلول المساء تضطجع في زاويتها وقد ألصقت صغيرتها بصدرها تنتظر صوت شبرقة التي يحلو لها المنادمة طيلة الليل.

يوم خطت زهرة خطوتها الأولى، فردن أذرعهنّ مهللات، بينما اغرورقت عينا حمامة بالدموع أمام لهفتهنّ، وأيّام فطامها تناقلتها أحضانهنّ بفيض حنان، ويوماً بعد آخر أصبحت تشعر بأنهنّ أفسحن لها مكاناً في قلوبهنّ، ما زرع في قلبها يقيناً بأنّ صغيرتها في أمان. وهكذا حتى تجاوزت زهرة الثامنة من عمرها وجميعهنّ يرعينها كأمّهات لها. كثيراً ما تخيّلتها عروساً، لكنّها كانت تتوقف أمام أحلامها في خوف متسائلة: ومن سيكون عريسها؟ جمال هو من يقارب سنّها بداخل الحصن. لكنّه عمّها! ولمَ لا يكون عريسها من خارج الحصن؟! تغمض عينيها هروباً من تساؤلات لا تجد لها أجوبة، لتبهت أحلامها وتتداخل. فكرت أن تخاطر وتبوح لشبرقة حتى تساعدها. هي حفيدتها، فلتطلب منها أن تكون راعية لها، أن تشارك في حملها الذي تثقل وطأته يوماً بعد يوم. لا تفكّر بنفسها، تريد فقط أن تضمن لصغيرتها حبّ من حولها.

ذات صباح قالت لها إحدى ابنتي شبرقة بفرح صبياني: لابنتك عينا أمّي! صمتت تقلّب كلمات الصبيّة باحثة بين الثنايا عن مقصد، أو لعلّها أرادت فقط أن تبدي تحبّبها. حين طال صمت حمامة أردفت

t.me/qurssan

البنت: أو أنّك توحّمت على عينيْ أمّي! كما لو أنّهم بدأوا يكتشفون ذلك الشبه، لا في عينيها أو بياضها فحسب، بل في تدويرة فمها، واستطالة وجهها، وذلك الأنف. دمعت عيناها وهي تنظر في عيني زهرتها متذكّرة وجه عنصيف الذي ورثه عن أمّه ليورثه للصغيرة، جازمة في تلك اللحظة بأنهنّ يعرفن سرّ زهرة.

تمرّ ليالي حمامة بمنادمة سيّدتها شبرقة، حتى تلك الليلة التي خلدت فيها للنوم وقد ظنّت أنّ شبرقة خلدت للنوم بعد صمت طويل. كان نوم لذيذ قد بدأ يتسلّل إلى عينيها، وقد تراخت مفاصلها، حين سمعت صوت شبرقة من جديد يتسكّع وسط ظلام الحجرة، لم تستجب في البداية متمنّية أن تتركها للذّة النوم، لكنّ صوت سيّدتها كان أكثر إصراراً، يدعوها لمواصلة المنادمة، فقاومت نعاسها مستجيبة، متمنّية أن لا يطول كي تعود لنومها. لكنّ ذلك الصوت استمرّ يتنقل من موضوع إلى آخر مارّاً بعيشة وابنها جمال الذي تعيب عليه ملازمة أمّه. قالت شبرقة بصوتٍ منتشٍ إنّ عيشة لا تجيد تربية الرجال، فابنها يشابه البنات في سجاياه. وحين لم تتفاعل حمامة مع موضوع جمال انتقلت شبرقة إلى موضوع آخر، يقفز صوتها وحمامة تردّ عليه بما يدلّ على متابعتها لما يقال، بينما تتمنّى في سرّها أن تعتقها، إلى أن قالت بصوت عطوف: زهرة لم ترث لون زوجك! محاولة أن تبدو كلماتها عفويّة.

للحظات، أحسّت حمامة بميسم ساخن يعبر مسامعها، لتتمزق خيوط النعاس متبعثرة وسط الظلام. لم تردّ من فورها، مشغولة بضمّ ابنتها إلى صدرها وكأنّها شعرت بمن ينازعها، ثمّ أخذت تستعيد تلك الكلمات، مستنتجة أنّ شبرقة تعرف من وراء بياض زهرة، وكلّ ما تودّه هو التأكّد من انتماء الصغيرة إليها ليس إلّا.

ردّت بصوت راجف:

t.me/qurssan

– تعلمين سيّدتي بأنّ تلك مشيئته.

ما إن أكملت إجابتها حتى سمعت سؤالاً صريحاً:

– من يكون والدها؟

شعرت حمامة بعدم حيادية الصوت، لتجتاحها رعشة خفيفة جعلت صغيرتها تتململ على صدرها. تتخيّل ابتسامة شبرقة، وهي تنتظر إجابتها، لكنّها آثرت الصمت، مفضّلة تدليل نفسها باستماعها لصدى الكلمات، دون أن تستحثها شبرقة على الردّ. تراءى لها وجه شبرقة وقد استطال أكثر وهي تنتظر، وذهبت بذاكرتها بعيداً، إلى تلك الليالي القليلة التي كان عنصيف يغرقها فيها بشبق ساخن، يزرع قُبله على جسدها وقد عرّاها وسط ظلام بيت النار، يداعب بؤر إثارتها، يدغدغها بكلمات لم تألفها، يترك لها هداياه، لتكتشفها لاحقاً على جسمها بقعاً دكناء. لا يفارقها فجراً إلّا بعد أن يشبعها بقبلات خبير بمواطن الإغواء. يشعل جسدها بنجيمات تتوهّج نشوة تمتدّ طوال يومها. يدحرجها على أرضية ظلمة بيت النار، لتتأمّل بدنها صباحاً نهم اللذة، فتستعيد لحظات فسوقه بإشعال غلمتها، غير مصدّقة أنّها أمست بين أحضان سيد الحصن شعلة حارقة. وكثيراً ما تمنّت أن يخلو بها نهاراً لتملأ عينيها بعريه، أن تنظر في عينيه وتتلمّس مخارج همسه، وأن ترى مفاتن بياضه. أعادها صوت شبرقة، لتجيب وكأنّه لا يعنيها:

– كنت أتمنّاه صبيّاً.

وكعادتها، تبادر شبرقة بسؤال لاهث:

– ولماذا صبيّ؟

فتقلدها بسرعة الإجابة:

– حتى يكون حاضراً بيننا!

– من تعنين؟

t.me/qurssan

هنا شعرت بحشرجة صوت سيّدتها يستحثها سرعة الإجابة، فابتسمت وقد أحسّت برودة غامضة تلفح وجهها. استوت على فراشها واضعة زهرة على حجرها، لتمارس لعبة الصمت والذهاب بذاكرتها بعيداً، وكأنّها تستدعي ليالي عنصيف لتستقوي بها أمام أمّه. أتاها صدى همسه «ستكونين غداً بأحسن حال، وسأرعى ما في بطنك ما بقيت حيّاً». يوشوشها بينما أصابعه تمسّد ظهرها، ثمّ تهبط حتى ردفيها، شاهقاً «من له مثل هذا يعيش في وجد عمره». يمدّدها. يدلق وعاء عسل في ساقية ظهرها. يلعق هبوطاً حتى أخمص قدميها. يتأجّج جسدها وتحتدم غلمتها. يعيد على ظهرها ويسكب المزيد بين نهديها، فينسال العسل حتى كأس فخذيها. يمرّر لسانه من الأعلى إلى الأسفل، ثمّ يضمّها إلى صدره، يتمازج جسداهما على أرض بيت النار، تشعر بأنّها تحرق بذرات جمره، لتكتمل لذتها باشتعال جسمها.

تستفيق على صمت يصمّ الأسماع. تتساءل: تُرى لمَ تلقي بسؤالها ولا تلحّ على الإجابة؟ هل هي الأخرى تنشغل بذكريات لذيذة؟ أم تدخل مع نفسها في رهانات حول ما سأنطق به؟ تبتسم وتجيب:

– عنصيف!

هذه المرّة لم تسارع شبرقة إلى سؤالٍ آخر، بل تركت صدى صوت حمامة يتردّد: عنصيف، عنصيف، عنصيف. تخيّلته عصفوراً خافق الجناحين وسط الظلمة، باحثاً عن منفذ. تتوقع في كلّ لحظة أن يعاود صوت شبرقة بسؤال آخر، لكنّه الصمت يجثم وكأنّها أجادت لعبة الانتظار.

تتقلب وقد غادرها ملاك النوم، ولم يعد لها إلّا الانتظار. تراهن على سماع سؤال آخر. رهانٌ يذوي أمام جبروت الصمت. تحاول وتحاول تخيّل ما يشغل شبرقة في ذلك الظلام، تتلبّسها حيرة فظيعة، ترتجف متسائلة: هل أخطأت بنطق اسمه؟ ليعود إلى مسامعها رفيف

t.me/qurssan

أجنحة ترتفع وتسمع اصطدامها بالسقف. يسقط. يعود للتحليق ليصطدم مرّة ثانية بالجدران. ينزلق حتى القاع. تشعر به يجثم جوارها. تتمنّى أن يعود صوت شبرقة. تنتظر كأنّ الليل استحال إلى دهر دون حافات، تنتظر حتى يذبل انتظارها. لعلّ شبرقة نسيت الأمر وابتلعها النوم. ظلّ دويّ الصمت يصمّ مسامعها، إلى أن فاجأها وهجٌ يتسلّل من شروخ النوافذ، هي المرّة الأولى التي يخيفها الفجر. حينها سمعت وقع أقدام شبرقة تتمتم كعادتها بأدعية الفجر متجهة خارج حجرتها، كعادتها في مثل هذا الوقت، إلى بيت الراحة لتتوضّأ. تردّد أدعيتها المعتادة، ثمّ تعود لتستقيم على سجّادة صلاة الفجر وسط العتمة.

يوم فرّ قاتل عنصيف ترك وراءه زوجته ورضيعها قارون ووالده العجوز دون عائل، فأمر مرداس بطردهم من الحصن، وبضمّ إرث القاتل من مزارع الوادي وما يرثه في الحصن إلى أملاكه، ولكن بعد توسّط عاقل قرية المنحدر منحهم مرداس بيتاً ومزرعة كأجراء لديه. تُوفّي العجوز بعد أيّام كمداً وحسرة، لتجد أمّ قارون نفسها وحيدة دون سند حتى. في مواجهة واقعها الجديد، وزعت يومها بين العمل في مزرعة لصيقة بالبيت وإطعام بقرتها والعناية بدواجنها، وإرضاع وليدها. كانت ليلاً ترهف السمع لعلّها تسمع خطو زوجها متسلّلاً إليها، لكنّ الليالي كانت تمضي والوحدة تتسع. ظلّت تخشى على صغيرها الذي يشبّ من مخاطر شتى، تحرص على أن يظلّ بقربها ولا يفارق ناظريها حتى بعد أن بلغ السادسة، تنهاه عن مخالطة أقرانه، أو الحديث مع الغرباء. لا يعرف عن والده شيئاً، تردّد أنّه سيعود قريباً. تحدّثه بين فترة وأخرى عن قرب زيارته لهم، وتؤكّد له أنّ أحلامها لا تخطئ، فهي تراه في منامها وكأنّه لم يغب. تقول لقارون: أراه يحملك على كتفيه ويسير بك بعيداً.

t.me/qurssan

لم يهنأ جبّار بعد تزايد هجمات العصاة، الذين يتسلّلون ليلاً من غابة الجبال حيث يحتمون، يشعلون الحرائق في مزارع البنّ والقات، ويسطون على زرائب المواشي ومدافن الحبوب. تُسمع أصواتهم تغنّي بعد كلّ هجوم وقد تسلّقوا جروفاً مظلمة، لتردّد صدى أصواتهم جبال الليل، ممعنين في تحدّي حصن مرداس، قبل أن يتواروا وسط أشجار الغابة مع اقتراب الفجر.

اختار جبّار من بين الرعية مجموعات ليكمنوا لهم ليلاً، لكنّ هجماتهم لم تتوقف، فاستنتج وجود تواطؤ خفيّ بين بعض الرعيّة والعصاة، لجأ إلى إرسال عدد من رجاله لينضمّوا إليهم، كعيون لرصد تحرّكاتهم، لكن من أرسلهم لم يعودوا. وتباينت الأقاويل؛ قيل: إنّ العصاة أجهزوا عليهم، وقيل: بل ضمّوهم إليهم، وقيل أيضاً: إنّ وحوش الغابة انقضّت عليهم. جمع جبّار بعدها عُقّال قرى الوادي وكلفهم بالخروج ليلاً على رأس مجموعات من الرجال ينتقونهم من كلّ قرية لحراسة مداخل الغابة، ومعابر الوادي. آتت تلك الخطة ثمارها، فبعد عدّة ليالٍ ألقي القبض على عدد من المتسللين، ليأمر جبّار بشدّ وثاقهم إلى أعمدة ساحة الحصن الخارجية، وبإطلاق الرصاص عليهم بعد أداء صلاة الجمعة، ليُتركوا عدّة أيّام بعدها معلقين عبرةً لمن يعتبر.

خيّم الهدوء على ليالي الوادي بعد ذلك، وظنّ الحصن أنّ من في الغابة انكسروا، أو عبروا الجبال وتشتّتوا في أودية بعيدة، لكن ما حدث بعد أسابيع أعاد الرعب إلى الوادي من جديد، إذ فوجئ روّاد سوق الجمعة صباحاً بسبع جثث قد عُلِّقت على فروع الطولقة الكبيرة، عرف الناس أنّ تلك الجثث المشنوقة لحرّاس مزارع البنّ. انتشر الخبر، وأمسى المكلّفون بالحراسة من القرى لا يجرؤون على الخروج.

t.me/qurssan

فتحت زهرة عينيها ذلك الصباح لتجد نفسها على فراش لم تعتده، وجدران ليست جدران حجرة شبرقة. نهضت تبحث عن أمّها لكن لا أحد، سمعت جلبة تأتي من نافذة ضيّقة، نهضت تستطلع الأمر، رأت وجوه لنساء وصبايا تتصارخ من نوافذ الدور الأخرى، عيونهنّ منصبّة نحو الساحة الداخلية حيث مجموعة من الحرّاس يسوطون كائناً يتلوّى بين أقدامهم، لم يجذبها الأمر في البداية فقد تعوّدت أن تشاهد ذلك بين فينة وأخرى، لكن صوت من يسوطونه شدّها، فعادت تتابع ما يدور، تحاول أن تميّز كلماته، لكن أزيز السياط يطغى على كلّ صوت، يتعاقب الأزيز ذابحاً للهواء وذلك الجسد يتلوّى، ترى ذلك الكائن وقد أدميت أطرافه، خُيّل لها سماع اسمها: زهرة، زهرة! عادت تتفرّس، أحسّت بما يذبح روحها وهي ترى مِزق ثوب يشبه ثوب أمّها يتطاير، صرخت مرعوبة وركضت تبحث عن سلّم الهبوط. سريعاً ما وصلت إلى الساحة، ليتأكّد لها أنّها أمّها. تعثّرت وسقطت أرضاً بعدما وقف أمامها جبّار بألسنة سوطه، لبرهة التقت عيناها بعينيْ حمامة مـادّةً كفّها باتّجاهها. زحفت وصفير السياط يتعالى، انطلق طعم النار في لسانها، فجأة ابتعد الحرّاس يجرّون سياطهم الطويلة تاركين لها أن تقترب، لامست أصابع أمّها الدامية، هزت كتفيها صارخة، لتكتشف همود جسمها، احتضنتها وأخذت تتمرّغ فوق صدرها حتى فقدت وعيها.

أفاقت على فراش بارد، تحاول تذكّر ما كانت قد رأته. كوّمت أطرافها خائفة وهي تتذكّر، ثمّ صمتت للحظات تبحث حولها. عرفت أنّها في نفس الحجرة التي كانت فيها قبل رؤية أمّها تُجلد. رأت امرأة ترقبها من الباب، هلعة تنتحب وهي تتلمّس ما حولها كمن يبحث عن شيء. تقدّمت تلك المرأة، جلست جوارها، مسحت على رأسها ثمّ احتضنتها، بعد وقت هدأت وأخذت تسترق النظر بخوف إلى وجهها.

t.me/qurssan

تأمّلت وجه الطفلة بعينها الوحيدة. بيضاء البشرة، شفتان باسمتان، ندّت منها أنّة: أين أمّي؟! فعادت إلى ضمّها صامتة. مرّ ذلك النهار ولم ترَ غير ذات العين تلك. وكذلك مرّ اليوم التالي. ظلّت إلى جوارها لأيّام حتى ألفت قربها، وصوتها الذي قلّما تستخدمه تكرّر سؤالها: أريد أمّي، فتردّ عليها دوماً بابتسامة وبنظرة حزينة. عرفت أنّ اسمها شادن، وأنّها تعيش في طابق للخادمات، وأنّها إحدى خادمات دار شبرقة. حذّرتها من صعود الأدوار العليا. توجّست زهرة لكنّها أخفت توجّسها أمام شادن، متمنّيةً أن تجد إجابات لأسئلتها.

وعت زهرة على الحياة وهي ترى من يُعاقَبون في الساحة الداخلية للحصن، وجبّار يقود جلد المغضوب عليهم من الرعيّة، وقلة من يُعزَّرون أو يُعذّبون حتى الموت. الجميع يتهامسون بالأسباب، والجميع يعرفون أنّ غضب الشيخ وراء كلّ عقاب. ظلت زهرة في توجّس ممّن حولها تفضّل الانزواء، لتنفجر باكية بين وقت وآخر تسأل ذات العين: لماذا قتلوا أمّي؟

تزايدت أعداد العصاة، وتزايدت هجماتهم. ولم تكن تلك المعضلة التي تؤرّق الحصن وليدة اللحظة بل تعود بدايتها إلى أيّام مضت، وبالتحديد إلى ذلك اليوم الذي خرج فيه جبّار لاستقبال عدد من مشايخ الأودية المجاورة، ضمن دعوة التصالح التي أطلقها الشيخ مرداس. وبعد وصول المشايخ إلى أطراف الوادي رأى جبّار أن يستريحوا قليلاً تحت ظلال أشجار رابية تشرف على جزء من الوادي، ومنها أخذ يشير إلى مزارع البنّ الشاسعة، وإلى قرى الوادي المنتشرة، ليلحظ نشاط من في الوادي من الرعيّة، يعملون بهمّة. ثمّ أشار إلى أحدهم مفكّراً في تجريب بندقيّته الجديدة «المُيمَّن». كان ذلك المزارع منكبّاً بفأسه يشق الأرض، حين أنزل جبّار بندقيّته عن

t.me/qurssan

كتفه، وصوَّبها إليه، رافعاً صوته متباهياً بالرهان على إصابة المزارع: «حقوا لي على ذلك الخادم». حبس الجميع أنفاسهم شاخصين بأبصارهم، للحظات ظل إصبع جبّار جامداً على الزناد، تتابع عينه الهدف بينما من حوله ينقلون أبصارهم بين فوهة البندقيّة وذلك الرعوي وهو يهوي بفأسه على الأرض، طارت العصافير مذعورة لحظة سقوط حامل الفأس يتلوّى أرضاً. هلّل البعض منبهرين لمهارة جبّار، وصمت البقيّة مواصلين السير نحو الحصن.

هرع من كان في الجوار بعد سماعهم دويّ الطلقة، فوجدوه يتخبّط في دمه بعد أن اخترقت الرصاصة أسفل بطنه، وضعوا تراباً ناعماً على ثقب الرصاصة، ثمّ حملوه على أكتافهم باتجاه قريته، لكنّه لفظ أنفاسه مع انطفاء شمس ذلك النهار.

مساء ذلك اليوم صعد ابن القتيل عـرّام وقلّة من أقاربه إلى الحصن، مستنجدين بالشيخ أن يتفضّل على ميتهم بكفن وما يعين زوجته على مصابها، لكنّ جبّار خرج عليهم مستاءً لضوضاء أحدثتها أصواتهم، آمراً إيّاهم: عودوا غداً، وسيرى الشيخ في طلبكم بعد أن يقوم بواجب ضيوفه. رفع عرّام صوته محتجّاً وهو ما اعتبره جبّار انتقاصاً من مهابته، فأمر الحرّاس بتفريق من جاؤوا وتقييد ذلك «المعتوه» في جوار الدوابّ خارج بوّابة الحصن، حتى يرى ما يعالج حمقه.

حين أشرقت شمس اليوم الثاني لم يجد الحراس عـرّام، ولا تلك الدوابّ التي رُبط إلى جوارها. ثار جبّار صارخاً: كيف يجرؤ ذلك النذل على سرقة دوابّنا والفرار بها، أين سيذهب من عقابي؟! وفي التوّ أرسل رجاله للبحث عنه واقتياده إليه. لكنّهم عادوا مع انتصاف النهار ليخبروه أنّ جيرانه سكّان القرية رأوه يسوق مجموعة من الدوابّ فجراً وقد حمل على إحداها جثمان والده، وأركب أمّه ناصية والقليل من متاعهم على بقيّة الـدوابّ ورحل بعيداً. ساد حزن بين

t.me/qurssan

سكّان القرية لفقدان ناصية، تلك المرأة التي كانت تداوي خلافاتهم بحكمة وتبصّر.

تتذكّر شبرقة أنّها أرسلت في طلب زوجها، وتوسّلت إليه ألّا يشجّع جبّار على ارتكاب المظالم. ذكّرته بمصير عنصيف الذي ذهب نتيجة إهانته لأعراض الرعيّة. ركعت بين يديه دامعه ترجوه حماية من بقي لها، فردّ عليها ساخراً: ولدك مقدام، وما شكوى الرعيّة إلّا دليل شجاعته، هو شيخهم، والشيخ إن لم يتعلم برعيّته فبمن سيتعلم؟!

انصرفت يومها مكسورة القلب، تفكّر في وسيلة لنصح جبّار من رعونة قد تأتي عليه.

بعد حين انتشر خبر لجوء عرّام إلى غابة الجبال، التي لا يجرؤ أحد على دخولها لكثرة ضواريها. ظنّ الجميع أنّها افترستهما، يبنما كانا قد وصلا إلى أطراف الغابة الأخرى التي تنتهي بجبال وعرة. بعدما أمرته والدته بإشعال المشاعل والسير بها، ما إن جاورا شلّالاً كبيراً حتى باشرا بدفن الميت تحت شجرة ساج كبيرة تمرّ مياه الشلال بمحاذاتها، ثمّ اتّخذا من أحد الكهوف مأوى. ولم تكن تلك الأشجار بخيلة عليهما بثمارها وطيورها التي كان عرّام يصطادها كطعام.

مرّت أشهر لتنتشر أخبار عن تسلّل عرّام وزيارة بعض أصدقائه، وما إن وصل الخبر إلى مسامع جبّار حتى أرسل رجاله لملاحقة من يلتقي بهم، لتتسع دائـرة الخوف ويفرّ البعض خوفاً من رعونته، وتمسي الغابة ملاذاً للفارّين من بطش يتزايد. إلى أن أطلق مستشار الشيخ زيد الفاطمي في إحدى خطب صلاة الجمعة على الفارّين لقب «العصاة»، وأفتى بمطاردتهم.

شبّ قـارون وهـو لا يعرف من الـوادي إلّا بيتهم. خـوف أمّه يلازمه ويزداد يوماً بعد يوم، لا يذكر أنّه فارقها يوماً. لا تنزل المزرعة

t.me/qurssan

إلّا وهو إلى جوارها، ولا يأمن قلبها إلّا وهو في مرمى نظرها. تسألها إحدى جاراتها:

– ولدك لم يعد صغيراً حتى يظلّ لصيقك، دعيه يتعرّف إلى الدنيا، أرسليه يبحث عن والده!

فتردّ عليها مذعورة:

– لكنّي أخشى عليه فهو لا يزال صغيراً لا يعرف شيئاً.

– لقد تجاوز الثانية عشرة وهو يتبعك كظلّك، ألا ترين أقرانه كيف يرعون أغناماً، ويساعدون ذويهم في الوادي.

ظلت كلمات صاحبتها تنخر عقلها. تتأمّله فتراه صغيراً، ولو أنّها بدأت تفكّر في تكليفه ببعض الأعمال فأصبحت ترسله إلى المزرعة ليأتي بطعام للبقرة، وتشجّعه على ملاحقة الدجاجات وإدخالها إلى القنّ قبيل المغيب. وحين اقترب يوم تسليم شرك المزرعة، شجّعتها صاحبتها على أن ترسله بدلاً منها. قالت لها المسافة قريبة، دعيه يعينك، يصعد عند الصباح ويعود قبيل الظهيرة.

تردّدت قليلاً، لتجد نفسها وقد أمست تصف له الطريق إلى الحصن. حذرته: «إيّاك والحديث إلى الغرباء، أنجز تسليم ما علينا من شرك وعُد إليّ سريعاً». ثمّ أوصته بما يجب عليه أن يقول حين يصل دوره لتسليم ما عليهم وبأن يعود سريعاً بعدها. وهكذا ما إن أشرقت الشمس حتى ودّعته حاملاً زكيبة البنّ على ظهره، ووقفت تراقب سيره من سطح بيتها وهي تكفكف دموعها. وما إن اختفى صاعداً مرتفعات الحصن حتى شعرت بوخز في قلبها، صارت تحدّث نفسها: اللهمّ اجعله خيراً، وردَّه لي سالماً غانماً يا ربّ العباد. ثمّ تصمت قليلاً لتعاود الهمس إلى نفسها: ولمَ القلق.. بعض الوقت وأراه هابطاً عائداً إليّ.

t.me/qurssan

جلست ترقب المرتفع لترى البعض عائدين. ثمّ انتصف النهار ليتزايد قلقها. أحسّت بضيق صدرها. شردت تتأمّل تلك الجبال السامقة تهرب من هواجس تؤلم روحها. ظلت دمعتها، حتى اقترب النهار من نهايته وهي تردّد: الله لطيف بعباده. الطف بي. غابت الشمس وقد دهمتها مشاعر باردة وعلا صوتها منتحبةً.

يوماً بعد آخر تلاشى نفور زهرة من شادن وتوطّن الأمان في قلبها، أمست تنام بين أحضانها، لتحلّ رائحتها مكان رائحة حمامة. تتبعها كظلها مشاركةً إيّاها في أعمالها من تنظيف وطبخ وترتيب. مع الأيّام تعلمت الكثير. ترى شبرقة خلال خروجها أو صعودها الدار، وتعرف أنّها تتجنّب تلاقي عيونهما. فشادن لا تنفكّ تردّد عليها التنبيهات: «لا ترفعي عينيك إلى وجه سيّدتك حين تقترب هابطة أو صاعدة. وحين تقف ابتعدي مشغولة بأعمالك». كانت زهرة تلاحظ كيف تقف شبرقة مصدرةً لشادن التعليمات حول بعض ما يجب عمله، ولا تعيرها أيّ اهتمام وكأنّها غير موجودة. كانت تحلم بأن تلتفت إليها، تسألها عن أحوالها، لكنّها كانت تمضي.

يجمعها الليل بشادن، تشكو لها باكية أنّها لا تفهم ما يدور. تهزّ شادن رأسها مواسية وهي تستمع لحديثها عن عذاباتها، وتكرّر لها النصح: «لم تعودي صغيرة، ها أنت تقتربين من العاشرة، عليك أن تدركي أنّك خادمة، وأنّك غير ما كنت تظنّينه صغيرة، فلا داعي للشكوى والتذمّر، ولا تتعلقي بأوهام، اعلمي بأنّك مجرّد خادمة». وكلّما لاحظتها تجنح للانطواء ردّدت على مسمعها: «تذكّري أنّك خادمة، وقيمتك في نشاطك وما تقومين به من أعمال، وأيّ تباسط من شبرقة أو من ابنتيها يوماً يُعدّ تفضّلاً منهنّ عليك». تحاول زهرة استيعاب ما تسمعه، تحاول تجاهل شبرقة وابنتيها، أن تمحو أيّاماً كُنّ

t.me/qurssan

يناغينها فيها، يحملنها بين أذرعهنّ، وتشاركهنّ طعامهنّ وفراشهنّ. ظلّ الغموض يحيّرها.

كانت شخصية شادن تحيّرها.. عطفها، حرصها. تحاول اكتشافها، تسألها عن ماضيها، عن فقدانها لعينها، فتردّ عليها بنظرات حائرة وقد دنت بوجهها أرضاً قائلة: قد أحكي يوماً عمّا يشبع فضولك، لكنّك لن تجدي ما يثير، لتعزّز إحساس الفتاة بالغموض الذي يكتنف ماضيها، وبالحيرة حيالِ هذه المرأة المختلفة عن كلّ من هنّ في الحصن. تنشغل نهاراً بالعمل، ومع قدوم الليل تأخذ قسطاً من الوقت لتعليم زهرة فكّ الخط، وحفظ آيات من القرآن، وبعض الأوراد والأدعية، تدفعها لاستخدام عقلها في شؤون الحياة، وتستمع إلى ثرثرتها، لكنّها نادراً ما تتحدّث عن نفسها.

ظنّت زهرة أنّها ستنسى حمامة، لكنّها لم تفعل. لا تزال تسمع استغاثتها، وتراهم يجلدونها في منامها. تفيق في كلّ مرّة وقد بللها العرق. تلوذ بشادن التي تسارع لاحتضانها مردّدة أذكاراً وأدعية. تمسك بوجهها ناظرة في عينيها بغموض محبّب. ترى في عينيها شروداً، وذلك الوجه المستطيل بياضاً يميل للصفرة، تهامسها في حنوّ:

– اذكري الله.

– لا يزالون يسوطونها، ولا تزال تستغيث بي! تردّ عليها وقد اتّسعت عيناها رعباً، بينما تشعر بعمق محبّة شادن لها، وبأنّ الله قد أرسلها لها بعد فقدان أمّها، وتنتابها مخاوف من أن تفارقها يوماً.

أمست زهرة تجيد كتابة الكلمات، وقراءة القرآن. تستمع في زهو إلى كلمات شادن المشجّعة:

– تتعلمين بسرعة، لكن احرصي على ألّا يعرف أحد في الحصن أنّك تجيدين ذلك. ودوماً تعلمي أن تستمعي أكثر ممّا تتحدّثين.

t.me/qurssan

– كيف ذلك، وأنا أحسّ بنار تتّقد في داخلي، وأريد من يسمعني.

– إن أردتِ البقاء في هذا الحصن فعليك أن تخفي أشياء كثيرة، وأن تنسي أشياء أخرى مثل طفولتك، وأمّك، أن تنسي حتى مشاعرك. عليك أن تعرفي أنّ شبرقة، سيّدة هذا الحصن، تنتظر الإخلاص، وألّا تطمعي بشيء آخر. بقاؤك يتطلب استمرار تفانيك في خدمتها.

دهش قارون لكثرة الصاعدين من الرعيّة. صفوف طويلة تنتظر في ساحة واسعة أمام الحصن، البعض يقود دوابّ محمّلة بأكياس الذرة وزكائب البنّ، وآخرون يزمّون قطعان الماشية، نسوة يحملن سلال البيض و«قفاع» الدواجن، وأخريات على رؤوسهنّ أواني السمن و«قعبان» العسل. ناس من شتّى الأعمار يملأ ضجيجهم الساحة، سمع بعضهم يتهامسون وقد خالطت أصواتهم ملامح خوف ورهبة. اصطفّ خلف من اصطفّوا حتى اقترب بثقل ما يحمل نحو مصطبة ارتفعت فوقها مظلة كبيرة. بعد حين، جاء دوره أمام تلك المصطبة وقد فُرشت بمفارش زاهية. كان يتكئ على جدار ضريح كبير عدد من الرجال يتوسّطهم رجل قصير خالط الشيب شعره، عرف ممّن حوله أنّه الشيخ مرداس، وإلى يمينه ولداه جبّار وجمال وإلى شماله مستشاره زيد الفاطمي بعمامته الكبيرة وجسمه الضامر، يفرد جناحي سجلّ الشرك أمامه، وحولهم عدد من حاملي بنادق الـ«جرمل» التي تُرى لأول مرّة في الوادي.

لاحظ أن من يصل أمام المصطبة يضع ما يحمل، ثمّ يباشر بتقبيل كفّ زيد، مستشار الشيخ، معرّفاً باسمه. يدوّن المستشار ما أوصله الرعوي في سجله، ثمّ يشير عليه بالتمام، ليلتفت الرعوي نحو الشيخ راكعاً، يقبّل ركبته المغطاة بقماشة مزركشة، لاهجاً بالدعاء، ثمّ يستدير عائداً من حيث أتى، وهكذا الذي يليه.

t.me/qurssan

تقدّم قارون وألقى بزكيبته أمام المستشار زيد. سأله عن اسمه، وما إن نطق به حتى التفت الجميع يتفرّسون ملامحه، ثمّ انتشر همس. سأله زيد الفاطمي بصوت هامس ناظراً إلى الشيخ وقد علت شفتيه ابتسامة غامضة:

– أهذا كلّ ما عليكم من شِرك؟

ردّ مبتسماً ببراءة:

– تقول أمي لم يبقَ لنا إلّا القليل من الذرة.

عاد صوت زيد حاداً:

– أين شِرك عسل النحل، وعجل وسمن البقرة وشقران الدجاج؟

انطفأت ابتسامة قارون:

– ما لدينا من نحل اصطدناه من شجوج الجبل، و... ولم يسمح له زيد بأن يكمل:

– ما زلت غِرّاً يا بنيّ، والحق على والدتك، عليك أن تعلم أنّ الوادي بجباله وشعابه وكلّ ما فيه حق الشيخ.

ظلّ قارون مرتبكاً لا يلوي على شيء، وبإشارة من الشيخ امتدّت أكفّ الحرّاس لتقتاده بعيداً، بينما انشغل زيد بمن يليه من الرعيّة.

قادوا قارون باتجاه الحصن، أدخلوه مع آخرين باباً ضيّقاً يجاور بوابة كبيرة. لم يميّز ما حوله لظلمة المكان الذي تحتلّه روائح عفن. رويداً رويداً رأى جدران دكناء، وعشرات الرجال بملامح شبحية ونظرات منكسرة ملتصقين بأرض متربة. العيون تتأمّله بإشفاق لا يعرف سببه. مكان شبيه بسرداب فسيح، ينتهي بباب آخر داخلي، عرف في ما بعد أنّ من يُحبسون خلفه لا يخرجون. ظلّ لأيّام ينتظر أن يخرجوه ليعود إلى أمّه، وإن كان من حوله يهامسونه بأنّ من يدخل الحبس لا يخرج بسهولة. مع الأيّام عرف أنّ من خلف الباب الداخلي محابيس لم يخرجوا منذ أدخلوهم قبل اثنتي عشرة سنة.

t.me/qurssan

زادت معاناة زهرة وحيرتها لتزايد ظهور حمامة في منامها. صراخ ودماء ودموع، إلى أن جلست ذات ليلة تحكي لشادن:

– رأيتها وقد تغيّرت حالها. تضحك، وقد بدت بقوام ممتلئ، ووجه تغطّيه ابتسامة ساحرة. هرولت بفرح لاحتضانها وكأنّها لم تمت. لكنّها صدّتني، كانت تتلقّت كما لو أنّها تبحث عن شخص ما، إلى أن ظهرتِ أنت بوجه طافح بالبشرى، وكنتِ بعينين باسمتين.

جلست شادن تنصت وقد كسا وجهها الطويل حزن وحيرة، ثمّ سألتها باهتمام على غير عادتها:

– كنتُ بعينين؟ وماذا بعد؟

– ثم عانقتك كما لو كنت صديقتها الحميمة، وأمسكت بكفّك ماضية بك بعيداً. احترت حين تركتماني، لكنّي هرولت محاولة اللحاق بكما، التفتت حمامة تزجرني، ثمّ مضت بك بعيداً حتى اختفيتما.

– ثمّ ماذا؟

– هل عرفتِ أمّي يوماً؟

– كنت أراها رؤية عابرة، لكنّي لم أجالسها.

– إذاً كيف تفسّرين رؤياي.

صمتت شادن تردّد أدعيتها. ثمّ سألتها بصوت هادئ:

– هل رأيتني أسير معها راضية؟

– بل سعيدة!

عادت شادن تقلّب الأمر، ليسود صمت ثقيل. لفَّت زهرة بأغطيتها وهي تواصل أدعيتها بصوت هامس فوق رأسها حتى انتظمت أنفاس الفتاة.

يوماً بعد يوم لم تعد ترى وجه شادن ناقصاً عيناً، ولم تعد تلحظ تشوّه محجر عينها، فقط تشعر بها كأجمل ما تكون، بوداعتها وحنوّها

t.me/qurssan

الدائمين، بإيماءاتها.. وجهها الباسم يشعرها بالأمان، تكرّر طلبها دائماً وهي ترتمي على صدرها:

– أرجوك لا تتركيني، ولا تدعي حمامة تقودك بعيداً إذا دعتك لمصاحبتها!

– عليك أن تتحلّي بالإيمان فلم تعودي صغيرة.

– الأمر لا علاقة له بالصغر أو الكبر.. كلّ من حولي لا يعنيهم أمري، وقد قتلوا أمّي، أنت الآن أقرب الناس إليّ بعطفك وصدق مودّتك.

– إذن حان الوقت الذي يجب أن أخبرك فيه بأن رعايتي لك ليست إلّا لأمرها هي!

التفتت زهرة مغضّنة بين حاجبيها بتعجّب، ناظرة في عينها:

– أمر من؟

– شبرقة.

– شبرقة؟ كيف ذلك؟

– هي من كلفتني، ودوماً تسألني.

– كلفتك بماذا؟

– كلفتني برعايتك.

– ولماذا لم تخبريني من قبل؟!

– نبّهتني بعدم الإفصاح.

– لا أصدّق ما تقولينه.

– بل هو الصدق.

– وهل الحبّ يأتي بالأمر.

– لا، عليه سلطان.

– وخوفك عليَّ، هل بالأمر؟

– لا أملك غير ذلك.

t.me/qurssan

– فكيف تقولين إنّها من أمرتك؟!

– تلك هي الحقيقة، وعليك أن تكتمي ما أفشيت به لك.

– لماذا أنت بالذات؟

– لو لم أكن أنا لكلفت غيري.

– لا يهمّني ما سمعته منك، يهمّني فقط أن أكون إلى جوارك دوماً.

– أنت قارئة كتاب الله، فلا تخافي.

– هل أفهم من كلامك أنّك تنوين تركي؟

– لن أتركك. لكن تذكّري أن شبرقة مهتمّة بك، وتذكّري أنّك في أمان، وستظلين داخل الحصن ما دمتِ مخلصة لشبرقة.

– لا يهمّني الحصن، أنتِ تهمّينني.

تزايد خوف زهرة من فقدان شادن، وإن ظلت ذلك الكائن الغامض، ولذلك تكرّر سؤالها:

– وعدتني أن تحدّثيني عن نفسك؟

وكلما سألتها، تبتسم شادن بعطف، ثمّ تهامسها:

– أنا عند وعدي، لكن الوقت لم يحن بعد.

– أشعر بأنّني أعرفك.

لمعت عين شادن بشجن دفين وهي ترى نظرات الخوف في عينيْ زهرة، لتتّسع ابتسامتها، وقد أخذت ترتّب ما ستحكي، وقبل أن تبدأ ارتجفت شفتاها. ونزت من عينها دمعة شاردة. أدركت زهرة ما يعتمل في أعماقها، فمسحت خدّها، وسارعت لتخفيف ألمها:

– لا عليك من إلحاحي، لا تحكي واهدئي وصلّي على باهي النور.

فردت شادن ذراعيها كطفلة خجلاً تضمّ زهرة بحنوّ، لتتسع مساحة الصمت بينهما طوال تلك الليلة.

t.me/qurssan

لم تصل إلى قارون أخبار أمّه التي ظلت تصعد إلى بوابة الحصن مصطحبة بقرتها، محاولة إخراج ولدها مقابل تسليمهم البقرة، وظلت تتلقى منهم الإجابة ذاتها: اذهبي وسيلحق بك بعد أيّام. وفي آخر صعود لها، خرج جبّار زاجراً، وقد أمر الحرّاس باقتياد بقرتها، صارخاً: البقرة بقرتنا، هيّا اذهبي! لتهبط وحيدة تؤنسها دموعها.

في ذلك الوقت، كان قارون يعيش حكايات المحابيس وقد فتحت له نوافذ جديدة، غيّرت من مداركه، فهو لم يعد كما كان، وأصبح يعرف أنّ لكل حبيس حكاية دامية من البؤس والشقاء، ويدرك أنّ كلّ فرد من سكّان الوادي حكاية تمشي على قدمين.

أكثر ما أثار دهشته معرفته أن والده قاتل، عرف حكايته من خلف باب الحبس الداخلي، الذي كان يتسرّب منه صوت شنهاص ليلة بعد أخرى، سارداً اسمه سبباً لنكبته. كان قارون يشعر بالخجل وهو يستمع لحكاياته، وبأنّ معرفته بها قد حمّلته دَيناً له. حكايات شنهاص الحزينة تلك أعادت ترتيب عقل قارون وقلبه، وأنارت له دربه.

تزوره وصايا أمّه: «يا ولدي لا تجالس من هو أكبر منك، ولا تستمع إليه. يا ولدي لا تأمن لأحد، يا ولدي ابتعد عن الناس تسلم». فيحدّث نفسه: لو أنّي اتبعت وصاياها لَما عرفت ما عرفت من حكايات حزينة، ولا عرفت أنّي ابن قاتل. لطالما تساءل لمَ كانت تحكي له حكايات ناقصة «أبوك يا ولدي ذهب وسيعود إلينا بعد أيّام». حكايات تتكرّر عبر الأيّام والشهور والسنين، نفسها دائماً، ودائماً ناقصة. «أبوك مظلوم وسينصفه الله!». في الحبس يربط ما يسمعه من حكايات بصدى وصايا أمّه وحكاياتها، ليكتشف أنّها امرأة غريبة، وأنّ والده هو الآخر ليس كما كان يتصوّره، مثل كلّ الآباء، لذلك حرص على سماع المزيد من حكايات المحابيس.

t.me/qurssan

في الحبس بدأ يرى نفَسَ كائن جديد، يرى ذلك الصبيّ إلى جوار أمّه ولا يراه نفسه، يحاول التعرّف إلى نفسه عن مسافة، إلى الوادي الذي يعيش فيه، إلى أمّه ووالده الذي لا يعرفه. حكايات منحته حياة متخيَّلة.

لم يعد الحبس تلك الجدران الضيّقة، فأفواه من سكنوه تحلّق بعيداً وكأنّ تلك الجدران أثير. يحكي المحابيس عن الرعيّة ليل نهار، حتى من يُقبض عليهم من العصاة، يحكون في محاولة للتحايل على الموت الذي يقترب منهم، يحكون طوال الوقت، حتى أثناء اقتيادهم إلى الساحة، في لحظات إحكام وثاقهم على أعمدة الساحة يحكون لعيون مصلّي يوم الجمعة، وأمام صوت زيد الفاطمي وهو يتلو «إنّما جزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسولَه ويسعَون في الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنفَوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم». في لحظات التعذيب وحتى عند مواجهة الموت تظلّ أصواتهم تحكي.

عقب ذلك يعلم مَن خلف جدران الحبس أنّ أرواحهم تحرّرت من جهنّم الحياة، إلى جنان الفضاء الرحب.

في صباح يوم مشمس، نودي على قارون، ظنّ من في الحبس أنّ فرج الله حلّ به، وأنّهم سيتركونه يعود إلى أمّه، لكنّ رجال جبّار اقتادوه باتّجاه بوّابة الحصن، حتى الساحة الداخلية. أحاطوا به بسياطهم، بينما وقف يتأمّل اصطفاف دور الحصن المحيطة بالساحة، تردّد جدرانها السامقة ضجيجاً متداخلاً. التفت الجميع حين خرج جبّار من باب إحدى الدور. رآه قصيراً، يلوّح بسوط أسود، مشيراً عليهم بإحكام وثاقه، بينما دار حوله نصف دورة، ثمّ وقف أمامه

t.me/qurssan

مركّزاً عينيه الضيّقتين يتأمّل ملامحه. أفزعه هـدوؤه، أشار بطرف سبّابته على ملتقى حاجبيه، وصرخ بفم لافت اتساعه:

– ها قد نمت لك شعيرات وأصبحت رجلاً.

لم يدر قارون ماذا يعني بتلك الكلمات، لكنّه استنتج أنّه يسخر منه، تتالت تلك الحكايات التي سمعها عن بطشه وقسوته، ففضّل الصمت. صرخ جبّار ثانية: ولك بشرة صفراء تحاكي بشرة الموتى.

نطقها راسماً على ملامحه علامات التقزّز، وأردف: أتظنّ أنّ الوقت حان لتسدّد دين والدك؟

تأكّد له في تلك اللحظة أنّه ينوي شرّاً، ثمّ واصل: ماذا تتمنّى قبل أن نبدأ؟

– ...

– أراك صامتاً.

أخذ جبّار يلوب مهتاجاً وكأنّ صمت قارون أثاره، ثمّ أردف:

– تريد أن تعود إلى أمّك؟

ابتسم قارون لذلك السؤال:

– الأمر بيدك.

– هذا السوط يجب أن يثلم وجهك المثلّث.

قالها وهو يلوّح بسوطه.

– وماذا بعد؟

– و فمك الصغير هذا يجب أن يتّسع.

– فمي؟

– نعم فمك الذي يهذر بتوافه الكلام.

– أيّ كلام؟

– ما يتبجّح به للمحابيس، مفاخراً بأنّك ابن قاتل أخي.

– في مثل ذلك لا أفاخر.

t.me/qurssan

– وبأنّ الشيخ سرق مزارعكم.
– هذا ما يقوله الناس.
– لكنّ فمك يهذر بذلك.
– هذري لا يغيّر من الأمر شيئاً.
– ما دمت ترى ذلك، فعليك أن تكون شجاعاً وتتحمّل مداعبتي!
– ...
– يبدو أنّك مخنّث ولا تعي مواقف الرجال.

شعر قارون بالإهانة، ولم يدر كيف يردّ عليها وهو مكتَّف اليدين. غيظه دفعه لاستحلاب عصارة فمه، والاقتراب من وجه جبّار وقذف ما فيه زفرة واحدة، لتنهال الصفعات على وجهه حتى أدمي فمه. أطبق رجاله برقبته وهو يهوي به أرضاً، في تلك اللحظات ازداد ضجيج نوافذ الدور، ليرى قارون وجوه نساء كثيرات. صرخ جبّار على رجاله: هيا أروني بسالتكم في ابن الزانية. أزّت السياط تتناوشه، وهو يتلوّى أرضاً محاولاً تفادي ألسنتها. زاد صخب نوافذ الدور ابتهاجاً برقص السوّاطين. حريق يطال أطرافه وقد مزقت ألسنة السياط جلده. سريعاً ما غطّت الدماء ذراعيه اللتين يحاول بهما حماية وجهه، وتطايرت مزق ردائه المهترئ ليصل حريقها إلى جلده. أشار جبّار للسوّاطين بالتوقف فظنّ قارون أنّ الأمر انتهى، لكنّه سمعه يأمرهم: والآن أين بلطاتكم. عليه أن يسدّد دين أبيه!

في تلك اللحظات كان ضجيج الساحة يصل إلى زهرة. ذكّرها بيوم أمّها. في البدء قاومت رغبتها متشاغلة بما بين يديها من عمل، لكنّ الصراخ زاد. استجابت على مضض واعدة نفسها بنظرة خاطفة من إحدى النوافذ ليس إلّا، لكنّها دُهشت لكثرة الوجوه المطلة من النوافذ، ولهياج جبّار وحماسة رجاله حول كائن يغطّي الدم معظم بدنه. همّت بترك النافذة، لكنّ زئير جبّار أثارها وهو يشير على رجاله

t.me/qurssan

بإحضار البلطات. إلى أن ارتفع صوت حادّ من إحدى النوافذ العالية صارخاً: «كفى، كفى يا عبد الجبّار». استدارت محاجر الجميع تبحث عن مصدره، لتميّز العيون وجه عيشة زوجة الشيخ. امتطّ جبّار غاضباً، وقد فتح فمه الكبير متحدّياً من يعترضه. خُيّل لزهرة وهي تتابع ما يدور أنّ ذلك البدن الممدّد لأمّها، وهي تكرّر استغاثتها: زهرة، زهرة. وقفت مذهولة تحاول استيعاب الأمر، تسأل نفسها محدّقة فيه: أيُعقل أن تكون أمّي حيّة؟! لم تتمالك حين هرولت هابطة سلّم الدار، تردّد: أمّاه، أمّاه. حتى خرجت إلى الساحة تشق طريقها باتّجاه ذلك الكائن، وما هي إلّا خطوات حتى وقف لها جبّار بالمرصاد، ركعت متوسّلة «أرجوك اتركها، أرجوك». لطمها لتخرّ أرضاً، نهضت صارخة تحاول الوصول، سحبها من شعر رأسها وهو يصرخ غضباً: ابتعدي وإلّا نلت ما يناله! لم تنقض هنيهات حتى رأت عيشة قادمة تتبعها خادماتها، وقد وقفت أمامه غاضبة: ألست في مقام أمّك يا جبّار، ألا تسمعني؟ يكفي هذا الصبيّ ما ناله من عقاب، اتركه!

ودون أن تنتظر ردّه، أشارت على السوّاطين: هيّا توقفوا، كفى، أعيدوه إلى محبسه! تلى ذلك صخب النوافذ. لم يستوعب جبّار ما يدور، فاستدار هائجاً وترك الساحة.

مع حلول مساء ذلك اليوم، تهامس من في الدور أنّ الشيخ طلّق عيشة، ليخيّم على الحصن إحساس مبهم.

وأمست زهرة تهذي:

– لقد رأيت أمّي وسمعتها، هو صوتها الذي يلاحقني في منامي، لم تمت، لقد رأيتها.

فتردّ عليها شادن دامعة العين:

t.me/qurssan

– يا صغيرتي خفّفي عن نفسك، لقد تجاوزت الثالثة عشرة وما زالت روحك تسافر إلى ما يشقيها.

– لكنّها حيّة.

– من رأيته ليس بأمّك، بل صبيّ يعرف الجميع حكايته.

– ومن أين له بذلك الصوت؟

– أوهامك جعلتك ترينه أمّك!

– تُرى من يكون؟

– لا عليك في من يكون.

منذ ذلك اليوم انشغلت زهرة بذلك الشاب.. ترى حمامة فيه.. تتحايل على شادن أن تخبرها حكايته. تعجّبت شادن من أن تفكّر صبيّة في شابّ رأته لأول مرّة، لتطرأ مواضيع جديدة منذ ذلك اليوم على منادمتهما.

طلاق عيشة أعاد لشبرقة بصيص أمل بعودة مرداس إليها. لم تظهر على من حولها ما يجول بخاطرها، لكنّها انشغلت بترتيب الكلام الذي ستقوله له، وقد أضمرت أن تظهر بعض التمنّع عند قدومه، لتوحي بأنّها ليست متلهّفة، أحسّت بأنّ عليها أن تغفر له، وأن تفتح قلبها من جديد. ليلة بعد أخرى تستعدّ لقدومه. تهتمّ بجسمها، لتعكف خادماتها على نزع ما أهملته من شعر، ودهن يطرّي المهجورة. ينقشن الحنّة ويخضّبن أطرافها مستغربات تحوّلها، وهي تستعرض ما كانت قد أهملته من ملابس السنوات الخوالي. أمست تعدّ الأيام والليالي. فجأة يتسرّب إليها خبر عن عروسٍ جديدة من قرية هجرة الفواطم. تمنّت أن يكون ما وصلها شائعات، لكنّ الأيّام أفصحت عن أعيرة نارية أُطلقَت ابتهاجاً. يومها غامت عيناها وسقطت مغشيّاً عليها من هول المفاجأة بعدما رأت موكب العروس يشق الوادي باتّجاه الحصن. ولأيّام ظلت حبيسة حجرتها، تشعر بالخجل ممّن

t.me/qurssan

حولها، ليتحوّل كره قلبها إلى حقد نحو من عاشرته سنوات طويلة، بعدما أمعن في إهانتها وإذلالها بالهجران وتوجيه الطعنات المتتالية. شعرت بأنّ الحصن أمسى لا يعنيها في شيء، وقرّرت اعتزال الجميع باحثة عن سكينة لروحها.

زارها جبّار فظنّت أنّه قدم ليساندها في محنتها، لكنّه كعادته يأتيها قبل أن يشرع في أيّ خطوة يطلب منها الدعاء، مستعرضاً ما حققه في زيادة مساحة المزارع، وفي ملاحقة العصاة. لم يكن يعلم أنّها تتوقع منه أن يتحدّث عن إهانات أبيه لها. خطر لها لحظتها أن تغادر الحصن عائدة إلى بلادها، لكنّها فكّرت في ابنتيها وتذكّرت أنّ مرداس لم يعرهما منذ ولادتهما أدنى اهتمام، رافضاً من تقدّموا للزواج بهما، حتى تجاوزت كبراهما الثلاثين من عمرها. تحاملت على نفسها وقرّرت كتم ما فكّرت فيه.

سافرت بها ذاكرتها إلى ليالٍ بعيدة، حين كان مرداس يسعد بالسكن بين أحضانها، يبوح لها بهمومه وبما يحلم به، ودوماً يأخذ ما تشير عليه به، وحين كان يسافر إلى خارج الوادي ويعود محمّلاً بالشوق والهدايا الثمينة. لم تكن تتخيّل أن يتغيّر ويمعن في هجرانها، فلا تعرف لأكثر من خمس عشرة سنة هل هي مطلقة أم لا تزال على ذمّته. مع زواجه بالأخيرة هذه سكن كرهه في نفسها. نسيت صوته، حتى رائحته، وبهتت ملامحه من ذاكرتها.

تمضي في عزلتها وقد فقدت اهتمامها بما يدور حولها، وذبلت أحاسيسها، لتقرّر في لحظة تأمّل أن تمحو ما بقي منه في صفحة ذاكرتها، وأن تستعيد توازن حياتها بمعزل عنه، وتكتفي بمكانتها كأمّ للشيخ جبّار. ذلك ما تحسبه بقي لها، وإن كان مثل أبيه فاقد الإحساس، لكنّه يظل ولدها. هكذا، شرعت بسلخ مشاعرها كزوجة لمرداس، وصرفت أوقاتها للصلوات وتأمّل ملكوت الله. تنهض في

t.me/qurssan

جوف الليل تناجي القدير دامعة متضرّعة أن يصون لها كرامتها، وأن يحفظ ابنها جبّار، ويشمله برعايته. تحرص على إخفاء انكسارها أمام ابنتيها وابنها، فلا تظهر إلّا قويّة ومتماسكة، تتصنّع سعادة زائفة.

إلى أن فاجأها ذات ليلة بزيارتها. وقفت وسط حجرتها تحاول أن تبدو متماسكة، لم تتحرّك، بينما وقف ينتظر أن تنحني لتقبيل ركبتيه كما هي العادة. لمحته بطرف عينيها وقد بدا أقصر ممّا كان، مشوّش الملامح، وعيناه ضيّقتان، وذلك الشعر الذي غلبه البياض يزيده دمامة. انتظر أن تصرف ابنتيها وخادماتها كما كانت تفعل حين يحضر، لكنّها، عوضاً عن ذلك، خطت نحو نافذتها لتطلّ على فضاء الليل. تأمّل طولها الفارع ليلحظ ضمور قدّها وامتلاء ردفيها، وشموخ أنفها. تمتم في سرّه «آه من تصابيها!» استمرّ الصمت يمرّغه دون أن تلتفت. بادر آمراً ابنتيه والخادمات بالخروج، لكنّها التفتت مشيرة إليهنّ بالبقاء. أحسّ لحظتها بأنّها ذاهبة بعيداً، وأدرك أنّ عليه تقديم بعض التنازلات لإرضائها. بدأ بالسؤال عن الأحوال، فلم تلتفت أو تردّ عليه. انتقل لمداعبة ابنتيه ببعض الكلمات الأبويّة، ثمّ تجرّأ واقترب منها ليمسك بكفّها، هامساً: «أعرف أنّك عاتبة عليّ لزواجي».

ثمّ صمت ينتظر ردّها، وحين طال انتظاره واصل متجاوزاً سنوات قطيعته له: «لا ضير في أن أحدّثك بما جئت من أجله. تعلمين أنّ زواجي ببنت زيد الفاطمي إنّما هو زواج منفعة، وهدفي كسب ولاء الفواطم لمساندة ابنك بعد أن تكاثر العصاة، وتزايدت هجماتهم».

صمت ينتظر أثر كلامه عليها، لكنّها أمعنت في تجاهله، ثمّ أردف: «الفواطم أكثر الخلق معرفة بشرع الله، فهُم آل بيت رسوله الكريم، وبمقدورهم تطويع الرعيّة لمشيئتنا، أو دفعهم للعصيان، فبحفظهم لكتاب الله وأحاديث الصادق الأمين يسوسون الناس،

t.me/qurssan

ولديهم بلاغة الحديث». ثمّ صمت مرّة أخرى ظانّاً أنّه أبلى في تليينها، لكنّها لم تأت بأيّ ردّ فعل، وكأنّ حديثه لا يعنيها. ثمّ انتقى لها كلمات ودودة، ليعود صوته بنبرة هادئة يحدّثها عن الأيام الخوالي، وعن نيّته أن يعوّضها في القادم من الأيام. لكنّ صمتها استمرّ. أحسّ بأنّه يهذر دون صدى، فتوقف حادساً بأنّ كلماته لم يعد لها وقع لديها. شعر بهزيمته أمام تجاهلها، التفت حوله، لتخونه دمعة انزلقت على خدّه، وتختفي تحت جذور شعر لحيته الكثّة. أطرق يحرث بناظريه قاع الحجرة، يمسح جبينه كمن يزيل همّاً ثقيلاً جثم عليه. ثمّ عاود الاقتراب منها ناظراً إليها كطفل، لكنّها نفرت، ليخطو مبتعداً عنها نحو باب الحجرة. لم يلتفت إلى نحيب ابنتيه، وهو يردّد: «أنكِر أن تكون هذه هي شبرقة التي عرفتها»، ويهبط مهدّداً ومتوعّداً، تائهاً في أيّ الطرق يسلك.

مع نهاية السنة الأولى لزواج فاطم، سقط جنينها، وبعد أشهر سقط للمرّة الثانية، لتتهاطل التقوّلات بين النساء. منهنّ من تقول إنّ فاطم لا تريد أن يكون لها خلف من مرداس، لأنّ والدها غصبها على الزواج به وهو في سنّ جدّها، وأنّها هي من تتخلّص من حملها، وأخرى تجزم بأنّ عملاً ما قد عُمل لها. لكنّ شادن كان لها رأي آخر باحت به لزهرة في مسامرتهنّ، أنّ مرضاً خفيّاً قد حلّ بها!

إثر إسقاطها الثالث، فاجأت فاطم من في الحصن بإغلاق أبوابها، بعد أن أخبرها والدها زيد الفاطمي: «لقد فتحت الكتاب ووجدته يشير إلى ضرورة اتّقاء أعمال النفوس الشرّيرة وعدم مخالطتها».

ورغم أنّها لم تلتق شبرقة قط، أشاعت أنّها وراء ما يحصل لها. أمّا عيشة جليستها فقد برّأتها من أيّ فعل شرير، ولو أنّها أقفلت دونها أبوابها مساواةً بغيرها، وبذلك ألغت فاطم ما كانت تنظمه

t.me/qurssan

منذ وصولها من موالد وجلسات مديح كانت تدعو إليها جميع نساء الحصن، وبعض نساء قرية المنحدر. كانت بعض النساء يتردّدن إليها طلباً للشفاء من علل تسكنهنّ، أو طلباً للخلفة وجلب الحبيب، لتتلو عليهنّ ما تيسّر، وكثيراً ما تحققت على يديها أمانيهنّ، وما زاد يقينهنّ ببركاتها حفظها للقرآن، وللأوراد، وإنشادها بصوت ساحر. لكنّها لم توجّه الدعوة يوماً لشبرقة، وبدورها منعت شبرقة ابنتيها وخادماتها من الذهاب إلى دار فاطم.

تلقف المحابيس قارون فاقداً للوعي، مُوقنين موته قبل شمس يوم غد، ولذلك أمسوا يرتلون فوق رأسه «ياسين والقرآن الحكيم» بصوت باكٍ، مساعدةً لروحه على الرحيل دون ألم. لكن شفتيه فاجأتاهم وقد تحرّكتا لتشاركاهم طوال الليل دون صوت، ومع انبلاج الفجر كان همسه يساير ترتيلهم، ولم تنقضِ ساعات النهار حتى كان صوته يشاركهم بوضوح. اعتبر المحابيس ما يدور معجزة حين استطاع فتح عينيه رغم تورّم وجهه وتداخل ملامحه، ليسألهم: أين أنا؟ من أنتم؟ من يشعل النار في بدني؟ رويداً رويداً استعاد وعيه متذكّراً جبّار وسياط من حوله، وصراخ النوافذ. وخلال أيّام أخذت جراحه تلتئم، وإن ظلّت روحه مثخنة بجراحها، وقد انزوى بنفسه في أحد الأركان يخشى من حوله، فلا يكلم أحداً أو يستمع إلى أحد، متوقعاً في كلّ لحظة عودتهم لاقتياده. لكنّ الأيّام تعاقبت والصيف حلّ دون أن يعودوا لاقتياده. ثمّ حلّ الخريف بأمطاره الغزيرة فترك قارون زاويته ليشارك من حوله حكاياتهم.

وفي ليلة ماطرة هرب الجميع دون أن يشعر بهم أحد. هرع بعض حرّاس الحصن حين سمعوا أصوات استغاثة من وسط غمرة أمطار غزيرة، ليقف الجميع أمام فجوة استحدثت في جدار الحبس، تبادلوا نظرات الخوف، بينما صعد أحد الحرّاس ليخبر جبّار بما حدث.

t.me/qurssan

هـرول جـبّـار كالمجنون وسـط عتمة عـاصـفـة، يتبعه رجاله ببنادقهم. طافوا حول الحصن، يرافقهم دويّ الرعد وذلك الوميض المتلاحق، هبطوا قرية المنحدر، ليتوزعوا باتّجاه عدّة قرى. كان جبّار يصرخ بهستيريا: «هيّا اعبروا السيول، لاحقوهم لا تدعوهم يفرّون، أريدهم أحياءً، هيّا أسرعوا طاردوهم في القرى وجروف الجبال».

تنقلوا في عين العاصفة بين القرى القريبة، دون جـدوى.. حاولوا خوض مجرى السيل فتراجعوا من تعازمه، وما إن خفّت الأمطار وقلّ منسوب السيل حتى عبروه بصعوبة ليخوضوا أوحال المزارع بحثاً عن أثر لهم، متنقلين من قرية إلى أخرى يهدّدون أقارب الفارّين بسحب الأراضي منهم واقتيادهم، كما هدموا في طريقهم أكواخاً لأخدام. ظلوا لأيّام يجولون وسط الأمطار دون أن يستدلوا على فارّ. فجأة انتشر خبر عن وجود جثث في المزارع وضفاف المجرى، فهرع رجال جبّار ليجدوا فعلاً جثثاً متفرّقة. بعد توقف الأمطار، رأوها جيّداً وقد انتفخ بعضها وتفسّخت أخرى، وأخذت الكلاب والطيور تنهشها. توالت الأخبار عن أعدادٍ منها جرفها السيل أسفل الوادي، وأخرى لا يُعرف عددها قد جُرفت إلى أودية بعيدة. عمّ الحزن أرجاء القرى بين الرعيّة، وتعالى نحيب متواصل في الأنحاء.

«سأحدّثكِ اليوم عن حياتي، أليس هذا ما تودّين؟».

بتلك الكلمات بـادرت شـادن مسامرتها لزهرة، وقـد استوت صامتة، هي التي جُبلت على الهذر. واصلت شادن: «سأحدّثك أولاً عن والـدي، وهو من بين من كانوا في حبس الحصن. أنا يا عزيزتي ابنة الشيخ شنهاص وأظنّك سمعت بفراره، بعدما ظلّ أكثر من خمس عشرة سنة يحلم بالفرار.

t.me/qurssan

تهدّج صوت شادن، وتقاطر الدمع من عينها، لتشاركها عينا زهرة، وقد شعرت بأنّ كلمات شادن أجنّة تهوي: «أمّي التي كانت تعيش وقد تعوّدت أن تكون في دارها مخدومة، أمست هنا خادمة رغم سنّها، وترين أنّنا لم نلتقِ، رغم أنّنا في حصن واحد، وقد مُنع عنّا اللقاء أو الجلوس معاً، مهدَّدَتين إن خالفنا تلك التعليمات بالموت. خمس عشرة سنة لا أراها إلّا من بعيد، وكثيراً ما حلمت في منامي أنّني ألامسها. تعيش صمتاً مميتاً. ولا أملك لها نفعاً. أترين الآن الغبن الذي يثقل قلبي؟».

لم تكمل وأجهشت باكيةً، لتعاود زهرة احتضانها، مواسية وقد أدركت مقدار الظلم الذي وطئ قلب مربّيتها.

قالت لها:

– وأنا التي تساءلت دوماً من تكونين، رغم همس بعضهنّ، إلّا أنّك كنت كائناً غامضاً، عشت في رعايتك سنوات، شدّني إليك حزمك وحنانك، كرمك وحلمك، إخلاصك وصدقك، كنت عكس كلّ من في الحصن، وذلك ما جعلني أجزم بأنّ خلف سجاياك حكايات، لكنّي لم أتخيّل صدقاً أن تكوني ابنة ذلك الحبيس، وأنّك تتحمّلين كلّ تلك المعاناة. وكثيراً ما أدهشتني سجاياك، فمن أول يوم أحطتني بعطفك وأسبغتِ عليّ حبّك دون معرفة سابقة، ولم أكن أجد لذلك جواباً، رغم قولك بأنّ شبرقة وراء ذلك. إلّا أنّ قلبك كان يشي بحبّ لا سلطان عليه، كنتُ محتارةً وأنت تتصرّفين كملاك حارس، تحرصين عليّ أكثر من نفسي، حتى إنّك علمتني القراءة والكتابة، وجعلتني أحفظ من القرآن، ودوماً تحدّثينني بعقل الحكمة حتى ملأتِ قلبي محبّة، واليوم ها أنت تكشفين لي عن عذاباتك، أن تعيشي كلّ تلك السنين وأنت تحلمين بالفرار، يا الله كم تحمّلتِ من غبن، كنت أحسب أن لا أحد تجاوز غبني».

t.me/qurssan

صمتت زهرة وأخذت تشارك شادن نحيبها وقد تشبّثت كلّ منهما بالأخرى. ظلّتا هكذا لليالٍ من الحكايات المحزنة، والدموع السخيّة، توقعت زهرة بعدها أن تتغيّر شادن تجاهها، إلّا أنّها زادتها حبّاً. وظلت هي تلك الخادمة المتفانية، المحافظة على صمتها، حتى إذا ما انزوتا، تفتح مربّيتها قارورة حكاياتها، مواصلة: «تستطيعين رؤية جبال بلادي من أسطح الحصن، إن نظرت غرباً ترينها، فهي ليست بعيدة، سترين قراها على القمم المنيعة. هناك وُلدت وتزوّجت رجلاً ظانّةً أنّ سعادتي لن يعترضها عارض، حتى ذلك اليوم حين فاجأنا مرداس برعيّته. كنت يومها في زيارة لدار والدي، التي لم تكن بعيدة عن بيت زوجي وأطفالي. لم أستطع العودة إليهم، فقد كان هول تلك اللحظات عصيباً. لم نكن نتوقع الحرب أبداً، ولذلك سريعاً ما سيطرت رعيّته على قرانا حتى وصلوا إلى شوارع دار الجفنة ليحاصرونا ببنادق «المُيمَّن» الجديدة، برصاصها ذي الدويّ المفزع، مطالبين بإخلاء دارنا من سكّانها. في البداية رفض والدي وبادلهم حرّاسنا الرصاص. مع صباح اليوم الثاني هدّدوا بنسف الدار بمن فيها، ففضّل والدي التسليم بعدما تعهّدوا و«طبعوا وجههم»، متعهّدين بأن لا يُمسّ أحدنا بسوء، صدّقنا أنّهم سيتركوننا ويكتفون بنهب الدار، ولكن ما إن خرج آخرنا حتى عملوا على نسف الدار، وربطوا أيدينا إلى خشبة ثُبّتت فوق أكتافنا، ثمّ جعلوا نفراً منهم يسوقوننا لساعات طويلة تحت حرّ الشمس باتجاه الحصن، وكلما حاذينا قرية تركوا سفهاءها ينالون منّا، وما إن اقتربنا من الحصن حتى عادوا «للزوملة». لم نكن نتصوّر أن نُهان ونُذلّ بتلك الطريقة. الأفظع من كل ذلك كان حين بتروا أكفّ الرجال منّا، وشوّهوا عيوننا كما ترين. ثمّ أتاني خبر مقتل زوجي وأطفالي بعدما طوّقوا البيت بعشرات البنادق، وطالبوه بتسليم نفسه ومن معه، لكنّه رفض، وقَتل عدداً منهم قبل أن يقتلوه ويقتلوا

t.me/qurssan

أطفالي الثلاثة. ولم يكتفوا بذلك، بل نهبوا أثاث البيت، حتى النوافذ والأبواب حملوها معهم». صمتت شادن تتأمّل وجه زهرة الذي كان جامداً، وقد تدلّت شفتاها كمن يوشك على البكاء. ثمّ أردفت: «والآن هل تعرفتِ إليّ؟».

تئنّ شادن بحكاياتها الحزينة، بينما أطراف زهرة ترتجف لخوف ينخرها، تلجأ إلى دموعها صامتة، تخلدان إلى النوم متدثّرتين بغبن ثقيل. زادت محبّة زهرة لشادن بل زاد إحساسها بها. حكاية بعد أخرى، كانت تكتشف صلابة مربّيتها ورهافتها. لم تعد زهرة تلك الطفلة الصغيرة، عليها الآن أن تبادل شادن العاطفة والرعاية، خاصة أنّ شادن لم تكن تظهر حزنها أمام الآخرين، وقد ظلت طوال السنوات الماضية تستمع لأنين زهرة، وأمست بحاجة الآن إلى من يستمع لحكاياتها، تلك الحكايات التي تكشف لها آلاماً لم تكن تدركها، وأحداثاً لم يكن لها أثر يوم وقوعها، لتضجّ جراحاً وآلاماً دفينة، تحفّزها على التفكير في الانعتاق.

غيّرت تلك الحكايات في زهرة الكثير، كما غيّر فيها منظر ذلك الفتى الذي رأته يُجلد، وأمسى سؤال يؤرّقها: لماذا جُلد؟ ولماذا أرادوا بتر أطرافه؟ ولماذا عيشة هي من غامرت لإنقاذه؟ تنصت لحكايات شادن ولا تدرك أنّ ذلك الفتى أصبح يشغلها. تظنّ حضوره سلوى، إلّا أنّ أحاسيسها تغيّرت ولا تعرف لماذا تخجل من شرحها، وتفضّل الاحتفاظ بها.

دعا مرداس مستشاره زيد وابنه جبّار لتدارس حالة المزارع، ومعالجة الأوضاع قبل تدهورها. كان زيد يشكّ في غرق من فرّوا، لكنّه فضّل عدم البوح بشكوكه حتى ينجلي الأمر، طارحاً عدّة مقترحات، استحسن الشيخ أحدها، وفحواه أن يقسم الرعيّة أيّام الأسبوع بين

t.me/qurssan

العمل في مزارع البنّ والقات، والعمل في ما بين أيديهم من أرض. إلّا أنّ زيد أشار بالتريّث في تنفيذ ذلك حتى انقضاء فصل أمطار الخريف، وهو بذلك يهدف إلى التأكد من صحّة شكوكه. وبالفعل صدقت شكوكه، إذ لم تمض أسابيع قليلة حتى انتشر بين الرعيّة خبر أنّ من فرّوا من حبس الحصن لجأوا إلى الغابة، وأنّ تلك الجثث التي وُجدت لم تكن إلّا لقلة منهم. وفي لقاء تالٍ صادق المستشار للشيخ بشكوكه التي كانت تساوره، معلّلاً بأنّ الرعيّة قد هوّلوا في عدد الجثث بينما هي قليلة نسبة إلى عدد الفارّين الذي يتجاوزون ثلاثمئة فار. ظلّ الشيخ صامتاً، وقد حيّرته مسألة هدوء الغابة، ثمّ قال: لو أنّ من فرّوا التجأوا إلى الغابة كما تظنّ، فلماذا توقفت هجماتهم؟ يكاد الشهر ينقضي ولم يخرج أحد منهم حتى الآن! أليس من المنطقي أن تتزايد الهجمات عمّا كانت عليه وقد زادت أعدادهم؟!

اعترف زيد بأنّ الأمر محيّر وأنّ عليهم التأنّي ومتابعة ما ستفصح عنه الأيّام. لكنّ أيّام الشهر الثاني انقضت، وبدأ فصل الشتاء، لتزداد حالة المزارع سوءاً.

لم يكن للمحابيس يد في هروبهم كما كان جبّار يظنّ. كلّ الحكاية أنّهم استفاقوا على سماع طرقات متواصلة خارج الحبس، وظنّوا في البدء أنّ حرّاسهم يقومون ببعض أعمالهم الاعتياديّة، إلّا أنّ تواصل تلك الطرقات أثار بينهم التساؤلات، وإن رجّح البعض أن يكون ما يسمعونه دويّاً لرعود السماء. ظلّ الترقب والنقاش ينير ظلمة تلك السراديب لساعات. ألصق البعض آذانهم والبعض الآخر أكفّهم على الجدران في محاولة لمعرفة ما يدور. ارتفع بعد ذلك الهمس بأنّ تلك الطرقات على جدران الحبس ليست من السماء. تحفز الجميع وقد ازدادت وضوحاً، ومع ازدياد وتيرتها حُبست الأنفاس خوفاً، وأخذ نفر منهم يتلون ما يحفظون من القرآن، ليفاجَأوا باهتزاز بعض أحجار

t.me/qurssan

الجدار هزات خفيفة، حينها تأكّد للجميع أنّهم أمام حدث كبير، ورويداً رويداً تخلخل أحد الأحجار لتظهر لوامع البروق من شقوقٍ دقيقة، ما لبثت أن اتّسعت، لترتجف القلوب وقد سقط أحد الأحجار، ناحت الحناجر بالبكاء والدعاء وقد تسرّب صوت من الخارج: «ساعدونا بتوسيع الفجوة كي نساعدكم على الخروج!». هلّل الجميع بصوت واحد غير مستوعبين ما يدور، لتتسابق أصابعهم في خلخلة الأحجار حول الفجوة. تزايد وميض البروق، وشهق البعض لبرودة زخات المطر، بينما تواصل ضجيج الرعود. لفحت وجوههم روائح نديّة وأصوات متداخلة، واختلطت الرياح الباردة بالأصوات، إلى أن دخل شبح من الخارج معرّفاً بنفسه وقد تزاحم المحابيس حوله: «أنا عرّام، وقد جئت ورفاقاً لي لإنقاذكم، فهلّا تنتظمون لنخرجكم قبل أن ينتبه إلينا أحد؟ لن نترك أحداً هنا. حتى إخوتنا الأخدام يجب أن يرحلوا معنا».

بُهر قارون بشبح عرّام وقد وقف دون خوف أو تردّد يقود الجميع للهروب. خرجوا ببطء. كان قارون وسط طابور طويل يمسك بذراع من قبله، ليمسك به من بعده، يهبط بهم نفر وسط عواصف شديدة. لم يكن أحدٌ منهم ليميّز موطئ قدميه، فقط وميض البروق تنعكس على وجوههم وملابسهم الغارقة، قبل أن يعود الظلام ويبتلعهم وسط هدير يصمّ الآذان. هبطوا حتى جاوروا الطولقة الكبيرة، وتجمّعوا جوارها لالتقاط الأنفاس. ظلّ عرّام ورفاقه يتدارسون عبور السيل وقد تعاظم في مجراه، بينما البعض ينتحب، والبعض الآخر يهذي من شدّة البرد، وآخرون تمدّدوا أرضاً عاجزين عن مواصلة المسير. تبرّع من يحملهم مواصلين السير بمحاذاة المجرى الهادر، حتى وصلوا إلى منطقة أيقن عرّام أنّها أفضل من غيرها للعبور، مشكّلين سلسلة بشريّة متلاحمة السواعد. بدأ الأشدّاء منهم بمصارعة الانجراف حتى

t.me/qurssan

نجحوا في الوصول إلى الضفّة الأخرى. تابعت السلسلة خوض المياه، وقبل النهاية تراخت قبضة بعضهم وتساقطوا ليجرفهم السيل. قيل إنّ السبب هو أذرع لا أكفّ لها، وقيل إنّ البعض أنهكه التعب. لا يُعرف عدد من ذهب بهم السيل ولا من يكونون، نجا قلّة منهم بعدما علقوا بجذوع أشجار قريبة، ومصدّات صخرية، ومضى السيل بمن ابتلعهم بعيداً. واصل الناجون سيرهم متخللين مزارع موحلة ومساحات معشبة حتى وصلوا إلى أطراف الغابة، كان الجميع منهكين، لكنّ عرّام واصل التخفّي بهم بين جذوع الأشجار ليتوغلوا في الغابة خوف لحاق رجال جبّار بهم. مضى وقت وهم يصارعون إعياءهم ويأسهم حتى وصلوا إلى أعماق الغابة، لتهاجمهم بعض الضواري، قاتلوها ببسالة، مخلفين عدداً ممّن نجحت الضواري في افتراسهم، وواصل الباقون سيرهم حتى وصلوا إلى جوار الشلّال الكبير. توزعتهم كهوف متفرّقة. لا يكادون يصدّقون أنّهم نجوا. ظلوا لأيّام يرتشفون جوعاً مميتاً، بينما الأمطار مستمرّة وقد أصابت بعضهم حمّى قاتلة ومات منهم عدد آخر بالجوع والتعب.

عندما انقشعت السحب وتسللت خيوط الشمس لتضجّ زقزقة العصافير وأصوات كائنات أخرى لا تُرى، كان عدد من نجوا كبيراً رغم كلّ من فُقدوا، ومن بينهم ابن الشيخ شنهاص وبنو عمومته بعدما خذلتهم أطرافهم أثناء عبور المجرى.

لم تكن فكرة إنقاذ المحابيس إلّا من بنات أفكار ناصية، تلك المرأة التي تمتلك بصيرة وصبراً اكتسبتهما من والدتها التي كانت لها فراسة في منازل النجوم وطوالعها، لذلك كان يعود إليها الرعيّة لمعرفة معالم الزراعة، ومواسم الأمطار.

يوم فكّرت في اللجوء وابنها إلى الغابة، ظنّ البعض بمسٍّ محق عقلها، ولكن حين لحق بها من لحق من الرعيّة هرباً من بطش الحصن

t.me/qurssan

أدركوا عمق حكمتها، إلّا أنّها أدركت أنّ الغلبة في النهاية للحصن في ظلّ العدد المحدود من رجال الغابة، ولذلك ظلت تفكّر في اجتذاب المزيد منهم، وتبحث عمّن يرفدهم. هكذا خطر لها محابيس الحصن، وظلت تبحث عن وسيلة لإخراجهم، ومع بداية موسم أمطار الخريف أخذت تفكّر في استغلالها، وهمست في أذن ابنها ذات مساء:

– سأكلفك بعمل مهمّ وأرجو أن يمنحك الله حمايته!

– أنا مستعد، لكن ما طبيعة العمل؟

– أفكّر في ضمّ مجموعة من الرجال الأشدّاء إلينا هنا.

– وما علينا فعله؟

– إخراج محابيس الحصن.

– المحابيس، كيف؟

– عبر اغتنام أيّام النجم سهيل.

– سهيل؟

– بإحداث ثغرة في جدار الحبس، تخرجون منها المحابيس وتأتون بهم إلينا!

– والحرّاس، والرعيّة؟

– ما أشير إليه صعب، لكن إن ظللنا دون رافد من الرجال فلن نفلح في قهر الحصن.

– لكن هل الحرّاس بتلك البلادة حتى نهُدّ جداراً دون قتال.

– في ليالي «ذي مذران» تهطل أمطار متواصلة، بل وتزداد ليلة النثرة.

– ليلة النثرة؟

– تلك الليلة لا تأتي إلّا مرّة في السنة، فلا يخرج الناس من منازلهم لوابل الأمطار، ليلتها يتعالى هزيم الرعود.

– ومتى تكون هذه الليلة حتى نستعدّ؟

t.me/qurssan

لم تتعوّد فاطم الوحدة، وهي التي قضت سنوات صباها في زخم متواصل حتى بعد وصولها إلى الحصن، حيث جعلت من نفسها محور الجميع.

فقد عاشت سنوات طفولتها وسط زوجات والدها الثلاث، وإخوتها الأحد عشر ذكراً. هي البنت الوحيدة، شبّت والكلّ يدللها، حتى زُفّت إلى مرداس الذي يكبرها بثلاثين عاماً. لم تكتفِ بمن حولها من خدم، بل سارعت إلى جمع نساء الحصن والمنحدر في مناسبات متتالية، لتضجّ دارها بتلاوة القرآن والأناشيد النبويّة، لكنّ إجهاضها المتكرّر أشعرها بالخزي أمام من يزرنها طلباً للشفاء والخلفة، وما زاد من انزوائها شائعات إصابتها بسحرٍ ما، لتعتزل الجميع لعلّها تحظى بما يفرح قلبها، ويخلّصها من حزنها المتواصل. لكنّ إجهاضها ظلّ يتكرّر، لتوقن وجود أرواح شرّيرة تسكن الحصن، وتتحكّم بمصائر أجنّتها. يراقب والدها تدهورها من زيارة إلى أخرى. شارك أمّها وإخوتها خوفه من أن تصاب بالجنون. جمع مجموعة ممّن يجيدون ترتيل القرآن من أمناء القرى، وأحضرهم، بعد أن أمر بإشعال المواقد ورش بخور الجاوي في زوايا وقاعات دار فاطم، وكان يوماً مشهوداً، حين توزع أكثر من خمسين مرتّلاً، على أدوار الدار مرتّلين بصوت جماعي رخيم، وشوهدت خيوط البخور تتصاعد من نوافذ أدوار الدار، ليتحدث من شاهدها بأنّه رأى أشباح شياطين تتراقص خارجة من الحصن تحملها الرياح متفرّقة في جهات الأرض الأربع، وخلال الترتيل الذي امتدّ إلى سبعة أيّام بلياليها، أمر الشيخ بذبح أربعة عشر ثوراً، وجعل توزيعها بنظر زوجته فاطم وعلى نيّتها يكتب الأجر والثواب.

تلك كانت أيّاماً مشهودة تحدّث بها الوادي، ولهج الجميع لفاطم خلالها بالدعاء. بعد أداء الفقهاء ما عليهم انصرف كلّ إلى حال سبيله، ودعاها والدها أن تستبشر خيراً. قال لها: «أدّينا ما علينا

t.me/qurssan

والباقي على الله، وإيّاك أن تدعي أحداً ينجّس دارك بعد تطهيره، فلا تفتحي أبوابك لهنّ أبداً، وأكثري من الصلوات والتقرّب إلى الله بالصدقات».

مرّت الليالي وفاطم تتوسّد رأس مرداس وقد أضحت مضاجعته واجباً. تتأمّل هرمه، وتواظب على تلك المضغة التي تستحلبها كما أوصاها والدها مستبشرةً خيراً. تناجي الكريم أن يمنّ عليها بكرمه، أن يهبها ولداً.

بعد عودة عرّام بجموع المحابيس، دعت ناصية الجميع للتشاور في أول لقاء. بدأت حديثها بالترحيب، وبحمد الله على سلامتهم، طالبة من الجميع الصبر على شظف العيش، والتآخي والتراحم بين الجميع. صمتت ليبادر الشيخ شنهاص ويقف شاكراً لها، مثنياً على شجاعة عرّام وبسالة رفاقه، داعياً الجميع إلى تكوين أسرة واحدة، نهجها التعاون وهدفها العمل في سبيل هزيمة الحصن، وإنقاذ الوادي من بطشه وطغيانه. قال وهو يلوّح بكفّه اليسرى: لقد جمعنا ظلم مرداس ومستشاره الفاطمي، وعلينا أن نكون يداً واحدة لنزيل ظلمهم، ذلك الظلم الذي عمّ الوادي قاطبة.

صمت قليلاً، وقد التفتت ناصية إليه. كان يبدو كشبح ناحل، زادته تلك الأسمال بؤساً، وشعره الأشيب مهابة وغموضاً، وقد تدلت سوالفه ليبدو كدرويش على باب الله. حاول أن يغطّي ملامحه بابتسامة عريضة، وقد مالت كتفه لجهة كفّه المبتورة.

كانت ناصية تقلّب ما طرحه، وهي صامتة، ترمق وجوه من حولها، بينما يواصل شنهاص حديثه: «ونحن اليوم نترحّم على من قضوا نحبهم غرقاً ومن افترستهم الوحوش ونهشتهم الحمّى، ومن عُذبوا وقُتلوا على أيدي زبانية الحصن. ونتضرّع إلى الله العليّ القدير أن يمنّ عليهم برحمته ومغفرته، كما ندعوه أن يمنحنا الصبر

t.me/qurssan

والثبات، وينصرنا على طغيانهم، فهو نعم المولى ونعم النصير، وهو العالم بما نعانيه ونكابده من ظلم وتجبّر، وما لجوؤنا إلى هذه الغابة الموحشة إلّا للفرار من بطش أشد توحّشاً، بالتلاحم والتآخي سينصرنا الله عليهم».

صمت قليلاً يتأمّل أثر كلماته في وجوه من حوله، ثمّ عاد صوته متهدّجاً: تعلمون أنّي فقدت أولادي وجميع أبناء عمومتي، وتعلمون أنّ زوجتي وابنتي ما زالتا رهينتَي الحصن إلى هذه اللحظة، وقد أمسيت في هذه الدنيا وحيداً. أنتم اليوم أسرتي، لي ما لكم وعليّ ما عليكم. واسمحوا لي بأن أقترح عرّام شيخاً لنا، والخالة ناصية مرجع الجميع لحكمتها وسلامة بصيرتها.

فجأة نهض عرّام مقاطعاً بارتباك:

– اسمح لي، عفواً. أولاً مرحباً بكم بيننا، لكنّني أعترض أن أكون شيخاً على أحد، فهذا ما لا أقبله على نفسي، ولا على غيري. اعتراضي هو لمبدأ ولمسمّى شيخ.

صمت عرّام يمسح دمعة خاتلت عينيه، ثمّ أردف: تعلمون أنّ من قتل أبي هو شيخ، وأنّه نفسه من أنتم فارّون منه وسط هذه الغابة الموحشة. فكيف ترضون أن ننصّب علينا شيخاً؟ هذه الصفة تعني لي الظلم والتسلط والاستغلال.

صمت بعد أن لاحظ أنّ بعض العيون تذرف دموعها، لتعقّب ناصية:

– أوافق على ما طرحه عرّام، وأقترح أن يكون شنهاص أخانا الكبير.

وأشارت إليه وقد لاحظت على وجهه علامات الاستياء، ليواصل حديثه:

t.me/qurssan

– لن يكون إلّا الخير كلّ الخير في تضامننا وتكاتفنا، وهذه الخالة ناصية مرجعنا، وأتشرّف أن أكون الأخ لكم جميعاً. المهمّ الآن هو أن نوفر سلاحاً يماثل سلاحهم. أفكّر في مراسلة من أعرفهم ولي بهم صلات قديمة من مشايخ الأودية الأخرى، وأتمنّى ألّا يخذلونا.

هلّل الجميع، وأخذ البعض بالرقص منتشياً، بينما عرّام يرمقه بنظرات مبهمة، وقد أردف مزهوّاً: «وقبل توفير السلاح يجب أن ننظم أنفسنا، بداية بعدم خروج أيّ أحد منّا إلى الوادي لمهاجمة المزارع أو استهداف أحد، وأن نلزم الهدوء حتى نكون جاهزين لمقارعة الحصن وهزيمته. ومن أجل ذلك يجب أن نوزع أنفسنا إلى مجموعات، منها مجموعة تتسلّل بين فينة وأخرى لمراقبة تحرّكات رجال الحصن ومعرفة ما يعدّونه ضدّنا، وكذلك كسب من يتعاطف معنا ويناصرنا، إضافة إلى جلب ما يمكن جلبه من تبرّعات أولئك المناصرين من سكاكين وفؤوس ومناجل للدفاع بها عن أنفسنا حتى تصل البنادق. ومجموعة أخرى تحمل الرسائل إلى من نطالبهم بتزويدنا بالسلاح، وأخرى تترصّد أيّ تسلل أو عدوان، بينما يتعاون بقيّة الإخوة لإيجاد بقعة مناسبة وإنشاء أكواخ نسكنها بدلاً من الكهوف، أكواخٌ متجاورة محاطة بسياج يحمي من الحيوانات. وعلى النساء جمع ما يمكن جمعه من ثمار الغابة وأحيائها وإعداده طعاماً للجميع».

عاد صخب الأصوات مستحسناً، بينما صمت شنهاص ناظراً باتجاه ناصية، هازاً رأسه يدعوها للحديث عمّا قاله، لتعقّب:

– أرى في ما طرحه الأخ الكبير عين العقل، وذلك ما كنّا نحتاج إليه، وبذلك بدأنا نسير في الطريق الصحيح.

ثمّ ختم شنهاص كلامه بالثناء على ناصية وحكمتها، ولم يذكر عرّام بشيءٍ، كما كان قد فعل في بداية حديثه، ثمّ أردف: «الأهم هو

t.me/qurssan

الالتزام بعدم مهاجمة الوادي أو الخروج دون إذن، فجميعكم تعلمون أنّ أيّ ارتجال أو تصرّف فردي سيضرّ الجميع. أمامنا طغيان لا يرحم، ولن ننتصر عليه بالأماني والأحلام، بل بالصبر والتعاون والتمسّك بحبل الله، والسير على سنن رسوله الكريم».

خلال الأيّام التالية، انشغلت كلّ مجموعة بما كُلِّفت به. وسريعاً ما سُوّيت مساحة واسعة بعدما أزيلت الصخور والأشجار، ليبدأ من كُلّفوا بإنشاء الأكواخ بقطع ونقل ما يحتاجون إليه للبناء. كما تسلل عرّام ومجموعة ليلاً للالتقاء بمن يأنسون إليهم من الرعيّة، لمعرفة ما يدور في الوادي، وجمع ما يتيسّر لديهم من التبرّعات. وكُلف قارون وثلاثة معه بعبور الجبال برسائل إلى مشايخ الأودية المجاورة، يخبرهم فيها شنهاص بفراره، طالباً منهم المدد لمواجهة طغيان حصن مرداس.

أثناء رحلته، شاهد قارون أودية وبلداناً لم يتصوّرها يوماً، وتأكّد له أنّ خلف كلّ جبل جبالاً لا تنتهي، وأنّ المشايخ موجودون في كلّ وادٍ، وأنّ لكل شيخٍ فاطميّاً يشير عليه بأحكام الشريعة ويعلّم الصغار القرآن ويصلّي بالناس.

عاد قارون ومن كَلّفهم شنهاص بإيصال رسائله، وقد تعلم الكثير من عبوره مسالك تلك الجبال الوعرة، وتعززت ثقته بنفسه بعد مقابلته عدّة مشايخ. استقبله شنهاص مردّداً: «أرى فيك أحد أولادي الذين فقدتهم، وأريدك دوماً رجلاً شجاعاً. فالأيّام المقبلة بحاجة إلى أمثالك من الأوفياء».

أصبح يدعوه لمجالسته، ليبثّ فيه روح البسالة، ويعدّه لأن يكون يده اليمنى مطلقاً عليه صفات تشعره بأهمّيته. يحدّثه عن ماضي أيّامه وعن تجاربه، باثّاً فيه آماله في قهر مرداس واسترداد مخلاف أبيه وجدّه غرب الوادي. يتحدّث باستفاضة عن والده، ذلك

t.me/qurssan

الرجل الشجاع الذي كان من أوائل من رفضوا وقاوموا طغيان مرداس وتسلّطه. يخبره كم كان قويّاً في مواجهة الظلم، مؤمناً بالله، متَّبعاً هدى المصطفى.

مع مرور الوقت، أمسى عرّام صديقاً لقارون. أخبره قارون كم أُعجبَ به حين ظهر عليهم فجأة في تلك الليلة الماطرة، وقد انعكست لوامع البروق على وجهه المخضّل بالمطر، وهو يَعبُر من ثغرة الجدار، ويوجّههم برباطة جأش ليخرج الجميع بهدوء ونظام، وحين نهض رادّاً على ما طرحه شنهاص، رافضاً إحلال صفة شيخ على أيٍّ من سكّان الغابة. يسأله من أين اكتسب كل تلك الجرأة والشجاعة التي يتمنّى أن يماثله فيها، يغادر الوادي ليعود متلهّفاً لمسامرته، والحديث عمّا عاشه كلٌّ منهما في رحلته. يتحدّثان عن آمالهما وقد عادا إلى الوادي، تتطابق تطلعاتهما ورؤاهما في معظم الأشياء إلّا شنهاص، فقارون يصفه بالشيخ، وعرّام يعبّر عن شكوكه فيه، وعدم ثقته بنيّاته، وعن أنّه يخفي خلف تلك الوداعة والطيبة شيخاً متسلطاً. يستشهد قارون بحديث شنهاص للجميع وما يظهره من تقوى ونيّات طيّبة، لكنّ عرّام يردّ أسباب ثقة قارون به لإيمانه بلجوء والده إليه، ما تسبّب له بتلك الهزيمة، معلّلاً بأنّ شنهاص لم يقبل بلجوئه إلّا لتنفيذ شيء في نفسه وليس لنصرته، ولولا أنّ مرداس سبقه بخديعته لكانت أفعاله أفظع وأشنع. يضحك قارون واصفاً ما يقوله صاحبه بالكلام الكبير وبأنّه لا يفهمه، متمنّياً عليه أن يأخذ الأمور ببساطة، وناصحاً إيّاه بالطاعة وبعدم تحميل نفسه أكثر ممّا تحتمل.

يفضّل قارون الاستماع لحكايات صاحبه القديمة، التي تسبق مقتل والده. هروبه تلك الليلة من الحصن وقد ساعده أحد الحرّاس في فكّ رباطه، وسرقة الدوابّ والهروب بها، ثمّ تصميم أمّه على الهروب قبل أن يصل حرّاس الحصن، وهروبهما وهو يحمل جثة

t.me/qurssan

أبيه إلى المجهول. يحكي له خوفه ورهبة الغابة وهما يتوغّلان فيها حاملَين مشاعل الضوء، وأمّه تردّد له: تشجّع فالوحوش تشمّ رائحة الخوف. ترعبه أصوات تأتي من كائنات لا تُرى. حتى بعدما استقرّا في الكهف، ظلّ يتوقع أن يلحق جبّار ورجاله بهما، فلم يكونا يخرجان من الكهف إلا للضرورة القصوى، إلى أن تبدّلت الأحوال حين لحقت بهما مجموعة من الرعيّة. كان قارون يستمع لتلك الحكايات وكأنّه من عاشها، ليحكي بدوره عن ذكرياته قبل صعوده بـ«شِرك» الشيخ. عن رفقته لأمّه الحريصة على حمايته، وإبعاده الناس خوفاً، ليشبّ لا يعي ما يدور حوله، حتى إدخاله الحبس، لتتبدّل الدنيا في عقله وهو يعيش حكايات المحابيس التي لا تنتهي، حكايات بطش وكأنّه القدر. ويحكي عن حرائق سياط جبّار وقد أدمت بدنه. لحظتها أدرك أنّ حكايات المحابيس ليست تهاويش، وقد أمر جبّار بإحضار البلطات، ليصعد طعم الموت اللاذع تجاويف رأسه، كلّ ذلك جعله كائناً مغايراً لما كانه.

حكاياتهما المتبادلة جعلتهما أكثر تقارباً، إلّا أنّ ما كان ينغّص عليه هو إصرار عرّام على بث شكوكه في ما يبطنه شنهاص. صوته يلاحقه وهو في مجلس شنهاص، يؤثر عليه، فأصبح يراه غير ما كان يراه في السابق، ويُدهش لأسئلته: ماذا يقول عنّي صاحبك؟ حينها يتذكّر أنّ ما كان يدور بينه وبين عرّام لم يكن يشاركهما فيه أحد، فيستشعر أنّ كلاً منهما يحمل للآخر ظنوناً سيّئة، مدركاً أنّ صراعاً غير معلن يعتمل في الباطن، ما أوقعه في حيرة، فهو يحبّ صاحبه، ويقدّر شنهاص ويشعر بأنّه يحمل له ديناً كبيراً. يوازن بين الاثنين فيجد أنّ الكفتين تتساويان، يضطرّ حينها للتخفيف من مجالستهما، ليسأله شنهاص بتهكّم: هل منعك صاحبك من المجيء إليّ؟! وبدوره عرّام حين يلتقيه يلوّح له بأنّ تأثير الأخ الكبير يبدو واضحاً عليه وهو

t.me/qurssan

يتجنّب ملاقاته، مذكّراً إيّاه بأنّ شنهاص بثّ الفرقة بين سكّان الغابة، ليكون هو محور الجميع، واصفاً إيّاه بالأُلعُبان الماكر.

تطوّرت حربهما الخفيّة ليتحدّث شنهاص متّهماً عرّام بشق الصف والتفوّه بكلام السفهاء، محمّلاً قارون تهديداً مبطّناً لصاحبه إن لم يكفّ وإلّا... من غير أن ينطق بالكلمة التالية. عندها أصبح جلّ ما يتمنّاه قارون الهروب بعيداً. فكّر أن يغادر الغابة متسللاً إلى الوادي لزيارة والدته، وحين استأذن، حذره شنهاص متّهماً عرّام بأنّه وراء تلك الفكرة، وهو لا يعرف أن قارون كان يهرب منهما هما الاثنين:

– لا تنقَد وراء ضوضاء صاحبك.

– وما علاقة صاحبي؟

– هو يثرثر للجميع بسمومه. أنت طيّب تخفي عليّ ما تسمعه منه، لكن لا يهمّ. ما يهمّني هو خداعه لك، فها هو ينصحك بالهرب.

– أقسم بالله هو الشوق لأمّي.

– ونعم بالله. لكنّي خائف عليك، أنت تعلم أن بيوت من فرّوا مراقبة، وجبّار ينتظر ظهورك. أخاف أن تقع بين يديه.

– لكنّ الشوق يكاد يفطرني، ثمّ إنّي سأكون حذراً، ولن أظهر على أحد.

أطرق شنهاص لحيظات، ثمّ رفع وجهه المتغضّن يهشّ ذباباً حطّ على شعره الكثيف، وقال مبتسماً:

– لا بأس من ذهابك، على ألّا يعلم بذلك أحد، حتى صاحبك، وأنبّهك إلى أنّ رسائل أخرى تنتظرك لتحملها، ننتظر عودتك.

قبّل رأسه ممتناً:

– أعدك لن أتأخر.

– لا أريد أن أفقدك.

t.me/qurssan

وقف وقد بدا على ملامحه التأثر، كان يبدو لقارون كرجل كسير بهلاهيل ملابسه وشعره المبعثر وكفّه التي لوّح بقُطعها، وهو نادراً ما يرفعها. ابتعد قارون متأثراً، مضمراً أن لا يخذله. لجأ إلى عرّام، فهو خير من يعرف مسالك الوصول إلى الوادي. أشار عليه عرّام بخيارين، الأول موازٍ لمجرى الشلّال الذي يشق الغابة حتى مصبّه في الوادي، والثاني عبر سفوح الجبال الشرقية. تلك الطريق، وإن كانت الأطول فإنّها أكثر المسالك أماناً من الحيوانات وأقلّها تشعّباً. ودّعه في أول الليل وقد اختار محاذاة مجرى الشلّال، ليسير متحفزاً يرهف السمع للهسيس ولأصوات خفيّة، بينما عيناه تلاحقان ما يلمع خلف الأغصان والجذوع، ملوّحاً بفأسه باستمرار. ظنّ أنّه لن يصل إلى أطراف الوادي لشدّة خوفه، لكنّ سنا فضّياً أبهج ناظريه بعد حين، عرف أنّ ذلك الفضاء هو فضاء الوادي، خاض عدّة مزارع مشبعة بمياه أمطار الأيّام الماضية، حاذى برج حراسة ليسمع حديث حرّاس مزرعة، بينما ترتفع أصواتهم وتخفت. فضّل السلامة محاذياً جدار المزرعة شرقاً حتى وصل إلى المصدّات الصخرية لمجرى السيل، ثمّ المجرى الضحل، ليوازي الطولقة الكبيرة. راوده شعور بأنّ أحدهم في أثره، فتخفّى خلف جذعها الكبير يرصد الأنحاء، رأى أشباحاً تقترب، تسلّق الطولقة بخفة يراقبهم، رويداً رويداً حجبت السحب وجه قمرٍ خجول وعمّ ظلام دامس، فضّل البقاء متخفياً لبعض الوقت، تذكّر أنّه اقترب من قرية المنحدر، داهمته رعشة باردة وهو يستعيد رائحة أمّه، ترك لجسمه أن ينتفض لبعض الوقت، اغرورقت عيناه وكاد صوته يخرج نائحاً لاحتقان عذاباته. الحبس علّمه كبت المشاعر، وكتم الصخب بداخله، فقط سمح لدفقة من دموع الشوق بأن تنفّس عن قلبه. بعدها شعر بتماسكه، وكأنّه كائن آخر يهبط.

t.me/qurssan

مع دخول فصل الشتاء، بدأ الجفاف بين مزارع البنّ والقات، وكان الذعر من أن يستغلّ العصاة ذلك بإشعال النار بين أشجارها يؤرّق حصن مرداس. بعد مشاورات عديدة، رأى الشيخ سرعة تطبيق مقترح المستشار باستخدام المزارعين، وأمر جبّار بدعوة عقّال القرى وتوجيههم بتسخير رعيّة كلٍّ منهم للعناية بالمزارع لثلاثة أيّام من كلّ أسبوع، بينما تُترك بقيّة الأيّام للمزارع المؤجّرة لهم. في بداية الأمر هبّ الجميع لريّ الأشجار وتقليم ما تلف منها، ليبتسم الشيخ بسعادة وهو يرى أبناء الرعيّة وقد توزعوا بين المزارع ومقاشر البنّ يعملون بهمّة دون كسل. لكنّ تلك الابتسامة لم تدم، وقد أخذ بعضهم يتخلّف يوماً بعد يوم، ليتكاثر الرافضون، إلى أن عمّ الرفض الجميع بمبرّر أنّهم لا يجدون الأيّام الكافية للعناية بما بين أيديهم من مزارع. هدّد جبّار من يرفض بطرده من الوادي بعد تأجير ما تحت يديه لغيره، إلّا أنّ الجميع ظلوا على موقفهم. وظلّ الحصن في حيرة ممّا يدور.

لكنّ ما أشعل القلق، وكاد يدفع جبّار للجنون، هو أنّه جاءه من يهمس بأنّ للعصاة من يلتقيهم ليلاً في بيوتهم، وأنّ هناك أنصاراً لهم يمدّونهم بالعون، ليرسل رجاله فوراً بملاحقة من تدور حوله الشبهات. وقف الشيخ ممّا يقوم ابنه عبد الجبّار به موقف المنتظر للنتائج، بينما كان مستشاره في قرارة نفسه يؤيّد جبّار، إلّا أنّه لا يريد إظهار نفسه أمام الشيخ بمظهر من ينفخ في النار.

ذلك النشاط الذي يقوم به جبّار ورجاله ملأ الحبس من جديد بمن يراهم عيوناً أو متعاونين مع العصاة، ونشر التذمّر بين رعيّة الوادي.

t.me/qurssan

هبط يمسح دموع عينيه، تتلمّس قدماه فجوات ساق الطولقة، وما إن مسّ الأرض حتى خطا وسط ظلمة تحمل نطف مطر قادم. كان يميّز اتجاه منحدرات قريته، وكلما اقترب هاج الشوق في صدره وقلت مقاومته، محاولاً كبت دموعه بينما يقترب أكثر من رائحة أمّه. صعد بمحاذاة مزرعة يعرفها، هزّت بدنه رهبة حين سمع نباح جرو بعيد. وقف لبعض الوقت يخشى من أنّه ابتعد، ثمّ واصل خطوه صعوداً نحو بيتهم. صعد على مهل حتى أصبح وسط أشجار قدّر أنّها مزرعتهم. كان يخطو بحذر شديد وضربات قلبه تتزايد ونباح الجرو يقترب، يصيخ السمع قِلقاً من رقيب أو مترصّد في الظلمة، يعاود تقدّمه مجاوراً ضجيج قلبه. عبر مزرعتهم مقترباً من بيتهم، اقترب نباح الجرو وزاد ذعره. وقف متسائلاً: لم يكن لدينا جرو يوماً. التفّ باتّجاه ركن البيت مبتعداً عن مكان الجرو، ما إن تحرّك حتى عاود ذعر الجرو. سكن محتاراً، بعد برهة كرّر تقدّمه بخطوات بطيئة حتى قارب إحدى النوافذ، لكنّ النباح ظلّ له بالمرصاد، وقف وجلاً بعدما سمع صوتاً هادئاً: «هيييييه، هييه» فقدّر أن يكون ذلك صوت أمّه. خفق قلبه فرحاً وهي تكرّر: «هيييه، هييه» ليخفت النباح. أحسّ أنّ قلبها استشعر وجوده. همّ برفع صوته منادياً، لكنّه تذكّر كلمات شنهاص «أنت تعرف أنّ بيوت من فرّوا مراقبة، وبيتكم خاصّة»، فشعر برجفة الخوف تخلخل مفاصله. قذف بحصوة صغيرة باتجاه النافذة، ثمّ زحف بأطرافه الأربعة فوق وحل الأرض، وحين اقترب أكثر من النافذة رفع ساق فأسه: دق، دق، دقق. دق. ثمّ كرّرها. عاد صوتها واضحاً وهي تحرّك درفة النافذة: يا ألطاف الله، سبحانك ربّي ما أعظم شأنك. غامر هامساً: أمّاه، أنا قارون! هدأ صوت دعائها وتحوّل إلى تمتمات غير واضحة، بينما ظلّ يكرّر همسه خائفاً: أمّاه، أنا هنا. صمت كلّ شيء إلا من هرهرة الجرو. مرّت لحظات طويلة وهو ينتظر

t.me/qurssan

عند النافذة، ثمّ خُيّل له أنّه يرى شبحاً قادماً بمحاذاة البيت، فهبط أرضاً بخوف حتى لا يراه. اقترب ذلك الشبح منه، وارتفع صوت دعاء. ميّز نبرة صوتها، وعاود الجرو نباحه من خلفها. لاحظ شبحها يقترب أكثر، لتتهاوى فوقه فجأة محتضنةً إيّاه. طوّقته باكية بصوت مكتوم، غمره دفء كثيف، وهي تهنهن بأدعيتها الممزوجة بالنحيب، تقبّل وجهه ورقبته. لم يتماسك تاركاً لصوته الباكي مدّه. خافت أن يُسْمع بكاؤه فنهضت مرتبكة تساعده على الوقوف وهي تـردّد: اخفض صوتك، اخفضه! وسارت به إلى دفء البيت. لا يعرف كم مضى من الوقت وهو بين أحضانها وسط ظلمة الحجرة، حاول تمييز رائحتها لكنّ أنفه خذله، خاف من فقدان حواسّه. رفعت رأسها عنه وقد استعادت تماسكها، لتهمس:

– لا أصدق أنّ قارون عاد إلى أمّه.

– قتلني الشوق يا أمّاه فجئت لأطمئنّ عليك.

وشوشته:

– دعني أتلمّس وجهك.

تركته برهة ثمّ عادت تحمل ذبالة مسرجة ينعكس ضوؤها على كل شيء. قرّبتها من وجهه، تتفرّسه مبتسمة وقد غرقت عيناها بدموعٍ غزيرة. رأت شلوخاً على وجهه، عيناه لا تزالان ضيّقتين، شعرٌ يطوق أطراف وجهه. تنهّدت وهي تقبّله: لم يكن وجودك وهماً إذاً، هذا وجهك بين يديّ، لكن ما هذه الشلوخ؟ قالتها وهي تمرّر أصابعها على وجهه، وقالت: هذا أنت وقد أمسيت رجلاً.

ضمّت كفّه بين يديها. شعرت ببرودتهما. هبّت صارخة وهي تحدّث نفسها بهمس بـاكٍ: نسيت أنّك آتٍ من سفر طويل، وأنّك جائع. صمتت لحظات، ثمّ رفعت صوتها تحدّثه: هيّا اخلع ملابسك المبللة، وسأعدّ لك ماءً دافئاً لتغتسل، تبدو بحالة يُرثى لها. ثمّ عادت

t.me/qurssan

لتخفض صوتها وقالت كما لو أنّها تحدّث شخصاً ثالثاً معهما: أظنّه لم يأكل منذ أيام، كيف لم أنتبه لذلك؟

أدخلته يغتسل، وعادت تنشغل بإحكام سدّ شروخ النافذة حتى لا يتلصّص على وجوده أحد. تدور وهي تتحدّث بصوت خفيض: لن أتركه يضيع منّي بعد اليوم، عليَّ أن أفكّر كيف أخفيه، يكفيني ضياع والده.

يسمع صوتها متعجّباً. يتساءل: لم تكن هكذا قبل أن أغادرها! واصلت همسها وقد أكمل اغتساله، وأفردت له ثوباً وطاقيّة وجبّة جديدة: ظننت أنّي سأعيش وحيدة، لكنّه اليوم يعود، سأخفيه عن الأنظار.

قادته إلى فراشه. سألها عمّن تتحدّث إليه، فردّت مبتسمة: إلى نفسي. ألا تحدّث نفسك أنت حين تتكالب عليك الوحدة؟ لا أجد من أتحدّث إليه. صمتت وهي تنظر في عينيه مبتسمة وأردفت: أتظنّ أنّ أمّك جُنَّت؟ لا تخف، لا أزال بكامل قواي العقليّة!

ابتسم محتاراً، وقد ابتعدت، ليعاود صوتها بخفوت: يظنّني جُننت، سأكون مجنونة إن تركته يذهب بعد الآن.

عادت تحمل وعاء طعام ساخن. سألها عن تلك الملابس الجديدة، فأجابت بمرح: أوه، نسيت أن أخبرك، لقد عاد خالك من السودان، جاء من قريته البعيدة لزيارتنا، يسلم عليك وترك لك هذه الملابس، كما أعطاني القليل من القروش، وأيضاً ثوباً جديداً، سألبسه وأريك.

تحدّثه وقد جلست على حافة فراشه، أحاطته بذراعها، وأخذت تلقمه بيدها الأخرى لقيمات دافئة كما لو كان صغيراً، وتتأمّل وجهه بين لحظة وأخرى، وتقبّله دامعة.

– اشتريت بقروش خالك بقرة، بدل تلك التي أخذوها!

t.me/qurssan

– لماذا أخذوها؟

– فداك يا ولدي!

– كيف فداي؟

– نصحتني صاحبتي بعد أن لاحظت سوء حالتي لغيابك أن أصعد إلى الحصن وأسلّمهم البقرة مقابل ما يدّعون من شرك علينا لأستعيدك. لكنّي ما إن كنت أصل بها حتى ينهروني، فأعود بها إلى بيتي خائبة. تردّدت على الحصن بها عسى قلوبهم تلين، وفي النهاية خرج ولد الشيخ غاضباً بعد أن شكوا إليه تردّدي، وصرخ في وجهي: البقرة حقنا هاتيها، واذهبي وإلّا! عدت ذلك اليوم أبكي وحيدة، لتواسيني جارتي بلبن وسمن بقرتها، حتى جاء خالك ورأى حالتي.

– هذا ظلم.

– لا ظلم ولا حاجة، قالوا إنّها حقهم.

– لكنّها بقرتنا.

– لا يا ولدي، إحنا من جيز الناس، فبقر الناس إن ولدت بقرة في أيّ قرية يرفع العاقل للشيخ يبشره بولادتها، وإن ولدت شاة كذلك، حتى الدجاجات يحصونها ويحصون بيضها وشقرانها، فلهم الشرك من كلّ شيءٍ.

– وما الذي يبقينا في هذا الوادي؟

– يا ولدي احنا من جيز الناس. لا عليك ممّا حصل، ودعني أخبرك عمّا حدث بعد فراركم، ابن الشيخ يا ولدي وصل إلى باب بيتنا وسط مطر عاصف، في البداية فزعت من قرع الباب، كادوا يكسرونه، وحين فتحته دخل يهدّدني بأن أخلي البيت وأسلّم المزرعة لرعوي ثانٍ، ثمّ قال سأمنحك فرصة لتسلّمي ولدك، تلك اللحظة لم أفهم معنى كلامه، تعجّبت كيف يطالبني بك وأنت في حبسهم، فقلت لهم: قارون عندكم! دفعني حرّاسه ودخلوا عنوة، فتّشوا كلّ زوايا البيت، ثمّ

t.me/qurssan

انصرفوا. كنت متعجّبة ممّا يدور، حتى علمت في ما بعد أنّك فررت مع من فرّوا من الحبس.

– وتريدينني أن أبقى هنا؟

– يا ولدي أخاف أن أموت لهفة عليك، ما زلت صغيراً، لا يغرّك شعر وجهك، أنا أمّك وأدرى بك.

– من يدخل حبس الحصن يشب يا أمّاه، أتمنّى أن تهربي معي، ورزقنا على الله.

– أين أهرب؟

– إلى حيث لا شيخ ولا فاطمي.

– لم أفكّر أنّ قلوبهم حجارة يوم أرسلتك بنفسي إليهم، بعدما غبت عن عينيّ جلست أنتظر عودتك على سطح البيت، لم أنم ليلتها، ولم أقرب الزاد لأيّام، هكذا انسدّت نفسي ولم يعد لي رغبة في الحياة.

– يا أمّي، حين أرسلتني عرفت الحياة على حقيقتها، لا كما كنتِ تصوّرينها لي بطيبة قلبك.

– وماذا عرفت؟

– عرفت أنّ والدي قاتل، وأنّه من أبناء عمومة مرداس. لكنّ ما ظلّ يحيّرني هو عدم معرفتي سبب قتله ابن الشيخ؟

– والدك لم يقتل بغياً.

– دوماً كنتِ تقولين لي والدك سيعود قريباً.

– وماذا كنت تريد أن أقول لك؟ وأنا كنت في كلّ لحظة أتوقع تسلّله. فمنذ فرّ لا أعرف عنه شيئاً، فقط تصلني بعض تقوّلات الناس عنه، فأحد الحجّاج قال لي إنّه رآه في مكّة، وآخر يقسم إنّه جالسه في أحد مقاهي عدن، والبعض يؤكّدون أنّه عبر البحر إلى الحبشة، وهكذا تأتي الأيّام وتذهب ولا أعرف هل ما زال حيّاً، أم هو بين اللحود! لكنّ

t.me/qurssan

الأمل ظلّ يراودني ولا يزال بعودته. وما كنت أخفيه عنك خوفاً عليك، فماذا يستفيد طفل حين يعلم بأنّ والده قاتل، وأنّهم أخذوا كلّ ما يرثه والده وطردوا زوجته ورضيعها، ولولا توسّط عاقل قرية المنحدر ما كنّا سكنّا في هذا البيت، حتى المزرعة الصغيرة ملكهم، ولا نملك من الدنيا شيئاً.

صمتت لتمسح دمعة يتيمة وصلت حتى طرف فمها، بينما قارون يحاول التماسك وتخيّل ملامح ذلك القاتل الذي هو أبوه، دون أن يستطيع، ليسألها:

– هل أنا أشبه أبي؟

– لن تصدّقني إن قلت لك إنّه يشبهني!

انفجر قارون ضاحكاً رغم حزن صوت أمّه ودموعها، ضحك حتى دمعت عيناه:

– لماذا تضحك، كثرة الضحك تميت القلب يا ولدي، وتجلب الشؤم.

– لأنّي حاولت أن أتصوّر وجه أبي ولم أفكّر أنّه يشبهك.

– هكذا يا ولدي كان، لكنّك تشبه خالك!

– خالي!

– نعم.

– لكن لم تجيبي عليَّ، لماذا قتل عنصيف؟

– بسبب مسألة عرضيّة لا ناقة له فيها ولا جمل.

– كيف؟

– ذات وقت وقفت امرأة باكية أمام بوّابة الحصن، تنتظر خروج الشيخ لتشكو ابنه عنصيف الذي لعب على ابنتها.

– كيف لعب عليها؟

t.me/qurssan

– إنّ الناس كثيراً ما تحدّثوا عن شجاعته، لكنّهم أيضاً كانوا يذمّون خسّةً ابتُليَ بها، وقد تعوّد منذ صباه التلصّص على النساء ليلاً في مخادعهنّ، شبّ بتلك النقيصة وقد تحوّلت في شبابه إلى ملاحقة بعضهنّ وإغواء من ينجح في إغوائهنّ، وأمسى يتحدّث متفاخراً عن فلانة وكيف طارحها الغرام، وفلانة كيف خدعها؟ ومع الأيّام تحوّلت تلك الملاحقات إلى إرغام من تمانع على ما يريد، تحدّث الرعيّة عن تلك المعابة. وكان السبب في قتل بعضهنّ على أيدي آبائهنّ وإخوانهنّ مسحاً للعار. إلى أن جاءت إحداهنّ ذات صباح، وكانت يتيمة الأبوين ووقفت شاكية باكية أمام الحصن، صادف خروج والدك، ولم يتمالك حين سمعها فعاد خجلاً يبحث عن عنصيف، ولصلات القربى التي تربطهما بادره بالنصيحة، إلّا أنّ عنصيف عدَّ ذلك تطاولاً أمام الحرّاس، ليقذفه بكلمات جارحة، اشتبكا بعدها في شجار، تدخّل الحراس ليحدّوا من حركة والدك، وسحبوا جنبيته من عسيبها، ليتنمّر عنصيف ويصفعه على وجهه مهتاجاً: سأنتظر حتى تكون لك صبيّة وعندها سأرى من يمنعني عنها.

كلماته النابية تلك وجّهها لوالدك الذي حاول التخلّص من قبضة الحرّاس، وعنصيف يواصل تهكّمه: وإن لم تُرزق ببنت فسأستضيف زوجتك ذات مساء لأرى بعدها نخوتك.

لحظتها استطاع الإفلات من قبضة الحرّاس، ليقفز ممتشقاً جنبية عنصيف ويغرسها في نحره، سقط بعدها مضرّجاً بدمائه. شلّت المفاجأة الجميع، وفرّ والدك نحو الأودية مستغلاً انشغال الحرّاس بعنصيف، أو هم تناسوا بنادقهم، ولم يمرّ وقت حتى لفظ أنفاسه بين أيديهم. سريعاً ما انتشر الخبر في الأنحاء. وتبرّع البعض بمطاردة والدك، إلّا أنّه اختفى، لتأتي أخبار تفيد بأنّه وصل إلى شيخ غرب الوادي محتمياً.

– لماذا لم تحدّثيني بذلك من قبل.

t.me/qurssan

– أظنّني كنت أحتفظ بها حتى تشبّ.

– لن تعرفي مقدار حرجي وأنا أسمع الشيخ شنهاص يرحّب بي كمن يعرفني قبل دخولي الحبس.

– يرحّب بك؟

– نعم رحّب بي، ولليالٍ حكى لجوء أبي إليه. كنت أسمعه وأنا أداري خجلي لجهلي، تمنّيت لحظتها لو أنّ الأرض ابتلعتني. وما زاد من حرجي أنّني عرفت أنّ نكبته كان سببها لجوء أبي إليه.

– يا ولدي، أبوك لم يكن إلّا عذراً ليحقق مرداس أطماعه، فهو منذ سنوات يخطّط للقضاء على شنهاص، يتربّص به دوماً، ولم يكن شنهاص آخر أو أول ضحايا تسلطه، فمن تراهم في بيوت قرية منحدر الحصن جميعهم أبناء عمومته، وقد احتال عليهم مرداس على مدى سنوات طويلة، مستغلاً أبسط الأسباب ليجرّدهم واحداً بعد آخر من إرثهم، ومن كان يقاوم يختفي ولا يُعرف مصيره، ويقال إنّه يضعهم في حبسٍ سرّي بداخل الحصن، واليوم تراهم أجراء.

– كنت أعمى، فحين كنت أسمع حكاياتهم، كنت أشعر بأنّي غريب عن الحياة، وأتذكّر ما كنت تحدّثينني به، وأجدك تتعمّدين النقص، كنت أتساءل لماذا كانت أمّي تخفي عليَّ ما يعيشه الناس، وإن حكت فحكاياتها مشوّهة؟ لقد جعلتني في موقف المغفّل!

– ها قد عرفت، وماذا جنيت غير الهمّ والخوف؟ المعرفة مسؤولية يا بُنيّ، من اليوم سينخر الوجع قلبي عليك. ألا ترى جبّار وحقده يلاحقك، ألا يجعلني كلّ ذلك أخاف وأخشى عليك منهم، فأنت وحيدي وأنا بدونك بلا سند.

حلّق صمت بارد، لتداهمه ذكريات صباح ماضٍ، يرى رجال جبّار يسومونه بسياطهم، ذكريات نُقشت في قلبه، لتتوارد الرؤى

t.me/qurssan

والآلام بطعم الدم، ويرى صَبيّة تندفع باتجاهه، يعقبها ظهور امرأة، تأمرهم بالكفّ عن تعذيبه، لاحظت أمّه شروده:

– ما يشغلك يا ولدي؟

بعد صمت يجيبها:

– تأخذني ذاكرتي إلى يوم بعيد كلما تذكرت جبّار!

– أيّ يوم؟

– يوم جلدوني، لكنّ ما يحيّرني هو وقوف امرأة في وجوههم.

– غريب أمرك، مكثت ما يقارب السنتين في الحصن ولا تعلم عن تلك المرأة شيئاً.

– لولاها لكنت في عداد الموتى.

– تلك المرأة هي زوجة الشيخ عيشة. وقد طلّقها مرداس مساء ذلك اليوم.

– طلّقها؟

– لأنّها وقفت في وجه جبار.

– ولماذا خاطرت؟

– هي فتاة طيّبة، وبيتهم في الطرف الآخر من القرية، ووالدها من أبناء عمومة والدك، وهو من ضحايا حيل الشيخ الذي سلبه ميراثه، ليعيش مثل البقيّة أجيراً.

غشيتها نوبة بكاء، تندب حظها وحظ النساء في هذه الدنيا، تبكي نفسها وحظ تلك الفتاة عيشة. احتواها قارون بين ذراعيه، يقبّل رأسها ويهدهدها كطفلة.

انتشر جفاف أشجار مزارع البنّ والقات، حتى بدت بعض الأشجار حطباً، لتلوح في الأفق كارثة تهدّد حصن مرداس، وقد تراكم خراج الوادي لسنوات، وإمام صنعاء يرسل في طلبها، وهذا ما جعله

t.me/qurssan

يعتبر تأخّر الخراج نوعاً من التمرّد عليه، بينما موت أشجار المزارع يحتاج إلى سنوات لغرس شتلات بديلة، والعناية بها تحتاج إلى سنوات أخرى حتى تؤتي ثمارها.

أدرك المستشار زيد أنّ نسيبه يمرّ في ظروف سيّئة، وأنّ الواجب يحتّم عليه أن يكون في موقع الناصح الأمين، لدفع جبّار لملاحقة الفارّين واستعادتهم للعمل في المزارع، مدركاً رعونة جبّار، وتخبّط مرداس الذي لا يميّز بين الصواب والخطأ. ولذلك زاره مبدياً حرصه على مصالحه، مشيراً عليه بشراء بنادق جديدة، ردّ عليه الشيخ حانقاً:

– الأشجار تموت وأنت تتحدّث عن شراء بنادق!

– نعم بنادق الـ«شميزر» يقال إنّها تطلق عدّة طلقات متتالية.

– وماذا نصنع بها؟

– سنجهّز بها الرعيّة لملاحقة العصاة والفارّين، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه، أو القضاء عليهم، لن يقفوا أمام مطر البنادق الجديدة، ولن يجدوا غير الاستسلام والعودة صاغرين.

– شراء البنادق الجديدة مقدور عليه. لكن ألا توجد طريقة أخرى لاستعادتهم.

– تلك الغابة أصبحت ملاذاً لكلّ عاصٍ، وأنت ترى جبّار وقد ملأ الحبس، وتذمّر بقيّة الرعية يتصاعد، فنحن بمقاتلة من في الغابة سنحقق هدفين: نستعيد الفارّين والعصاة من جهة، ونزرع الخوف بين من يفكّرون في اللحاق بهم من جهة أخرى.

أعجب الشيخ بالفكرة، ولذلك ظلّ يهزّ رأسه يقلبها، ثمّ رفع وجهه المعشوشب وقال بحزم:

– فكرة صائبة، على بركة الله نشتري البنادق.

t.me/qurssan

سافر زيد يرافقه جبّار لشراء البنادق الجديدة، وما هي إلّا أيّام حتى عادا بأربعين صندوقاً محمّلة على ظهور قافلة من الجمال، ليطلق الشيخ من في الحبس، ويعلن النفير العام لكافة الرعيّة بمحاربة العصاة والفارّين. تقاطر العشرات من مختلف القرى استجابة للنفير، وؤزّعوا إلى مجموعات لتدريبهم على استخدام البندق الجديد، ولم تنقضِ أيّام حتى كان الجميع على أهبة الاستعداد لمهاجمة الغابة.

انشغلت أمّ قارون تلك الليلة باضطراب مفاجئ، ما إن تخرج من غرفة قارون حتى تعود تتأمّل وجهه النائم، تحتدم بصوت خفيض: ها هو في بيتي، لن أدعه يغادر وأعيش بعدها وحيدة.

تصمت قليلاً يقودها همّ قلبها، ثمّ تهامس كائناً لا يُرى: لماذا كلّ هذا العذاب؟ ماذا صنعت في دنياي حتى تشقيني؟ استمرّت تجادل نفسها، حتى استفاق قارون على صوتها، يتابع همسها الشبيه بالبكاء، واحتدام كلماتها، وهي تحاول إقناع شخص ما. كان بحاجة إلى سماع جدلها ليتواطأ معها، بينما يفكّر في وعده لشنهاص. ظلّ يتابع صوتها حتى فاجأه تسلّل ضوء صامت من شقوق النافذة، نهض فرحاً، حرّك إحدى درفتيها بحذر يسترق النظر إلى الخارج، تدفّقت الشمس، استنشق الضوء مغمضاً عينيه الضيّقتين، ثمّ فتحهما على اتساعهما، يتنفس رائحة الضوء، بعدها غمرته روائح الأشياء من حوله، فرح لاستعادته حاسّته. قدمت فزعة حين رأت النافذة مشرعة:

– أتريدهم أن يروك؟

– أريد رؤية الضوء.

احتوت وجهه بين كفيها، تتأمّله تحت ضوء الشمس، بدا لها شخصاً آخر، تزمّ عينيها لتستعيد ملامحه القديمة، تضحك لعينيه

t.me/qurssan

اللتين لم تتّسعا، شفته السفلى المدلوقة دوماً، شعر وجهه الناعم، تلك الشلوخ التي طرأت عليه، تتلمّسها بأصابعها:

– ممَّ هذه؟

– لا شيء!

– لم يكن بوجهك شلوخ.

يبتسم:

– لمَ تنظرين إليّ هكذا؟

– أريد أن أملأ ناظري تحت الضوء.

– ها أنتِ وقد مللتِ منّي، فهل أغادرك الليلة؟

– تغادرني؟ أجننت حتى أتركك ترحل عنّي؟

صمت هياجها بعد برهة، وقد علا وجهه حزنٌ غائم، شعرت بأنّه يتألم، فكّرت في تغيير مسار حديثها:

– لم تحدّثني عن حبسك بعد.

أدرك ما تفكّر فيه ففضّل أن يطاوعها إشفاقاً، وقد وجد لديه رغبة في استعادة الحبس:

– الحبس يا أمّاه أسوأ من زرائب البهائم، معتم، لا يميّز ملامحه من يدخله إلّا بعد حين، كلّ شيء يسكنه القمل والبق، نتراهن على من يقتل أكبر عدد، فكانت الحكايات وقتل القمل سلوتنا. لا نعرف الوقت إلّا حين يُفتح الباب ليخرجونا مقيّدين، حينها نعرف أنّه الفجر، بعدها نرى الشمس وقد هبطوا بنا إلى المزارع، تحيط بنا فوهات بنادقهم، نصادف وجوه الرعيّة الذين يذهبون إلى الوادي، نراهم غير ما ترونهم أنتم، وحين يعودون بنا مع مغيب الشمس نكون بأجساد هدَّها الشقاء، يعودون بنا إلى الحبس منهكين، نمضغ حكايات مكرّرة، تدور الكلمات من ليلة إلى أخرى، لنشعر بأنّنا ما زلنا أحياءً.

t.me/qurssan

يا أمّاه، الحبس ليس جدراناً وباباً يُغلق، الحبس أنين حكايات، كلّ حبيس حكاية تسير على قدمين. كما هي حكاية أبي، وحكاية شنهاص وحكايتي، لكلّ سجين حكاية دامعة. ليلة بعد أخرى وجراح أرواحنا تتسع، لنكتشف أنّ الحبس لا يقتصر على ما كنّا فيه، بل إنّ الجميع في حبس حدوده جبال الوادي.

أتذكّر أنّني يوماً قبل أن أُحبس لمحت صفّ «الأخدام» يُقادون إلى المزارع، وقد رُبط بعضهم إلى بعض في صفوف طويلة، وكنت أظنّهم ليسوا بشراً، وبعدما حُبست أصبحت أقرأ ما في عيون من يشاهدوننا مَقودين، وأرى نظرات الإشفاق والخوف، وقد سيّرتنا السياط في ذلة وخنوع.

– يا خوفي أن تقاد من جديد.

– أموت ولا أعود.

– سأخبِّئك.

– كلنا في حبس كبير.

– لن أتركك تعود للعذاب والموت.

– بل أنا من أريدك أن تأتي معي.

– وأترك بيتي، ومزرعتي؟

– مزرعة من، وبيت من؟ ألم تقولي إنّ كلّ شيء حق الشيخ، ويطردك متى شاء؟

– كلّ الناس يعيشون هكذا، ويموتون هنا، وأنا من جيز الناس.

– كُتب علينا الشقاء يا أمّاه.

– لم أذق الشقاء مثلما ذقته لحظة سماعي خبر انتشار جثث من فرّوا بعد أن جرفهم السيل، انخلع قلبي وخانتني مفاصلي لأجثو أرضاً فاقدة للنطق. ولولا عناية صاحبتي التي كانت إلى جواري لفارقت الحياة.

t.me/qurssan

لم يأت فجر اليوم التالي حتى كنت بين من خرجوا للبحث عن أقارب لهم، ولأيّام الكلّ ينتحبون وهم يقلبون ما يصادفون من جثث، تعرّف البعض إلى قلة منها لتُدفن، وأكثرها لم تعد لها ملامح بعدما تفسّخت، أو نهشتها الكلاب والنسور. كنت أخشى أن تكون أنت بين من تفسّخوا.

ولم أعد أصدّق من يؤكّدون أنّ جثثاً أخرى قد جُرفت خارج الوادي. هبط حزن على قلبي ومات الأمل، واحتسبت فقدي لك عند الله. لكنّ الأمل ابتسم من جديد، وقد عادت صاحبتي تحمل لي أخباراً عن أنّ عدداً كبيراً ممّن فرّوا قد تسللوا داخل الغابة، وأنّ الجثث التي شوهدت ما هي إلّا لقلة منهم. في ذلك اليوم صلّيت لله كثيراً وأنا أبكي متضرّعة أن تكون أنت في الغابة، ظللت أتتبّع الأخبار، وقلبي يحدّثني بأنّك حيّ، وأنّك ستأتي لزيارتي، جلبت جرواً لينبّهني إذا عدت، أسمعه ينبح بين ليلة وأخرى، وأظنّ أنّ خطوك أخافه، لأكتشف تارة أنّ أحد الثعالب قد اقترب من قنّ الدجاج، وأخرى مجموعة كلاب تلاحق عِساق. وكلّ ليل أدعو الله أن يبشّرني، إلى لحظة أن بشّرني الجرو بنباحه، في البدء ظننت أنّ شيئاً ما أخافه، لكنّ ضراوته كانت مختلفة، فكثيراً ما ينبح، وعادة ما يكون نباحه متقطعاً، لكنّهُ في الليلة الفائتة كان متواصلاً وصارخاً. أسمعته صوتي لأطمئنّه أنّه ليس وحيداً، لكنّه واصل نباحه، فجأة خفق قلبي متسائلة: قد يكون القادم ابني! كرّرت صوتي وأنا أصيخ السمع لنبض قلبي، ليواصل الجرو نباحه الحادّ، وحين سمعت صوتك كدت أطير، شعرت بطعم السعادة وقد أيقنت أنّه صوتك، بدت لي المسافة إليك بعيييييدة، تمنّيت لو أن حديد النافذة يلين لأخرج منها... لم أشعل السراج.

t.me/qurssan

بتر حديثها طرق على الباب. تبادلت وقارون نظرات ذعر وترقب، قفز من فراشه وقد اتّسعت عيناه الضيّقتان خوفاً، ليتردّد صدى صوت شنهاص «أخاف أن أفقدك». همست أمّه تهدّئ من روعه: لا تخف! واضعة سبّابتها على شفتيها، خرجت زائغة الحسّ وأغلقت عليه الباب، ظلّ متحفزاً وقد حمل فأسه، عبرت الحجرة بقلب راجف وهي تهمس «ربّي لطفك بنا». سألت بصوت خافت:

– من الطارق؟

تماهت عيشة مع من حولها، وظلّت تلك الشابّة بقوامها الناحل، ووجهها الطفولي الذي لا يشي بسنّها، يظنّ من لا يعرف أنّ جمال أخ صغير لها. تعامل الجميع حتى خادماتها بعفوية. وبعد طلاقها منع مرداس خروجها من الحصن لأيّ سبب كان، أو دخول أقاربها لزيارتها، وقد أسكنها داراً تخصّها عُرفت بدار عيشة. فلم تتذمّر يوماً أو تشكُ. وبدا كأنّ الأمر لا يعنيها، جاعلة من ابنها جمال محور حياتها، منذ أيّامه الأولى، حيث أحاطه الشيخ باهتمامه، وكثيراً ما حمله بين يديه مزهوّاً باختياره لاسمه: جمال عبد الناصر ابن شيخ ومزارع، قاد مصر ويقود العرب، وابني هذا سيكون مثله.

وسنة بعد أخرى كانت عيشة تلحظ أنّ ابنها لا يحبّ مرافقة والـده، وحين شبّ كثيراً ما تأفّف من أسلوب حياته، شبّ ميّالاً للسكينة، لا يُرى إلّا نادراً خارج بوابة الحصن، ولا تتذكّر والدته أنّه تحمّس يوماً لمرافقة والده في تحرّكاته أو يحضر مواقفه، وإن حصل مداراة لرغبة والده أو أخيه جبّار فسريعاً ما يعود شاكياً.

بعد طلاقها انقطع الشيخ عن زيارتها، ولم يعد يسأل حتى عن ابنه، ليتناسى أنّ له ابناً، أو كأنّه كان يعاقبه هو الآخر لأنّه ابنها. ما زاد اهتمامها به، وزاد التصاق جمال بأمّه، تتابع نموّه، ومع مرور الوقت

t.me/qurssan

لاحظته يتجنّب في تحرّكاته داخل الحصن دار والده، بل حين تحدّثه عنه لا يبدي أيّ حماسة نحوه، فتحاول أن تحبّب إليه ما يقوم به كشيخ بين رعيّته، مستعرضة نشاط أخيه جبّار، فيبدي لها عدم حماسته، ولا أدنى اهتمام. في بداية الأمر كانت تظنّ ذلك سلوكاً طبيعياً لصغر سنّه، لكنّها لاحظت مع مرور الوقت أنّه حتى لا يميل إلى مشاركة من في سنّه اهتماماتهم، وذلك ما زاد من قلقها، وظنّت أنّه مصاب بتبلد في عقله. لكنّه أدهشها بسرعة تعلمه القراءة والكتابة، فمع بلوغه السابعة رأت أن تكلّف من تدرّسه، وقد عرفت أن إحدى خادماتها تجيد تلاوة القرآن وتحفظ منه الكثير، كما تحفظ عشرات الأحاديث النبوية، فلم يكمل على يديها سنته الأولى حتى كان يقرأ ويكتب بعض الكلمات، حافظاً قصار السور، وما شدّها أكثر إتقانه رسم الحروف، وهذا ما شجّعها على أن تواصل تلك الخادمة تدريسه، ولم يبلغ العاشرة حتى كان يقرأ ويكتب ما يُطلب منه، كما حفظ عشرة أجزاء من القرآن وعشرات الأحاديث عن ظهر قلب. كانت عيشة سعيدة به، ولم يعد يهمّها أن يهتمّ والده أو لم يهتمّ فيكفي أن تراه يعيش إلى جوارها.

تذكّره مرداس يوم وصل إليه خطاب إمام صنعاء، يطلب فيه إرسال أحد أبنائه إليه رهينة طاعة، ليقرّر إرسال جمال ابن الاثنتي عشرة سنة إلّا بضعة أشهر. ليلتها كادت عيشة تفقد صوابها، وأمست تفكّر في وسيلة تحتفظ بها بابنها، فكّرت في الفرار به ليلاً، لكنّ عبورها بوّابة الحصن من المستحيلات، فكّرت أن تتسلّل إلى دار مرداس وتغرس سكيناً في صدره. ظلّت تفكّر وتفكّر حتى انبلاج الفجر، لا تتخيّله يعيش بعيداً عنها، تتصوّر الحياة في بلاد صنعاء البعيدة وكيف سيعيش وسط أناس لا يعرفهم. رفضت حين قدم جبّار لاصطحابه إلى أبيه، ليحضر مرداس مهدّداً إيّاها، مردّداً: «كفاية تربية نسوان، لقد أفسدته، الرجال ما تربّيها إلا الرجال».

t.me/qurssan

لم ترفع ناظريها إلى وجهه، ولم تردّ عليه بأيّ كلمة، غير أنّها نظرت في عيني ابنها تسأله: أترغب في السفر؟ وما أثار حنقها أنّه ابتسم هازاً رأسه بعلامة الإيجاب، لتتراخى قبضة أصابعها عن معصميه، ويغادرها راسماً ابتسامة وهو يرمقها بنظرة أحسّت فيها بأنّه سعيد بمغادرة الحصن.

عانت عيشة فراق ابنها وهو الذي لم يفارقها ليلة منذ مولدها، تتساءل إذا حلّ الليل هل نام تحت أغطية؟ وإذا ارتفعت شمس الصباح هل «اصطبح؟». تنتظر عودته بفارغ الصبر وقد تصوّرته هلك من الجوع والبرد. وتُدهش يوم عاد يحدّثها عن قصور الإمام، عن نسائه، عن مدينة لا أول لها ولا آخر، عن أسواقها، وعن حياته وسط أناس لا يشبهون في حياتهم حياة الوادي، تسعد وقد رأته مبهوراً بتلك الحياة، يستعجل العودة إليها. وفترة بعد أخرى تلاحظ تغيّره، وترى التحوّل الذي طرأ عليه وهو يحدّثها عن رفقته لنساء بيوت سيوف الإسلام كدويدار، وعن الحياة المترفة في قصورهم.

وفي زياراته الأخيرة يحدّثها عن انقطاعه عن مرافقة النساء، واختيار أحد السيوف له لمرافقته، ثمّ التحاقه بمدرسة بيت الإمام، يشرح لها ما يتعلّمه فيها من كتب الدين غير القرآن، وفي علوم اللغة، يحدّثها أنّ المدرّسين يطلبون منه التواطؤ ليكونَ أدنى معرفة من أبناء السيوف حتى يظلّ في المدرسة.

تستمتع لحديثه: لست الرهينة الوحيد، لقد عرفت الكثير منهم، من مختلف نواحي اليمن، منهم من في العاشرة، ومنهم رجال كبار، لكنّي أتجنّب الكثيرين، وقلة من أنتقيهم لصحبتي، بل إنّ المقرّبين منّي لا يتجاوزون أصابع اليد.

تلاحظ أنّه استمرّ في عدم اهتمامه بما يدور في الوادي، بل حتى لا يهتمّ بالحصن، فمع عودته لا يجالس والده، أو يناقش ما يدور

t.me/qurssan

في الوادي، وحين تحاول أن تحدّثه عمّا يدور يبتسم ويردّد: دعينا من حياة الضنك. تحاول أن تحبّب إليه الذهاب إلى مجلس والده، لا يمانع لكنّه سريعاً ما يعود، مختلقاً أعذاراً شتّى. وحين تحاصره بأسئلتها عمّا يضايقه، يردّ عليها بصوت هادئ: أنا أذهب إكراماً لك، لكنّي لا أجد ما يهمّني لديهم. ولذلك أحبّ خلوتي في دارك.

وزيارة بعد أخرى يتضايق والده من تصرّفاته، مردّداً: لماذا إذن يعذّب نفسه ويعود من صنعاء؟ ناعتاً إيّاه بـ«ولد مدينة».

تعوّدت فاطم على حياتها الجديدة بعيداً عن الضجيج، فلم تعد رحمها صالحةً لقبول أيّ تخلُّقٍ جديدٍ، وإن راودتها أحلامها بين فينة وأخرى بحدوث معجزة.

أمّا شبرقة فقد تشرنقت على نفسها، ولم يعد في ذهنها أيّ مشاعر لمرداس بعد أن سحقت بقايا مشاعرها، ليتغيّر الشوق القديم إلى كراهية، ثمّ ينتهي إلى حقد، ولم يبقَ لها غير ظلال ابنتيها وحضور جبّار الذي يمثّل لها الرئة التي تتنفس منها، والذي يزورها بين فترة وأخرى، شارحاً ما أنجز من عمل، طالباً رضاها، وما ينوي القيام به، يرجوها الدعاء، كما يبثّ بشكوكه حيال دسائس مستشار والده. تستمع إليه بقلب عطوف ومتفهّم، وحين يأتي على ذكر والده في سياق حديثه، تصمت ولا تفصح له عن أنّه يثير غثيانها، وتحرص على تجنّب المواضيع التي يكون فيها مرداس لاعباً أساسياً، لتواصل نقاشها معه وكأنّه لم يذكره. دوماً تنتظر زيارتها لها بشوق، لكنّ ما كان يقلقها هو تهوّره الدائم، وقد أضحى ذلك جزءاً من شخصيّته، فتحاول نصيحته، داعية أن يسلك في تعامله التروّي، وأن يجرّب رؤية الأشياء من زوايا عدّة. لكنّه يشعر وقد تلبّس شخصيّة أبيه، مردّداً جملاً هي

t.me/qurssan

على يقين بأنّها من تعاليم والده وإرشاداته، طالباً منها عدم إرهاق قلبها خوفاً عليه، ومردّداً: ما أطمع به منك هو الدعاء.

كان صوت من يطرق الباب لامرأة، حين سمعتها أمّ قارون، هدأ قلبها وقد ميّزته، لتفتح بتمهّل، تستقبل وجه صاحبتها الضحوك حاملة بين كفّيها قصعة تفوح منها رائحة السمن، سألتها:

– لماذا تقفين وكأنّ على رأسك الطير، ألا تدخلينني؟

– أبداً، فقط شدّني وجهك الذي أستبشر برؤيته خيراً!

– وجهي، ولا عيناك الفرحتان، لكن قولي لي ما سرّ فرحهما اليوم؟

أربكتها جملتها، لتعقب:

– صباحك ما يفرحني.

قالتها في مرح وهي تقف حتى لا تدخل، لتردّ عليها صاحبتها بمرح موازٍ:

– أتيتك بفتّة، بعدما انتظرت خروجك، وحين تأخّرت خشيت أن تكوني متعبة، أو قد يكون لديك ضيف.

ثمّ غمزت بعينها مستدركة: وفي كلّ الأحوال أنت بحاجة إلى ما يقوّي بدنك.

أصابتها جملة «أو قد يكون لديك ضيف» بالخوف، محاولة التماسك والهدوء لتردّ باسمة:

– من أين يأتي الضيف؟

– حدّثتني إحداهنّ أنّ جروك ليلة البارحة كان يهرّ طيلة الليل.

– ربّما أخافته البروق، فهو لا يزال صغيراً.

– بروق! هنيئاً لك البروق يا أمّ البروق، أنا ذاهبة لبعض أعمالي، وسأعود إليك لاحقاً.

t.me/qurssan

سلمتها القصعة وعادت من حيث أتت، لتترك في نفسها قلقاً وخشية على قارون. تلك الجارة هي الوحيدة التي تكثر من زيارتها لها، تسلّيها بثرثرتها، متحدّثة دوماً عن شوقها لزوج جديد بعد وفاة زوجها. تضحكها حين تفرط في أمانيها وهي تردّد بمرح: أتمنّى زائرَ ليلٍ يأتيني بغتة، لا أريد مواعد من أحد، فقط يتسلل ليدفئ فراشي ويروي ظمأ لياليّ. تصمت ترقب ردّ أمّ قارون، وحين لا تجد تجاوباً تواصل: كم تمنّيت لو كان بيتي متطرّفاً مثل بيتك، لأغويت من أرى في عينيه الرغبة.

فتردّ عليها ممانعة:

– اتّقي الله.

– عديني إن وجدتُ أحدهم أن تستضيفيني وإيّاه شطراً من ليل! إن وافقتِ فسأطلب منه أن يأتي برفيقٍ من أجلك.

ودوماً تنهي أمانيها وقد ضمّت أمّ قارون إلى صدرها بمودّة، لتحذرها:

– ألسنة قرية المنحدر من جمر، كوني حذرة.

تتذكّر ذلك وقد عادت إلى قارون راسمة على محيّاها ابتسامة عطوفة، حتى لا يغشاه قلق، واضعة القصعة بين يديه: هذه هي صاحبتي جاءت تطمئنّ عليَّ بعد أن تأخرت في الخروج.

– لقد سمعت هذرها!

ترقب حيرة عينيه، ثمّ عاد صوتها منكسراً:

– قلبي لا يطاوعني على رحيلك. لكنّي لن أعترض على ما تراه صائباً.

– مثلما حيرتك هي حيرتي، أريد أن أبقى، لكنّ بقائي يضاعف قلقك. وأرى أن أرحل الليلة.

صمتت محتارة ثمّ استدارت قائلة:

t.me/qurssan

– سأخرج حتى لا يلفت غيابي انتباه أحد. وعليك أن تمكث بهدوء ولا تستجيب لأيّ طارق.

استقبلها الجرو يمرح حولها، مرّت على قنّ دجاجاتها، ثمّ اتّجهت هابطة مزرعتها، بعد وقت عادت تحمل على رأسها حزمة علف، أخرجت البقرة تدور بها حول البيت تمسح ظهرها تتحدّث إليها كما لو كانت تفهم، عادت بها لتضع حزمة العلف أمامها، تشعر بأحزان تثقل قلبها، تسحب لحظات يومها لتعود مع حلول المساء بوجه ضامر تجالسه صامتة، لا تجد ما تتحدّث به وقد شغلها هاجس رحيله، تهامس نفسها بكلام متداخل، يتابعها بقلب مضطرب ولا يدري ما يصنع ليسعدها، يخبرها بأنّه أرجأ رحيله ليلةً أخرى، فتردّ عليه بأسى: لكنّك في النهاية سترحل وتتركني وحيدة. يتمنّى لو أنّه لم يتسلّل إليها.

انقضى ذلك المساء بارداً صامتاً، لتعاود صاحبتها طرق بابها، تحدّثها بصوت مضطرب: يقولون إنّ الشيخ جمع الرعيّة، وقد احتشدوا لمهاجمة من في الغابة. وقالوا إنّ لديه بنادق جديدة تقتل عدّة أشخاص في وقت واحد. وقفت أمّ قارون تسمعها وقد طغت على ملامحها حيرة. أردفت صاحبتها: وإنّه عازم على إعادتهم إلى حبسه والعمل في مزارعه كما كانوا. صمتت وهي تتفرّس وجه أمّ قارون ثمّ أردفت: أراك واجمة، أين بريق عين أمس، أم أنا أخبرتك بما زاد همّك، وأرى في عينيك كلاماً كثيراً، أتودّين أن تخبريني بشيء، هيّا أخبريني، أمس كان وجهك باسماً واليوم تنظرين إليّ بنظرات حزينة. حدّثيني بما يشغلك، ألست صاحبتك؟

صمتت لحظات ثمّ زادت: لن أزيد من همّك. سأذهب إلى عملي ما دمت لا تودّين الحديث.

t.me/qurssan

سارت مبتعدة في خطى ثقيلة، ثم التفتت: سأعود إليك، فقلبي يحدّثني بأنّك تخفين عليّ شيئاً.

أقفلت بابها وعادت إلى قارون تلهث:

– لن تغادر، أسمعت ما قالته جارتي؟

– سمعت، لكن...

– الشيخ يستعدّ للهجوم على الغابة.

– وإن كان، سأتسلل ليلاً!

– لن تخرج أبداً.

– أخاف من جارتك هذه وتطفلها أكثر من الشيخ.

– لا تخف، فهي لا تعرف شيئاً.

نُصبت خيمة للشيخ ومستشاره على ربوة عالية أمام غابة الجبال، ووقف الشيخ يجاوره مستشاره زيد الفاطمي بجلابيبه الفضفاضة وعمامته البيضاء وأمامهم وقف الرعيّة في صفوف متجاورة، حاملين البنادق الجديدة، بينما استعد جبّار ورجاله للهجوم حسب الخطة، وجّه زيد كلامه إلى الجميع: «بسم الله الرحمن الرحيم القائل: وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون. اليوم حصحص الحق، وبكم يتطهّر واديكم ممّن ينشرون الخوف ويقلقون السكينة، ليعود الأمان ويعمّ الخير بفضلكم، أنتم جنود الله، وأنتم المنصورون».

وما هي إلّا لحظات حتى توغّل جبّار برجاله وسط الأشجار حسب الخطة، شاهرين شميزراتهم. أعقبتها حالة من الترقب والهدوء، اشرأبّت الأعناق لتُسمع قعقعة الرصاص من أعماق الغابة، وتوارد الأخبار إلى تكيّة الشيخ بأنّ الرصاص يحصد أرواح الفارّين، وأنّ أعداداً كبيرة منهم قد استسلموا، بعد وقت ظهر عدد من رجال

t.me/qurssan

جبّار يحملون جرحاهم. بُهت الشيخ لمرآهم، وخشي أن يكون جبّار أصابه مكروه، وقرّر إعطاء الإشارة لصفوف الرعيّة بالاستعداد للدخول، لكنّ مستشاره نصحه بالتريّث، فحسب الخطة يجب أن تصل إليهم من جبّار إشارة، ليمرّ الوقت ثقيلاً وتظهر مفاجأة أخرى وقد عاد بقيّة رجال جبّار يهرولون في حالة يُرثى لها، ليخبروا الشيخ أنّ جبّار أمرهم بالانسحاب، وأنّه سيلحق بهم! مرّ الوقت بطيئاً حتى عاد منكّس الرأس، يجرّ أذيال الخيبة، وما إن وصل أمام والده حتى ركع صارخاً: لم نُهزم من أشباه الرجال، لكنّنا هُزمنا ممّن هم بيننا، هناك من سرّب خطتنا، لقد كانوا على معرفة بتفاصيل خطواتنا، ولذلك اقتربوا ينتظرون مرورنا وقد كمنوا متخفّين بالأشجار، بينما كنّا نظنّهم في عمق الغابة، لقد قتلوا رجالي بفؤوسهم وحرابهم، لم يعطونا الفرصة لاستخدام بنادقنا. وقد تقافزوا كالقردة من بين الأغصان وجذوع الأشجار.

تأثّر مرداس من حالة ولده ومن بقي من رجاله، حامداً الله على سلامته، مدركاً أنّ خيانة ما ارتُكبت، وأنّ بين العقّال والرعيّة من لهم صلات وتواصل بالفارّين. حاول مرداس أن يمتصّ هلع ابنه، ويحدّ من تذمّره.

– وحوش الغابة هاجمت ابن الشيخ ومن معه.

هذا ما وصل إلى أسماع قارون من منادمة أمّه وصاحبتها، وتلك المرأة تؤكّد لها أنّ جميع من تجمّعوا لدخول الغابة قد تفرّقوا خوف خروج الوحوش.

تركت أمّ قارون ما تسمعه دون تعليق، وقد أصابها ذهول غريب، تودّعها لتعود، محاولة فهم حياة من في الغابة بين تلك الوحوش. يقول لها قارون ضاحكاً:

t.me/qurssan

– طواهش الغابة أكثر رحمة يا أمّاه من حصن مرداس.

– لكنّهم يقولون إنّها افترست من حاولوا دخول الغابة، فكيف بكم وأنتم عُزل؟

لم يستوعب قارون ما يقال عن تلك الوحوش، وقد أقلقته حال أمّه وتصوّراتها، أخبرها بأنّه قرّر البقاء، لتلتفت حاضنة وجهه وهي تردّد غير مصدّقة: ستبقى من أجلي. وقد خالط صوتها نواح. ثمّ صمتت تمسح دمعها. وقالت بصوت قويّ: بل ستمضي في حال سبيلك الليلة، وسأعرف كيف أتدبّر حياتي وحيدة، لا تخف عليّ، سأعيش أرقب عودتك.

غادر قارون مع منتصف ذات مساء، موصياً أمّه: دعي الباب مشرعاً حتى إذا عدت ليلاً لا أزعج منامك. صعدت إلى سطح بيتها كعادتها حين يضيق صدرها وتفيض عيناها، لعلّها ترى مسيرة وسط ليلة مبهمة المعالم، تابعته حتى اختفى شبحه، وبقي لها أن ترهف السمع وإصبعها يمسّد جروها الرابض في جوارها بحنان، رافعة وجهها لترى بثور نجوم على سقف الظلام، وبين وقت وآخر ترى شهاباً مسافراً، فتعرف أنّه يرافق قارون وتبتسم من بين دموعها وتناجي الشهب أن تحرسه. تسمع أصواتاً متداخلة من هنا وهناك، ظلت تتابع رحلة الليل حتى وهج الفجر، اختلطت صلواتها بزقزقة العصافير، وظلت في مكانها تتأمّل ضوءاً شفيفاً يطلّ من شفاه الجبال الشرقية، ينثال رويداً رويداً ليهبط السفوح والسهول، يتنفّس النهار لتحرّك رياحه أعالي الأشجار، تتمنّى أن تتغلّب على حالة الحزن التي تكتنفها، مرّ الوقت والخوف يحاصرها ويصمّ أذنيها، لكنّه صوت صاحبتها يشعرها بالأمان: أتمنّى أن أعرف ما يجعلك على السطح وقت شروق الشمس؟

t.me/qurssan

ترقبها تهتزّ بمرح بنت العشرين، وكأنّها قادمة إلى موعد غرامي. ما إن اقتربت من بابها حتى هرعت مرتبكة لاستقبالها، تحاول إخفاء ما يعتمل في قلبها، لكنّ صاحبتها لاحظت انتفاخ عينيها ووجهها لكثرة الدموع، أمسكت بكفّها وقد قطبت بين حاجبيها بقلق: هل بتِّ على السطح تبكين؟ هربت بعينيها بعيداً، بينما أردفت صاحبتها: لا تهربي منّي، انظري في عينيّ لأرى ما يدور في روحك؟ احتضنت وجهها تتأمّل عينيها هامسة: أخمّن ما تخفين، انتفاخ عينيك يدلّ على أنّ في الأمر ألماً وحزناً، لكنّي لا أميّز على ماذا، لماذا تخفين عنّي؟ لقد تعاهدنا يوماً على الصدق، لماذا لا تصدقينني القول؟ أخبريني وإلّا فسأدخل بيتك لعلّي أجد ما يحزنك.

أمسكتها من يدها كطفلة ودخلت بها مردّدة: سأعرف ما تخفينه عنّي. تتحدّث وهي تطوف بها من غرفة إلى أخرى، هامسة: أميّز رائحة رجل تملأ البيت. قالتها وقد أطلت على بيت الراحة، لترى تلك الثياب المشبعة بالوحل والتراب. صرخت: أخيراً ها هي آثاره! لم يكن لأمّ قارون أن تقاوم، التقطت ملابس ابنها تضمّها إلى صدرها، تمرّغ وجهها وقد انهار تماسكها فجأة لتنفجر باكية، التقفتها صاحبتها بخوف، لتنظر إلى عينيها باستجداء:

– عاهديني ألّا تفشي سرّي لأحد.

– ومتى أفشيت يوماً سرّك؟

– لا أعرف، أقسمي فحسب.

– أقسم بالله ألّا أفشي لك سرّاً.

للحظات نظرت في عينيها وقد ارتجفت شفتاها ثمّ نطقت حروفاً مفكّكة:

– كـان ولـدي هنا.

– قارون؟!

t.me/qurssan

– لكنّه رحل خوفاً مِنك.
– منّي أنا؟!
– حرمتِني ولدي!

لم تكمل كلماتها حين هوت أرضاً مواصلة نحيبها، لتلحقها صاحبتها تطوّقها بخوف، تشاركها عويلها.

بعد تلك الهزيمة أحسّ مرداس باهتزاز مكانته، لم يتوقع ذلك الانكسار لابنه، ولا أن تنهزم البنادق أمام مناجل وفؤوس وحراب، وما كان يشغله معرفة من أوصل لهم تلك الخطة حتى يخرجوا في استقبال ابنه ورجاله! وكان يخشى أن ينتشر التمرّد بين بقيّة الرعيّة، أو يخرج من في الغابة لمهاجمة الحصن. دعا مستشاره لتدارس الأمر، بداية باستعادة هيبة الحصن، وكان رأي زيد الإعداد لهجوم شامل واستئصال شأفة سكّان الغابة. مرداس وافقه الرأي إلّا أنّه فضّل تأجيل الهجوم حتى يُرتّب له جيّداً، وقبل ذلك يُعدّ لوداع ابنه جمال موكباً يُدعى إليه أمناء القرى وعقّالها وبعض الرعيّة للمشاركة فيه. بتحويل ذلك الوداع إلى تظاهرة كبيرة يسمع بها القاصي والداني. استحسن زيد الفكرة.

بُعثت الرسائل، ولم يأت صباح يوم السفر حتى تجمّع خلق كثير أمام بوابة الحصن، لتهبط الجموع التي ردّدت الجبال صدى زواملها، تتقدّمها صفوف راقصة، وتتبعها مجاميع لا تنتهي من الرعيّة. تعالى ضجيج الطبول، لتستقبلها زغاريد نساء قرية المنحدر بالمباخر، يتقدّمن بخفر حتى سوق الجمعة المحاذي للطولقة. استقبلتهم صفوف الباعة بالكباش وأكياس المكسّرات والفواكه تحيّة للشيخ، ليغادرهم جمال على حصان أبيض يرافقه حرّاس باتجاه

t.me/qurssan

المشرق. تفرّق بعدها الجمع، ليتحدّث الوادي عن ذلك الوداع الكبير لمن غادر إلى صنعاء.

تتابع عيشة الوداع الكبير لولدها وقد احتشدت نساء الحصن حولها. تعلم أنّ جمال لا يهمّه ذلك الموكب الكبير، وقد رجته أن يجاري والـده، بعدما أخبرها أنّـه سيرفض استخدام والـده سفره ليستعيد بعض هيبته. رجته قائلة: سر بينهم صامتاً، لا ضير في إسعاد والدك، فهو يمرّ في محنة. تحدّثه دامعة العينين، وهي تدرك أنّه يسافر هذه المرّة بعيداً عنها.

أثّرت تلك الهزيمة على مرداس، إذ أدرك تنامي خطر من في الغابة، وقد أمست ملاذاً لكلّ عاصٍ، في الوقت الذي جفّت فيه معظم أشجار البنّ لعدم وجود من يرعاها. ناقش ومستشاره تلك المواضيع في أكثر من لقاء، وفي آخرها بدا جبّار أكثر نزقاً ممّا مضى:

– أولاً وقبل مناقشة ترتيب أيّ هجوم، يجب معاقبة الخونة!

رفع الشيخ صوته ليسكته:

– تعقل ودعنا نتدبّر الأمر بهدوء.

بدا مرداس وهو يردّ على ولـده هرماً، وقد تكاثرت تغضّنات وجهه أكثر من أيّ وقت مضى. ردّ جبار بصوت خفيض:

– كيف نتدبّر الأمر وبيننا خونة دون عقاب؟ لقد تأكّد لي أنّ التواصل مستمرّ إلى اللحظة بين من في الغابة ورعيّتنا، وما انتصار فؤوسهم على رصاصنا إلّا نتائج ذلك التواصل، أنا على يقين بأنّ ما نخطّط له يصل إليهم، حتى إنّهم يعرفون نوعية بنادقنا وأعدادها.

حاول زيد أن يبدو ذلك المستشار الذي يعتصر ذهنه، وقد أطرق يفكّر بصمت، وأصابعه تتلاعب بشعر لحيته، ناظراً باهتمام إلى وجه مرداس الكئيب، بينما جبّار يواصل تذمّره: لم يتركوا لنا فرصة

t.me/qurssan

لاستخدام بنادقنا، ولم ينتظروا في مكامنهم، بل خرجوا يكمنون لنا، وما إن وصلنا إلى منطقة محدّدة حتى هبطوا علينا من العدم، رصاصنا كان طلقات عشوائيّة لم تصب غير فروع الأشجار، بينما مناجلهم وفؤوسهم كانت أسرع. أدرك الشيخ مقدار الرعب الذي استقرّ في أعماق ابنه، رفع صوته يائساً:

– هل أكملت ما لديك، من يسمعك وأنت تهوّل فسيظنّهم لا يُقهرون، هيّا كن رجلاً وتماسك، أين شجاعتك التي يهابها الجميع؟

هدأت نبرة صوته أكثر:

– سأقهرهم، فقط كيف نحافظ على سرّية خطّة هجومنا، وما أردت قوله، أنّ علينا معاقبة الخونة قبل أيّ خطوة.

وضع المستشار عمّته على ركبته، لتظهر صلعة لا تتناسب مع حجم وجهه، وقد أدرك أنّ دوره حان لطرح ما لديه، وبصوت رخيم بدا في أدنى درجات الخفوت:

– حقيقة الأمر نحن في محنة، كلّ شيءٍ ينهار، ولذلك أنا مع رأي الشيخ عبد الجبّار، أولاً يجب معاقبة الخونة، لكن كيف؟ هذا ما يجب تدارسه، حتى لا نستعدي بقيّة الرعيّة. فإن ألقينا القبض على بعضهم فسيكون للأمر تداعياته، ونحن في أمسّ الحاجة إلى كلّ رعوي، وإن تركناهم دون عقاب فستستفحل خياناتهم، ولذلك يجب أن نفكّر معاً دون تسرّع.

كانت تدور في ذهن الشيخ بعض الشكوك حول مستشاره، ففضّل التريّث، ليسأله متلهّفاً:

– كيف؟

– أرى أنّ على عبد الجبّار أن يحدّد الموثوق بهم من بين العقّال، ثم نشكّل منهم فرقة نعتمد عليها في هجومنا المزمع، والذين تدور حولهم الشكوك نشكّل منهم فرقة أخرى.

t.me/qurssan

– وماذا نصنع في من نشك في إخلاصهم؟

– فرقة المشكوك فيهم نزجّ بهم مع بداية الهجوم، ليكونوا في مواجهة سكّان الغابة، ثمّ نتبعهم بمن نثق بهم، وبهذا يكونون في موقع خطر، فإن استمرأوا الخيانة فلن يجدوا إلّا العصاة أمامهم، ورصاص الموثوق بهم من الرعيّة خلفهم، ثم يدخل عبد الجبّار ويكون رجاله آخر من يدخلون الغابة.

ابتسم الشيخ، موجّهاً كلامه لجبّار:

– هي خطة وتدبير محكم.

أعقبه زيد منتشياً:

– شريطة أن نرتّب للأمر بسرّية تامّة، ونحرص على ألّا تتسرّب خطتنا، ولا تخرج عن ثلاثتنا.

نظر الشيخ باتّجاه زيد وفكّر أن يختبره:

– وأرى أنّ على مستشارنا تجهيز مجموعة من رجال الهجرة أسوة ببقيّة القرى للمشاركة في الهجوم.

وكمن لدغه حنش، رفع المستشار صوته مقاطعاً:

– عفواً، الجميع يعلم بأنّنا هجرة لآل رسول الله ولا نقاتل أحداً، وواجبنا تعريف الناس بشرع الله وسنّة نبيّه الأمين، ولسنا حملة سلاح، ولا طلاب سلطة، وأنا معك مستشار.

ردّ عليه الشيخ ساخراً:

– أتنتظرهم حتى يصلوا إلى باب بيتك؟!

فردّ محتدّاً:

– عند ذلك لكلّ حادث حديث.

– أليس بيتي هو بيتك، وعرضي هو عرضك.

– نعم، لكن لكلّ منّا عمله، فلا نريق دماءً، ولا نميل للقتال، نحن أهل علم، وهجرة الجميع لك ولغيرك.

t.me/qurssan

– هجرة الجميع؟! أتعني أنّكم في صفّ من غلب.

– مع من يطبّق شرع الله وسنّة المصطفى.

نهض الشيخ غاضباً وترك جبّار ومستشاره... خيّم الصمت، وظلّ زيد في حيرة لموقف مرداس المفاجئ، يفكّر في أن الفرصة قد سنحت ليُعلم الشيخ من يكون، وقرّر استغلال الموقف، نهض كاسراً الصمت موجّهاً كلماته لجبّار: قل للشيخ يا عبد الجبّار، البادئ أظلم!

يُدهش جمال لمرأى أرتال عربات عسكريّة «عربيّة» تملأ الشارع القادم من الحديدة، ميدان شرارة الذي أصبح ميدان التحرير هو الآخر تملأه الجموع العسكرية، باب اليمن تتجمّع أمامه قبائل معلنة انضمامها إلى صفوف الثورة، يفضّل أن يهرب إلى سكينة صنعاء العتيقة، تلك الشبيهة بأمّه، يسير في أزقتها يحيطه جلال دور سامقة، يدخل أسواقها المتشعّبة بروائح وألوان المعروض في حوانيتها، يحدّث نفسه: عمَّ أبحث؟! هل أبحث عن نفسي؟ لكنّه يسير كثيراً ولا يجدها.

مع شروق الشمس خرج باتجاه الشارع القادم من تعز يرى عربات تجوب الشوارع مثقلة بهتافات مؤيّدة للثورة، كلّ الشوارع عربات وهتافات وبنادق، لا يميل للعسكرية ولا يحبّ فهمها، رغم ذلك ألحقه عسكر الجمهوريّة بهم، ومنذ أُلحق قبل عدّة أشهر وهو مكلّف ضمن فرق إسعاف المصابين ودفن القتلى، ورغم محاولته فهم عقول العسكر عجز، ولذلك يظنّ أنّ رؤوسهم دون عقول، فدوماً يضعون الأشياء في غير أماكنها، وها هم يقرّرون إرساله إلى مصر ليدرس العسكرية، قال لهم: لا أحبّ رؤية السلاح فكيف أحمله وتريدونني أن أتدرّب على القتال به. فقالوا له حين يتزوّج المرء عادة يأتي الحبّ لاحقاً.

t.me/qurssan

يحنّ إلى أيّام صنعاء تلك التي قضاها رهينة قبل ثورة العسكر، متنقلاً بين قصور سيوف الإسلام، مرافقاً للشرايف في خروجهنّ ودخولهنّ، يعطفن عليه لصغر سنّه، وقلّة يتحلّين له. وحين بدأ شاربه بالاخضرار، نُقل من مرافقة الشرايف إلى خدمة سيوف الإسلام، يتذكر كم كانت الحياة ممتعة، وفجأة انقلبت حياته رأساً على عقب، ففي اليوم الذي كان فيه بداخل المدرسة سمع دويّاً وصخباً هائلاً... قيل إنّ العسكر حاصروا قصر الإمام، والقصور الأخرى للسيوف، وإنّ القتال يدور في الشوارع، ليسيطر العسكر خلال أيّام على قصور الإمام وأبنائه السيوف، وتشرّدت الشرايف والخصيان، وضُمّ الطلبة وبينهم جمال إلى صفوف العسكر الثائرة، واختلط الحابل بالنابل، وبدخول المشايخ وقبائلهم تحوّلت صنعاء إلى قرية كبيرة، يتكاثر فيها المتسلطون.

واليوم يعود إلى صنعاء ليودّعها بعد أيّام، وقد نما إحساس تجاهها، كما يحسّ تجاه أمّه وهي تودّعه، متنقلاً في ضيافة أصدقاء عرفهم منذ كان رهينة، يودّع مُتع صنعاء بقضاء ساعات الليل في مضغ القات، وكان عزاؤه لمفارقة صنعاء ما يسمعه عن تمدّن مصر وما فيها من حرّية ورقيّ.

وأتى يوم الرحيل وقد حلقت به طائرة عسكرية مصرية وقلة من طلاب في عمره، ليروا أسطح صنعاء وقد سوّرتها جبال سوداء، لساعات طويلة فوق البحر حتى هبطوا بهم في مطار يعجّ بالعسكر، ثمّ على عربة عسكرية إلى القاهرة التي بدت له أكبر ممّا كانوا يصفونها له، بهرته شوارعها الفسيحة وميادينها الواسعة وحدائقها المترامية الخضرة ومبانيها الضخمة. عربات بألوان وأشكال مختلفة، نساء حور عين، وغلمان مخلدون يسيرون على الأرض. وما أدهشه ذلك التعامل اللطيف ممّن يصادفهم.

t.me/qurssan

لم يكن جمال يعلم ما ستكون دراسته، ولم يأخذوا رأيه في ما يُريده، فقط أخبروه بأنّهم اختاروا له الدراسة العسكرية. وكان الأمل لا يزال يراوده بأن يتركوه يدرس ما يريد.

وصل أوّل رسول بردّ على إحدى رسائل شنهاص، يقود مجموعة دوابّ تحمل عشر بنادق تشيكيّة وصفيحة رصاص وخمسة أكياس ذرة، وقد بارك المرسل في جوابه نجاة الشيخ شنهاص، معزّياً إيّاه بوفاة أولاده وبني عمومته، واعـداً إيّاه بالمزيد. تلى ذلك بعد أيّام رسول ثانٍ ومجموعة بنادق غرينوف وشوال رصاص، وعدد من أكياس الذرة. وهكذا توالت الردود بين داعم بالبنادق والرصاص ومخيّب للآمال. لكن من بين تلك الصناديق، كان صندوق وحيد يحتوي على خمسين إصبع ديناميت. وكانت تلك الأصابع أفضل ما وصل إلى سكّان الغابة. استبشر شنهاص خيراً، متجاوزاً بعض العبارات الواردة في بعض الرسائل يخاطبونه فيها كتابعٍ لهم.

تحوّل من في الغابة إلى معسكر ضخم يضجّ بأنشطة التدريب على استخدام تلك الأسلحة. وانهمكت مجموعات بمن فيها النساء في التدريب. وازداد نشاط عرّام ومجموعته في جمع المعلومات عمّا يدور في الوادي وما يعدّه الحصن لهم. وكذلك عبر قارون ومجموعته تلك الجبال الوعرة حاملين رسائل لمشايخ آخرين لمزيد من العون.

لم تمض أيّام حتى جمع عرّام ومجموعته أخباراً مؤكّدة عن استعدادات جديدة لهجوم كبير يرتّب له الحصن، ما دفع شنهاص إلى شحذ همم الجميع لمزيد من التدرّب واليقظة، ووُضعت خطة جديدة للبدء بخروج مجموعات لمهاجمة الحصن والمتعاونين معه، تطبيقاً لقاعدة «خير وسيلة للدفاع هي الهجوم».

t.me/qurssan

قالت شادن تنادم زهرة:

– ما أحلم به منذ عرفت أنّ والدي حيّ يرزق أن أفرّ لألتقي به.

تأمّلتها زهرة وقد اتّسعت عيناها وتورّدت وجنتاها:

– هذا ما كنت أخشاه.

– أتخشين عليَّ من الانعتاق يا زهرة؟

– أخشى أن تتركيني.

– ألا تودّين أن تفرّي معي؟

– إلى أين؟

– حيث الدنيا واسعة.

– بل قولي إلى الضياع!

– أنت لا تعرفين إلّا حياة الحصن، ولو عشتِ حياة أخرى، لأدركت أنّه الجحيم، هناك حيوات أجمل وأكثر سعادة، لو ذُقتِ إحداها لحلمت بالفرار.

– كلامك محيّر.

– جرّبي أن تحلمي، وقد تلتقين بذلك الفتى إن كان على قيد الحياة.

– قلتِ إنّ حكايته يعرفها الجميع، فهل تعرفينه.

– لا أعرفه، لكنّي اعرف اسمه. وما سمعته من حكاياته.

– هيّا أخبريني.

– اسمه قارون.

– قارون، اسم جميل. وباقي الحكاية.

– هي حكاية مؤلمة.

– احكيها لي.

– ليس الآن!

– لكنّ التفكير فيه يشغلني.

t.me/qurssan

– ألا تعلمين بأنّك أيقظتِ المرأة بداخلي.
– كيف؟
– بتخيّلي أحاسيسك البكر تجاه فتى لا تعرفينه!
– يعجبني التفكير فيه.
– إذاً ستفرّين معي متى وجدنا الوسيلة. وهناك ستلتقينه.

لم يدم هدوء الوادي بعد هزيمة جبّار، فقد سُمع دويّ هائل قبيل فجر أحد الأيّام، لم يعرف الناس مثيله من قبل، وشوهدت ألسنة اللهب من قرى بعيدة، ليتساءل الناس عن ماهيّته؟ وراحوا يتحدّثون عن أنّ ذلك الانفجار قد حوّل ضريح جدّ الشيخ إلى ركام، ذلك الضريح الذي كان يشمخ ببياضه مجاوراً مسجد الحصن.

عمّ الخوف وانتشرت الشائعات بأنّ ساكن الضريح قد غضب لكثرة المعاصي، وشائعات أخرى تفيد بأنّ زيد الفاطمي هو من دعا على مرداس وجدّه بعد خلاف نشب بينهما، فاستجاب الله لدعائه.

تلى نسف الضريح إشعال النار في مساحات واسعة من أشجار البنّ التي أصابها الجفاف، وليلة بعد أخرى أخذت الهجمات تتزايد، وتتنوّع بين حرق للمحاصيل والأشجار، وبين ملاحقة المتعاونين من الرعيّة مع الحصن، إلى نبش مدافن الحبوب المنحوتة في باطن الصخر، وذلك ما هدّد الحصن بأن يصل الأمر إلى إحراق مخزونه من الحبوب.

لكن ما قضى على ما بقي من هيبة الحصن، أن نجحت مجموعة من الفارّين في الوصول ليلاً إلى ساحة الحصن الداخلية وإشعال النار في مخازن البنّ، وعلى مدى ساعات الليل انتشرت رائحة البنّ الزكيّة لتفرّقها الريح في كلّ اتجاه. في تلك الليلة دارت مواجهات بين الحرّاس والمتسللين، لينجحوا في الفرار بعدما خلّفوا قتيلين.

t.me/qurssan

في البداية احتار من في الحصن في كيفيّة وصول العصاة إلى ساحة الحصن. ومع شروق الشمس كان جبّار قد وقف بنفسه على جلد عددٍ من الحرّاس، ليعترف أحدهم بأنّ بينهم من تواطأ مع المهاجمين، وفتح لهم باب الحصن، جُنّ جنون جبّار، وتناول «الشميزر» وأطلق لتوّه الرصاص على من بين يديه من الحرّاس المكبّلين.

لم يعد من حديث بين شادن وزهرة غير حديث الفرار، ودوماً تدعو شادن زهرة لأن تتعلم كيف تحلم بالحرّية، فتغمض عينيها متخيّلة أنّها خرجت من بوابة الحصن، أن تجد قارون وقد خذلها لسانها، تحاول النظر في عينيه، لكنّها تخجل من النظر إلى وجهه. يمسك بيدها يوشوشها بكلمات، يشعرها بأنّها لم تعد هي. تفتح عينيها جذلانة سائلة شادن:

– متى سنفرّ؟

– أراك متحمّسة.

– ألم تطلبي منّي أن أحلم.

أمسى ليل الوادي يسيطر عليه الفارّون، وانحسرت سلطة الحصن إلى حدود بوابته، فلا ينازعهم في ليله منازع، يجولون في ظلامه، يلتقون بمناصريهم، يسهرون ويمضغون القات معاً، يزورون مزارعهم المقفرة ومنازلهم المهجورة. وقبل بزوغ الشمس يعودون ليختفوا بين أشجار الغابة، لتعود سلطة الحصن نهاراً، وهكذا تتعاقب على الوادي سلطتان بين الليل والنهار. نشط رجال جبّار في ملاحقة من يدور حوله الهمس بتعاونه مع الفارّين، ليمتلئ حبس الحصن من جديد بالرعيّة، وأضحت مواقيت صلاة الجمعة مناسبة لتنفيذ طقوس التعذيب بهم. يُحكم وثاق المغضوب عليهم إلى أعمدة الساحة ليُجلدوا ويُعذّبوا. كانت قسوة جبّار تزداد يوماً بعد يوم، وقد

t.me/qurssan

لقُب بالـ«سِمع» تشبيهاً بذكر الضبع، وهذا ما كان يثير غضب مرداس الذي يرى فيه خليفته، وهو من يشجّعه على الحزم، لكنّه هذه المرّة يطلب منه التخفيف، فيردّ عليه:

– ألست من علمتنا أنّ «الرعوي مثل الجُبا إن لم يُدس بالنعال وطل فوق روسنا»؟ ألا تريد أن أعيد للحصن مهابته؟

– أريد ذلك، لكن عليك قبل أن تخطو خطوة أن تفكّر أين تضع قدمك.

– هذا كلام جديد يشابه نصائح أمّي!

– ثمّ ألا تهدأ بعض الوقت، لنختار لك زوجة؟

– لن أهدأ حتى أستعيد الفارّين أو أقضي عليهم.

– كيف سنستعيدهم بدون زيد الذي لم يعد كما كان؟

– مستشارك لم يعد أميناً!

– لم أتأكّد بعد.

يجالس نافذته المطلّة على الوادي، متأمّلاً في حسرة ما أصاب المزارع من جفاف، وعبث النار بأشجارها. يتمدّد الوادي شبيهاً بسفينة خرافية، وقد نهضت جدران الجبال السامقة كجنبات عملاقة، وشرختها روافد عميقة مكوّنة شعاباً وغويبات كثيفة. وانحدرت سفوحها حتى تماهت مع سهول الوادي، يرى حدود سلطانه يمتدّ غرباً إلى أطراف الجبال الغائمة، وتلك القُرى المتلألئة تحت الشمس على السهول والسفوح والقمم، باحثاً في تلابيب عقله عن مخرج لإعادة اخضرارها. يفكّر في مصالحة زيد، وإن راودته شكوك في نيّاته، لكنّه هو من يحرّك أمناء مساجد القرى من الفواطم، الذين يعظون الرعيّة، ولذلك قرّر إظهار بعض الليونة حتى ينجلي الأمر وبعدها يرى ما يصنع به.

t.me/qurssan

فضّل أن يدعو زيداً دون جبّار، بدأ بلومه على انقطاعه عنه، لكنّه استمرّ متجهّماً وصامتاً، أردف مخففاً من لومه إلى عتابه: نحن يا رجل أهل، وما يجري بيننا لا يؤدّي إلى القطيعة، ثمّ أترضيك حال الوادي؟

ردّ عليه بجفاء لم يألفه وكأنّهما قرينان:

– الأنانية والابتعاد عن الآل أوصلا الوادي إلى ما هو عليه!

ردّ عليه بسؤال محاولاً إظهار نوع من المودّة:

– أرى لهجتك جافة، أيُعقل أن تكون أخذت على نفسك منّي؟

تحوّلت نبرته إلى الهدوء:

– وأن نجدّ في تطويع الرعيّة، فلا تقدّر جهودنا، ولا يهمّك إلّا مزيد سلطانك، بينما نحن لا نجني سوى الفتات، ومع ذلك ظللنا نعمل بصمت، لتأتي في آخر الأمر وتريد أن تقاتل بنا.

صمت الفاطمي يرمق مرداس، بينما مرداس يتفرّس في وجهه على مضض، ليراه وقد اعتمر عمامة أكبر من أن تناسب حجم وجهه الصغير. ردّ:

– منحتكم الخُمس من حرّ مالي، علاوة على أطيان الأوقاف وما تجنيه أنت وباقي أمناء المساجد من نذور وعطايا الرعيّة!

اتّسعت عينا زيد، مطمئنّاً إلى انكسار صوت مرداس، ليضيف بنفس الهدوء:

– تعلمون أن ليس لأحد فضل في ما هو لنا، فالأمر لله ورسوله في الخمس، وما هو أوقاف يذهب لبيوت الله، فنحن خدّام دينه والقيّمون على شعائره، نبصّركم ورعيّتكم دينه وما يجب اتباعه، وما نطالبكم به واجب لنا عليكم، واليوم ترون ظروف الوادي، وما يعيشه من اضطراب، وتعلمون أنّنا نبذل جهداً لإقناع الأب بقتال ابنه والأخ بقتال أخيه، حتّى يخضع الجميع لسلطانكم.

t.me/qurssan

صمت قليلاً كمن يقلّب أمراً قبل أن يتفوّه به، ثمّ استطرد: وأطرح عليكم رأياً، أن تنذروا مساحات من مزارعكم الواسعة، يكون ريعها للآل، وأيضاً مساحات أخرى تُخصَّص لمن يتلو القرآن الكريم على أرواح أجدادكم.

كان زيد يتحدّث وقد رفع عينيه إلى وجه مرداس ليسبر ردّة فعله، وحين تأكّد من خنوعه، أردف: تعلمون أنّ من يتسللون من الشعاب هم أبناء وإخوة الرعيّة، وأنّ مهمّة إقناعهم بقتال أقاربهم صعبة، وأنّنا نبذل جهوداً كبيرة لتعريفهم بأوامر الله ونواهي رسوله فيمن يعيثون في الأرض فساداً، وما يجب عليهم القيام به لمواجهة العصاة مرضاةً لله.

تبسّم الشيخ بغيظ، ثمّ التفت إليه هازّاً رأسه، مدركاً أنّ زيد يملي اليوم عليه لمعرفته أنّه محتاج إليه، ولذلك قال مستسلماً:

– للآل ما أشرت به علينا.

انفرجت أسارير زيد وتغيّرت نبرة صوته:

– لا بأس، ولكم الطاعة دوماً.

صمتا يحسب كلّ منهما ما جناه، ليظهر كلّ منهما للآخر غبطةً وبشاشة. واستعاد زيد المستشار الحرص على إبداء النصح والحكمة:

– سأُبشّر أمناء المساجد بما تفضّلتم به، وأحثّهم على تكريس ما بين الصلوات لهداية ما يصلح الناس.

– إذن أرجو سرعة تهيئة الرعيّة للهجوم الكبير حسب المتفق عليه سابقاً.

– سنعمل على دفع الرعيّة، فقط أقترح عليكم قبل ذلك، أن تأمر جبّار بالكفّ عن ملاحقة الرعيّة، وأن تطلقوا سراح جميع من في الحبس، وأن تتحدّث إليهم قبل التوجّه إلى قراهم حديث الأب لأبنائه، لتشدّ من أزرهم، وتحثّهم على الاستعداد لمواجهة العصاة.

t.me/qurssan

وتعلمون بأنّ الهجوم بحاجة إلى توحيد الصفوف، وندعو الله السداد لنقتلع شأفة المارقين.

– هذا ما سيكون، وسنتدارس في لقاء قادم تحديد يوم الهجوم.

يحاول قارون منذ عودته الانشغال بما يُكلَّف به وقد تتالت الردود على رسائل شنهاص بمزيد من البنادق والرصاص. وارتفعت مكانة قارون لدى الأخ الكبير، الذي يسمعه كلمات مشجّعة ويشيد بأهمّية ما يقوم به، ويحثّه على التحلي بالخُلق الكريم، والاقتداء بالرسول الأعظم في حياته، إلّا أنّ ما كان يضايقه أن يتحدّث عن عرّام بألم: صاحبك ليس في خلقك يا قارون فتجنّبه! صاحبك ماجن يغوي الخوادم بمشاركتهنّ الاغتسال في الشلّال معاً، ويمارس معهنّ الفسوق.

يحاول تهدئة غضبه، تلك تصرّفات شائنة إن بدرت منه، وإن كانت تصرّفات تخصّه، يحتدّ شنهاص: نحن يا قارون أحوج إلى التقرّب إلى الله بصالح أعمالنا، نحن في محنة ونرجوه العون، كيف تقول شخصيّة؟ فكّر قارون أن يسأله عمّا يُكلّف به، لكنّه اختار الصمت، ليواصل شنهاص: صاحبك يبثّ سموم كلامه، ودوماً يتّهمني بكلام غير لائق.

غادره في حيرة من أمره، يشتاق إلى عرّام، ولا يريد إغضاب شنهاص. وقد تأكّد له أنّ ما يدور بينهما أمر خطير، وأنّها ليست سحابة صيف كما كان يتمنّاها. وهو يلاحظ الشرخ يتّسع. وما زاد من ذلك أنّ شنهاص دعا الجميع إلى مساعدته على تشييد مسجد سمّاه مسجد «الصلاح». كان قارون يعرف أنّ دعوته لبناء مسجد تأتي ضمن حربه لعرّام ومحاولة استقطاب سكّان الغابة إلى صفّه. سريعاً ما

t.me/qurssan

تجاوب الجميع مع دعوته. وسارعت مجموعة بتسوية الأرض، وأخرى تكفّلت بتوفير ما يكفي من جذوع الأشجار القويّة، وثالثة بحفر الأساسات، ليظهر بعد أيّام مسجد جدرانه من الأحجار وجذوع الشجر وفروعها، وفي أول جمعة وقف شنهاص خطيباً بعدما ازدحم المكان بالنساء والرجال، داعياً الجميع إلى أداء الصلوات الخمس جماعة، شارحاً فضائلها، كما دعا الجميع إلى دروس حفظ القرآن الكريم التي سيعقدها بين الصلوات.

ظنّ قارون أنّ صاحبه سيستسلم، لكنّه فاجأه بتشييد كوخٍ على الحافة الأخرى لمجرى الشلّال، معلناً للجميع أنّ أبواب ذلك الكوخ مفتوحة لمن يرغب في مضغ القات والسهر معاً، ليروّج مؤيّدو شنهاص أنّ مرتادي ذلك الكوخ قاطعو صلاة، ويمارسون الرذائل. وكانوا يهدفون من ذلك إلى الحدّ من أعداد من يذهبون إلى ذلك الكوخ، لتأتي أقوالهم بعكس ما توقعوا، إذ ظهر كوخ يجاور كوخ عرّام، ثمّ ثانٍ وثالث، لتتجاوز العشرين كوخاً بعد أيّام عدّة. وأمسى سكّان الغابة منقسمين، وقد انشغل كلّ فريق بترصّد الآخر. كانت الخالة ناصية تتابع ما يدور منذ البداية. ورأت أن توجّه الدعوة للجميع، وقد اختارت مكاناً آخر للّقاء. وقفت تتّكئ على عصاها وقد غابت ابتسامتها التي لم تفارقها قطّ، خرج صوتها نائحاً: تصلكم أخبار ما يدور في الوادي، فتسمعون ما يفتي به أمناء مساجد القرى بشأنكم، وتسمعون ما ينصبه عقّال القرى من أعمدة أمام مساجد قراهم. وكأنّ أعمدة ساحة الحصن لا تفي بالغرض، وتسمعون تحريض الرعيّة على ملاحقتكم، فما تستنتجون من ذلك؟ الفواطم والعقّال لا يفعلون ذلك إلّا بأمر الحصن، الذي يسعى للقضاء عليكم. وهذا ليس الخطر الذي أعنيه، وما جمعتكم اليوم بشأنه، هو خطر يسكن في قلوبكم، فقبل أيّام أسقطتم هيبة الحصن بأعمالكم، وكسبتم الرعيّة إلى صفكم،

t.me/qurssan

واليوم أراكم تنفذون ما لم يستطع الحصن تنفيذه، وهذا هو الخطر الذي جمعتكم من أجله. فمن المعيب أن يحتدم الصراع بينكم، وتساعدوا الحصن في تحقيق أهدافه، وأنا أقول لكم إنّ الاختلاف رحمة، فإذا احترم كلّ فرد خيارات من حوله يرتاح ويريح، ويعرف أنّ الأهم ألّا نُخَوِّن أو نسفّه بعضنا بعضاً لمجرّد اختلافنا معه. أنا أمّكم جميعاً ولا أنتصر لأحد دون آخر، بل أدعوكم لمحبّة بعضكم بعضاً، وإلى التسامي والأخوّة، فهل تعون خطر ما تصنعون؟

أدرك شنهاص أنّ حديث ناصية موجّه إليه، وأنّ تشدّده سيجعله منبوذاً من الجميع بعد صوت ناصية، ففضّل المهادنة وإبداء اللين، وهو الأحوج إلى كلّ ساعد من سواعد الرجال والنساء، حتى لو كان بينهم فاسق وكافر، نهض متحدّثاً: «دعوة كريمة من خالة كريمة وحكيمة، وأؤيّد كلّ كلمة نطقتها، وبدوري أدعو لمن يقصّر في شعائر الله بالهداية، والله هو من يثيب ويمنع وله جنّة ونار، فكلنا إخوة وعلينا التعاون وشحذ الهمم في مواجهة رجال الحصن». أنهى كلمته القصيرة وتقدّم حاضناً عرّام، ليرتفع التصفيق من البعض والتهليل من آخرين. وبمرونته تلك استطاع أن يحافظ على وحدة الجميع، وأن يظلّ الأخ الكبير للجميع.

كان عرّام قد أخذ على خاطره من صاحبه قارون الذي يتجنّب الجلوس إليه منذ حين، وفي أول لقاء أخبره بما لا يعرفه: شيخك يا قارون كان قد كلّف غيري ليقود الهجمات على الحصن، رغم معرفتك بنجاح الهجمات التي زعزعت مكانة الحصن وأسقطت هيبته وكانت بقيادتي. فمن تراه مخطئاً؟ شيخك يريدنا قطيعاً في زريبته، لا نخطو خطوة إلّا بعد استئذانه، يعلمنا كيف نأكل وكيف ندخل بيت الراحة، وماذا علينا فعله، وماذا علينا تركه. وكما رأيته حين أدرك أنّه سيصبح وحيداً كيف غيّر من توجّهه، ومحاولته الظهور بمظهر الرجل الحريص

t.me/qurssan

على الجميع، بينما غايته هي استخدامنا لاسترجاع غرب الوادي، ليعود شيخاً على الرعيّة. شيخك يا قارون لا يختلف عن أيّ شيخ من أولئك المشايخ الذين تصادفهم وأنت تحمل الرسائل إليهم، يخفي تسلطه وطغيانه لأنّه اليوم بحاجة إلينا، وإنّ ما يتلبّسه من مسوح الورع والتقى ما هو إلّا لإيهام الجميع بالحرص على الفضائل.

فوجئ قارون بما يحمله عرّام، وهو الذي ظنّ أنّ محاضنتهما بعد دعوة الخالة ناصية أنهت الخصام، تلعثم قارون ولم يستطع الردّ على عرّام، ليضيف: إن أردت اليقين فدع كلامي وراقب أقواله وأفعاله. وستكتشفه بنفسك، لا يغرّك تمظهره. يا صاحبي أقوم بما عليّ القيام به وقد حدّثتك بتفاصيل تلك العمليّات، وحين أعود أظلّ أستعدّ لما أكلف به، أراه حرّاً في ما يخصّه، لكنّه ليس حرّاً حين يراني فاسد الأخلاق ناشراً للمجون.

تحدّث الشيخ بكلام لم يألفه الرعيّة في السابق: حضرت اليوم لأودّعكم وأعتذر لكم من تصرّفات ابني عبد الجبّار، فأنتم أبنائي، وهذا الوادي واديكم، وعلينا أن نحميه من العصاة المفسدين. كلكم تعلمون أنّ من يحرّكهم ويدعمهم من خارج الوادي، وتعرفون بأطماعهم وهم جادّون في زعزعة استقراره، ولذلك يمدّونهم بالسلاح وبالرجال، وتعلمون بأنّنا لا نريد قتال أحد. وإثباتاً لنيّاتنا الأخويّة ندعو أبناء وادينا جميعاً إلى العودة، وأشهد الله ورسوله أمامكم أنّي أعفو عنهم جميعاً إن عادوا، وأنذر كلّ من يرفض، فسنعلنها حرباً عليهم وعلى من يسيّرونهم، سنحمي وادينا، وأكرّر دعوتي لكم بالتلاحم والتآخي لقتال المرتهنين لإرادة الخارج، قال عز من قائل: «إنّ الله لا يحبّ المفسدين».

t.me/qurssan

هلّل الجميع، لينحدروا غائدين إلى قراهم، تردّد جبال الوادي صدى زوملتهم:

«لبيك يا شيخ البلاد، سلطان قاهر كلّ باغي، لك الوفاء بين العباد، يا صقر جارح للأعادي».

تنفّس الشيخ الصُعداء وقد عاد الأمل يداعبه بعودة الأمور إلى نصابها، فها هي أخبار نشاط العقّال يعدّون العدّة لتجييش الرعيّة، وقد خطب أمناء المساجد فيهم، مستشهدين: أنّ من يحارب الله ورسوله وأولي الأمر ليس منّا حتى لو كانوا من أولادنا أو إخواننا. وقد أمرنا عزّ وجلّ القائل في محكم كتابه «إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنفَوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم». والعديد من أوامر الله في كتابه العزيز وما تحدّث به الرسول تحثّنا على محاربة المارقين والعصاة، ومن يعيثون في الأرض فساداً، مردّدين أنّ الخارج عن طاعة الله ورسوله ووليّ الأمر عدوّ لله وجب قتله، واصفين من يتواصلون معهم بالمنافقين أشباه يهود خيبر.

ولم يطل الوقت حتّى حدّد مرداس يوم الهجوم الكبير على من في الغابة، فدُعي الرعيّة ليتجمّع خلق جديد أمام الغابة يستعدّون لاقتحامها.

سمعت شادن ذات مساء هسيس حركة، كان الليل قد انتصف وعمّت السكينة، ظنّته فأراً، أو قطّاً يبحث عن وليفته، لكنّ ذلك الهسيس تكرّر في ليالٍ أخرى، ترصّدت لمعرفة مصدر تلك الأصوات، لتعرف أنّها لأقدام حارسين يصعدان خلسة الدور العلوي ويهبطان خلسة مع اقتراب الفجر. وما عقد لسانها أن تكتشف سرّ صعودهما

t.me/qurssan

إلى الدور العلوي، بل تعرّفت إلى ملامح أحدهما. ودون أن تخبر زهرة باكتشافها، فكّرت أن تقنع زهرة بمحاولتها إغواء ذلك الحارس، درّبتها على حركات وإشارات الغزل والإثارة، لتترصّده من إحدى النوافذ المطلة على الساحة. فاجأها بتجاوبه مع إشارتها، اضطربت وفرّت لترتمي في أحضان شادن مرتجفة، تخبرها بأنّه ردّ عليها بحركات تماثل حركاتها، وأنّها لا تدري ما عليها فعله. قالت لها ضاحكة:

– بادليه.

صرخت:

– أبادله ماذا؟!

– ألم أعلمك كيف تستدرجينه... أن يأتي في المساء، ليلتقيك في الزريبة؟

ثمّ احتضنتها تهدّئ من روعها مشجّعة: لا تخافيه وواعديه الليلة.

نهضت زهرة صامتة. بينما كانت تتأمّل قوامها المخروطي فلم تجد فيه ما يغري، وكأنّه جسد صبيّ يافع، إلّا من بروز ضئيل في صدرها، قهقهت متسائلة:

– ما كنت أتوقعه يتحقق على يديك.

في صباحٍ شتوي امتلأت السهول المواجهة للغابة بجموع الرعيّة، خلفهم ربوة وقف مرداس يراقب الجميع وإلى جواره مستشاره زيد. وحسب الخطة أشار مرداس ببدء الهجوم، ليتوغّل القسم الأول من الرعيّة بين الأشجار، يمرّ وقت طويل ولم تُسمع أصوات الرصاص، أعطى الشيخ الإشارة لبقيّة الرعيّة، مرّ وقت آخر ولم يُسمع أيّ صوت، كان الأمر محيّراً، فلم يعد منهم أحد لينقل ما يدور، اقتربت الظهيرة ليلحق جبّار ورجاله حسب الخطة، مضمراً حصد أرواح من يرتدّون أو

t.me/qurssan

يخونون من الخلف ببندقة الـ«الكلاشنكوف» التي اشترى مرداس عدداً منها خصّيصاً لهذه المعركة الحاسمة.

صعدت نساء القرى المحيطة على أسطح المنازل يتابعن ما يـدور، وكانت تُرى حركة متواصلة على أسطح الحصن رغم بعده. شبرقة لم تبرح حجرتها راكعة على سجّادتها، وفاطم من نافذتها، وعيشة وبقيّة النساء من خدم الدور على الأسطح.

وقد ضمّت شادن أمّها إلى صدرها تنتحبان بينما زهرة تبكي وقد جثت في جوارهما، لم يكن ذلك اللقاء إلّا نتاج لحظة مغامرة من عيشة وقد رأت أن تكافئ أمّ عيشة لقيامها على مدى سنوات بتعليم ابنها جمال الذي سافر قبل أسابيع قليلة. بعد أن ظلت تفكّر في مكافأتها، وقد احتارت في نوعيتها وإن تمنّت لو أنّها تستطيع منحها حرّيتها. تقف دامعة ترقب بحزن ذلك الموقف، وقد وقفت بقيّة الخادمات دامعات.

لم يكن لأحد معرفة ما يدور بين شعاب الغابة من الصباح حتى الظهيرة، وجاء من يبشر بأنّ الرعيّة تقدّموا حتى وصلوا إلى أعماق الغابة دون أيّ مقاومة... وظلّ الأمر غريباً. وفجأة يرتفع دويّ الرصاص وتتصاعد أعمدة الدخان من أشجار تحترق، كان الوقت يمرّ والجميع خارجاً ينتظرون تفسيراً لما يـدور، لتطلّ الفاجعة دفعة واحـدة، أن تفاصيل الخطة قد تسرّبت رغم سرّيتها، وبدأت تفاصيل مروّعة تصل إلى مسامع مرداس مع سيل من المصابين، ليعرف أنّ القسم الأول من الرعيّة ما إن تعمّقوا في الغابة حتى انشطروا يميناً وشمالاً عن مجرى الشلّال، وكأنّهم أفسحوا لمن يليهم، ومع دخول القسم الثاني والأخير من الرعيّة لم يجدوا أيّ عائق في تقدّمهم فضلّوا حتى وصلوا إلى أعماق الغابة، ليجدوا أنفسهم مكشوفين يحصدهم رصاص لا يعرفون مصدره. وصلت إلى جبّار أخبار ما يـدور. في البداية ظنّ أنّ القسم الأول

t.me/qurssan

قُضي عليه، لكنّه سريعاً ما اكتشف اللعبة ليأمر رجاله بعدم التقدّم وبملاحقة الخونة الذين فرّوا يميناً وشمالاً، فتوزّع القتال في محورين، جبّار ورجاله يلاحقون الخونة، ورعيّة الدفعة الثانية يقاتلون منفردين العصاة المتخفّين بفروع وجذوع الأشجار. وكانت الطامّة أن أصيب جبّار برصاصة أسفل بطنه. انتشر الخبر بين الرعيّة لتنهار صفوفهم ويتشتّت كثير منهم وسط الغابة مخلّفين قتلى كُثراً. حُمل جبّار على أكتاف رجاله خارج الغابة، مُدّد أمام والده، الذي ركع متفحّصاً موضع الرصاص، أدرك أنّ ابنه نجا من الموت بأعجوبة، لكنّه سيعيش بقيّة حياته طريح الفراش لا يقوى على تحريك نصفه السفلي، ولن يعيش حياته بكرامة، قرأ جبّار نظرات والده الذي كان ممسكاً بفوهة بندق، يستجديه بنظراته الخلاص، أومأ له ليقرّر الاستجابة لنظراته، أغمض عينيه لحظتها وترك إصبعه تسحب زناد بندقه، دوّت رصاصات مزقت صدره. وسريعاً ما انتشر خبر مقتل عبد الجبّار على يد والده.

لحظتها سكن مرداس خوف تلك السهول وقد تجمّع من بقي من الرعيّة حوله، ليشير عليهم بما يجب عليهم فعله، ثمّ وقف يتابع ابنه محمولاً على أكتاف رجاله الماضين به نحو الحصن. لحظتها أقسم مرداس أنّه لن يبرح المكان حتى يأخذ بثأره.

تصعد أم قارون إلى سطح بيتها بُعيْد مغيب كلّ نهار، تصيخ السمع كأنّها على موعد معه، وقبل أن تغفو تأتيها كلماته «دعي الباب مفتوحاً حتى لا أزعجك إذا ما عدت متسللاً». تنهض وتترك الباب مواربا. يطربها صدى رنّة صوته، ضحكته التي تعاودها منذ غادرها.

تستيقظ على صوت صاحبتها مع شروق الشمس:

– صباح المحبّة يا أمّ قارون.

t.me/qurssan

تردّ عليها الصباح هابطة تستقبلها، تخبرها في عجالة: جبّار ابن الشيخ قُتل!

– لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

– الناس يتحدّثون منذ البارحة بأنّ الشيخ قتله.

لم تصدّق، تردّد:

– الشيخ يقتل ولده؟!

– اقتصّ ربّ العباد لك ولغيرك!

– أستغفر الله، قلبي على أمّه. لم تكمل حتّى صعدت غصّة غيّرت صوتها، ما لبثت أن تحوّلت إلى بكاء متّصل وقد غطّت وجهها بغطاء رأسها تهتز وهي تردّد كلمات متداخلة، لا تدري أتبكي شبرقة أم تبكي نفسها.

عرّى الشتاء ما بقي من أشجار البن والقات وأمست تلك المساحات جافّة، كما هي أشجار الجبال، ذلك ما ظلّ يلاحظه زيد وهو مقيم إلى جوار الشيخ أمام الغابة. وظلّ الشيخ معانداً بالبقاء حتى يأخذ بثأر ابنه رغم تناقص أعداد الرعيّة من حوله بعد الهزيمة. يحاول زيد إقناعه بالعودة إلى الحصن. يشعر مع تكرار محاولته بأنّه يحرث في صحراء، ينبّهه: أتنتظر حتى يخرجوا ببنادقهم علينا؟ فلا يلقى إلّا الصمت، ما جعل زيد يبحث عن وسيلة للانتقام. ومع خروجه من المخيّم كلّ صباح يلاحظ أنّ من يفلح الأرض جلّهم من النساء، والقليل من الرجال. في تلك اللحظة سأل نفسه: لماذا لا نستعين بهنّ في حربنا ضد العصاة وهنّ كثيرات؟ كانت الفكرة تعتمل في ذهنه حين طرحها على الشيخ:

– لماذا لا تقاتل النساء من في الغابة؟

ردّ عليه مستغرباً:

t.me/qurssan

– النساء يحاربن؟! هنّ لا يُجِدن سوى الاحتطاب.

– ألا ترى أنّ المعركة الأخيرة قد أهلكت نصف رجالنا، ولم يعد لنا من حيلة.

– أجننت؟ ماذا ستقول عنّا القبائل؟

– وماذا قالت القبائل ونساء العصاة يحاربن معهم؟

– لم أسمع بذلك.

– أتريد الانتقام أم كلام القبائل؟

– الانتقام!

صمت زيد، ثمّ سار خطوات إلى جوار الشيخ خارج المخيّم يجيل النظر في أنحائه، ثمّ عاد صدى كلمات الشيخ «النساء لا يُجِدن سوى الاحتطاب» لحظتها لمعت في رأسه فكرة ليسأله:

– ألا ترى الأشجار وقد جفّت؟!

– وما هو الجديد.

– ألم تقل إنهنّ لا يُجِدن سوى الاحتطاب.

– نعم.

– ماذا لو جمعنا نساء الوادي وهنّ كثيرات، ومن بقي من الرجال، وألزمنا كلّاً منهم بإحضار خمس حزم كبيرة من الحطب.

– ثمّ ماذا؟

– يراكمون حزم الحطب حول جذوع أشجار مداخل الغابة.

– أتقصد لمنع العصاة من الخروج!

– هكذا سيبدو الأمر للجميع.

– وما الهدف إذاً؟

– نرسل الرجال لجلب براميل القاز.

– تكلم ولا تقطع.

t.me/qurssan

– يُصبّ الكاز على ركام الحطب المرصوف، ثمّ نشعله دفعة واحدة.

– أتريد إحراق الغابة؟

– وإلّا فكيف تريد أن تأخذ بثأرك، ألا تعرف أنّ معظم الرعيّة قضوا وسط الغابة، وأنّ من بقي لم يعد لديهم أيّ حماسة لحمل البنادق.

– أيُعقل أن ننجح؟!

– شريطة أن نشيع أنّنا نريد سدّ المنافذ حتى لا يتسللوا إلينا.

– الله أكبر عليك.

– أوننتظرهم حتى يخرجوا لقتلنا؟

ضحك مرداس ضحكته الأولى منذ قُتل جبار وقال:

– ولا الشيطان الرجيم يذهب إلى ما ذهبت إليه.

– ألم تقُل لي قبل فترة «أتنتظر حتى يصلوا إلى بيتك»؟

– نعم.

– وطالبتني برجال يحاربون؟

– نعم.

– ها نحن نحارب معك.

– الآن أدركت حكمتك.

– وأنا على يقين بأنّهم يعدّون العدّة ليلاحقونا إلى بيوتنا.

– صدقت.

– إذن، الحرب خدعة.

كان من في الغابة مثخنين بما فقدوه من الرجال، إضافة إلى من أصيبوا ومن بينهم شنهاص الذي اخترقت ساقه عدّة رصاصات، فاضطرّ للمكوث في زاوية مسجده الذي تحوّل إلى منامة للجرحى.

t.me/qurssan

اهتمّت ناصية بتطبيبهم يساعدها عدد من النساء، وقد انشغل البقيّة بدفن من قُتلوا من أصحابهم. أشارت عليهم الخالة ناصية بدفن القتلى من الرعيّة قبل أن تتحوّل جثثهم إلى طاعون يأتي على الجميع.

كانت أخبار مرداس ومن معه تصل إليهم، ما حفّز من في الغابة على المطالبة بالخروج للقضاء عليهم، إلّا أنّ شنهاص طلب من الجميع إعداد العدّة وعدم التحرّك حتى يُشفى بقيّة المصابين. وحينها يُبلّغ مناصروهم من الرعيّة بموعد الخروج.

تتالت أخبار مريبة بأنّ جميع نساء الوادي كُلفن بجمع حطب ويراكمنه على مداخل الغابة، وانتشر الخبر بأنّ مرداس ينوي سدّ منافذ الغابة حتى يمنع العصاة من الخروج، لكنّ جميع من في الغابة تناولوا الأمر كطرفة.

استمرّ نشاط النساء يغطّي تلك السفوح والسهول وقد تحوّلت إلى مسرح واسع تعجّ كيوم الحشر بالنساء اللواتي يعملن فؤوسهنّ في الأشجار الجافة، وجموع يقدن دوابهنّ المحمّلة، تُسمع أغانيهنّ من كلّ الجهات، وتكفّل الرجال برصّ تلك الحزم. خلال أيّام ارتفع جدار مشوّه يستند إلى جذوع أشجار الغابة، كان منظره غريباً ومضحكاً.

بعد أيّام من بدء جمع الحطب، وصل عاقل قرية المنحدر يخبر الشيخ أنّ مجموعة من النساء رفضن المشاركة، هامسات بأنّه ينوي حرق من في الغابة، جُنّ جنونه مرسلاً مجموعة من الحرّاس لقطع لسان من يثبت أنّها تتفوّه بتلك الأكاذيب. وما إن وصلوا إلى قرية المنحدر حتى كانت البنان تشير إلى اتّجاه بيت أم قارون، التي احتمت على سطح بيتها رافضة الامتثال، وقد وقفت إلى جوارها مجموعة يؤازرنها. علم الحرّاس بأنّها زوجة قاتل عنصيف، ليتبرّع

t.me/qurssan

أحدهم موجّهاً رصاص بندقه إليها، فخرّت صريعة، مؤجّلاً قطع لسانها إلى وقت آخر. خشي الشيخ من أمر تلك الشائعة ليأمر رجاله برشّ الكاز ليلاً، شوهدت ألسنة النيران من أنحاء بعيدة تتصاعد، ومع شروق الشمس هبّت رياح سريعة أجّجت النيران ودفعتها باتجاه الغابة، وأخذ يُسمع لها دويّ مخيف شبيه بأنينٍ راقص، ومع انتصاف النهار كانت الرياح قد فرّقت ألسنة اللهب إلى أعماق متفرّقة. حلّقت أسراب الطيور عالياً متفادية سحب السخام العملاقة، ومع اقتراب نهاية النهار انتشرت رائحة الموت في الأرجاء. وشوهدت قطعان الأرانب والربّاح وحيوانات أخرى تفرّ في كلّ اتّجاه. غربت شمس ذلك النهار وبدت أجزاء واسعة من الوادي يضيئها اللهب، وانعكس ضوؤها على حوائط الجبال البعيدة، صعدت شمس اليوم الثاني ليشهد التحام أعمدة الدخان بسحب السماء، من أنحاء الغابة كانت روائح شواء تنبعث، قيل إنّها روائح جذوع أشجار معمّرة، وقيل إنّها أرواح لكائنات التهمتها النار، ولثلاثة أيّام ظلّ الدخان يدور في دوّامات كعرائس الجنّ. لم يستوعب من تابع الحريق ما يدور، ليمتزج في النفوس هول وفجيعة تلك المناظر المرعبة، الجميع يتساءلون كيف يغفر الله لمثل تلك الأفعال؟ ولا يملكون إلّا الدموع للمجهول.

ما أدهش زهرة وأبكاها أنّ شبرقة وابنتيها قَدمن إلى حيث شادن ليعزّينها في والدها، ثمّ فوجئن بحضور عيشة وقد اصطحبت والدة شادن، لم تكن الدموع لتكفي ولا النحيب، تكثّف لحظتها الحزن والأسى، وتصاعدت مشاعر بزخم لم يسبق له مثيل، الكلّ مكلوم يواسي بعضه بعضاً، ولم تتغيّب غير فاطم، تداري أحاسيس لا أحد يعلمها. طيلة تلك اللحظات ظلّت زهرة تنتظر من شبرقة التفاتة، أن توجّه إليها كلاماً انتظرته منذ فقدانها أمّها، لكنّ الوقت مضى دون

t.me/qurssan

أن ترفع ناظريها في عينيها، وقبل أن تنصرف طلبت من شادن أن تصعد وبقيّة الخدم ليبقين إلى جوارها لمساعدتها في أمر أرادت أن تقضيه.

وسريعاً ما ازدحمت دار شبرقة بالخادمات، وقد وقفت توجّههنّ: يجب ترتيب الدار قبل عودة الشيخ، يجب أن تبدو في أجمل حللها، وأن تجهّزن مائدة عشاء متنوّعة، لقد آن الأوان لكي يعود إليَّ، هيّا قمن بما يجب عليكنّ صنعه. الليلة سيحلّ المنتصر بيننا.

تحوّلت الدار إلى خليّة نحل بعد أن توزّعن أعمال الطبخ، وترتيب حجرة الطعام، وتنظيم سلّم الدار من بابه الأسفل حتى الدور العلوي، جميعهنّ انشغلن، عدا شادن التي لم تستوعب الأمر، لتدعوها شبرقة وتختلي بها في حجرة جانبية. كانت زهرة تتذكّر تلك الحجرة منذ صغرها التي لا يدخل إليها أحد عدا شبرقة، وقفت زهرة تنتظر عودة شادن، وعند خروجهما التفتت إليها شبرقة فجأة وكأنّها شعرت بما يجول في عقل زهرة، وقالت لها:

– وأنت يا زهرة، تحرّكي ولا تشغلي بالك بغير العمل!

دُهشت لجملتها التي بدت كأنّها تكمل جملة بُترت. أردفت حين لاحظت حيرتها: والآن عليك اللحاق بشادن، وبعدها سأجلس إليك ونتحدّث معاً.

لم تصدّق ما تسمعه، تحدّث نفسها: لست في حلم، فها هي أمامي. تحرّكت مذهولة تتبع شادن، لا تعرف ما عليها فعله، وظلّ صوتها «وبعدها سأجلس إليك ونتحدّث معاً» يتردّد وقد غمرت عينيها الدموع. وما إن لحقت بها حتى أمسكت بكفّها تهامسها:

– اسمعيني، علينا إنجاز ما كلفتنا به!

تحدّثها مرتجفة، بينما زهرة انشغلت بكلمات شبرقة.

– لقد سمعتها تعدني بأنّها ستجلس إليَّ!

t.me/qurssan

– اتبعيني بصمت واتركي الثرثرة.

قبيل مغيب الشمس سار موكب الشيخ، تـراه شبرقة على حصانٍ أكحل، يتقدّمه قارعو الطبول، ويظهر إلى جواره مستشاره زيد الفاطمي، يتوقف بين فينة وأخرى ملتفتاً فيتوقف من حوله ليتأمّلوا بقايا أعمدة الدخان تلهو بها الريح، وأخرى تعلو في دورانها حتى عنان السماء. يبتسم لمرآها مغتبطاً، ثمّ يشير بالمضيّ قدماً، يلحظ سهول الوادي وقد أجدبت، تصطدم نظراته بالمساحات المحروقة، يصطنع ابتسامة، موجّهاً حديثه إليها: غـداً ستُروَين وتعود أغصانك تحمل الخير، فلم يعد ثمّة مخرّب أو عاصٍ بعد اليوم!

حاذى الركب طولقة السوق، عندها شكّل الجمع دائرة راقصة، هبط الشيخ ممتشقاً جنبيّته ليشارك دائرة رقصهم، رافعاً ناظريه إلى الحصن، ليرى جدرانه السامقة. يشير متشوّقاً إلى من حوله بمواصلة السير صعوداً، تخرج نساء قرية المنحدر يرقصن أمام موكبه، لتتسلّل خيوط البخور بين الجموع، وتعلو زغاريدهنّ، تعود إليه مشاعر النشوة وقد ظنّ أنه افتقدها منذ سنين، تولّد لديه إحساس بأنّ كلّ ما حوله يشاطره فرحته، وأنّ جبّار ينام قرير العين. ما إن وصلوا إلى أطراف ساحة الحصن حتى أشار مخاطباً أنقاض ضريح جدّه الأكبر: غداً تعود لك مهابتك وتعلو جدرانك من جديد.

دخل من بوّابة الحصن ليرى شبرقة وقد وقفت لاستقباله وسط جمع من خادماتها، لم يتردّد حين هبط ووجهه ينضح بالسعادة، دنت شبرقة تقبّل ركبتيه كما كانت تفعل، أمسك برأسها ورفعه ليرى وجهها باسماً مستبشراً، هامسته: أنتظرك لأهنّئك بنصرٍ طال انتظاره. طغت الزغاريد من حولها وقـد أمسكت كفّه بـدلال، واقتربت من أذنه: وأدعوك لزيارتي ولو للحظات، وسأتركك بعدها لتمضي إلى حال سبيلك.

t.me/qurssan

ابتسم مشيراً إلى من حوله يستأذنهم في حبور. دخلا باب دارها متشبّثاً بمعصمها، صاعداً بتثاقل إلى جوارها درجاته الحجرية، ليكتشف أنّه نسي بعض تعاريجها. وصلت به إلى حجرة واسعة يعرفها جيّداً، فقد كانت لسنوات خلت مسرحاً لسعادتهما، استدار يتأمّل عمره في أركانها، ثمّ أجلسته بين ابنتيه:

– يا لسعادتي. كانت تلك الكلمة هي أولى كلماته وهو ينقل عينيه بين وجهيهما.

بعد وقت من الكلمات دعته شبرقة إلى مائدة حرصت على أن تحتوي ما كان يفضّله من أصناف الطعام. رفع كفّه: أكاد أموت ظمأً، هل لي بشربة قبل الأكل؟ أشارت على شادن في حبور بإحضار ما يشربه، وما هي إلّا لحيظات حتى عادت تحمل إبريقاً وكأساً مترعةً بالشراب.

كان ضوء النهار قد أفل، ودُخان المباخر يزيدها إعتاماً. لم يتوقع كلّ تلك الحفاوة من شبرقة وهي التي جافته في آخر زيارة له قبل سنوات ولم تبالِ بدموعه، عاهد نفسه يومها ألّا يطأ لها داراً قطّ، لكنّه اليوم يحنث بعهده بعد أن هبطت في استقباله.

وقفت في جواره ببشاشة، تمدّ له بِرقّة متناهية كأسها، التقطها بفرح طفولي هامّاً بارتشافه، فجأة علا صوت صارخ: لا تشرب، إنّها مسمومة.

كادت الكأس تسقط من بين أصابعه وقد التفت مرتبكاً لتستقرّ نظراته على وجه صبيّة تقف مرتبكة، تشاءم ممّا هو فيه. ثمّ التفت إلى شبرقة، لتصافح عيناه عينيها وبدت نظراتها حادّة، التفت إلى ابنتيه بذهول، ينقّل نظره في وجوه من حوله، ثمّ عاد مخاطباً شبرقة:

– هل ما تقوله تلك المجنونة صحيح؟ ظلّت صامتة وقد تصلّب طولها، أردف بتهكّم: أبعد كلّ هذه السنين أموت مسموماً على يديك؟

t.me/qurssan

ثمّ رفع الكأس ليرى سائلاً أحمر شفافاً، قرّبه من أنفه، تمتم: لا تختلف رائحته عن أيّ شراب. فكّر أن يتذوّقه، ثمّ عزف عن ذلك، ورفع صوته منفعلاً: لماذا يا شبرقة، قولي لي لماذا؟ أمسك بذراعها مواصلاً تساؤلاته: لا أصدّق ما يدور، وعليكِ أن تشربي ما أردتِ أن تسقيني إيّاه.

قال لها وقد قرّب الكأس من فمها، ظلّ شاكّاً في أن يكون ذلك السائل مسموماً. أمسك برقبتها صارخاً: هيّا اشربي. ارتشفت الرشفة الأولى لترسم ملامح وجهها الطويل اشمئزازاً، ثمّ فجأة أطبقت على كفّه ممسكة بالكأس تعبّها بشراهة ورغبة جامحة، كانت ردّة فعل مرداس منعها، لم يستطع رغم محاولته انتزاع الكأس، مضت حتى أفرغتها في جوفها.

زاد جمع النساء اضطراباً، وارتفعت أصوات الترقب، وللحظات لم يظهر عليها ما تجرّعته، وظلّت تقف متماسكة، ثمّ رفعت عينيها إلى عينيه، وقد بدت شكوكه حيال ذلك الشراب تتزايد، ناظراً في وجوه من حوله بتوجّس، بينما أخذت تدور حوله وعيناها تقدحان غضباً. بدأت بالحديث إليه بصوت هامس: وتسألني لماذا؟ كان على أحدنا أن يرحل منذ سنوات، وها أنت تفضّلني بعد أن كنت أفضّلك أن ترحل، على الرحب يا مرداس، سأرحل وأرتاح من عذابك. مثلك لا يسأل، أم أنت نسيت هجرانك لي كلّ هذه السنين، وجعلتني في هامش الحياة، أتذكر أنّك بدأت بقتلي يوم قُتل ابني عنصيف، ولم تشعر بذلك. قد تقول إنّك لم تقتله، وأجزم بأنّك قاتله، نعم قتلته بتواطئك وتشجيعك له على انتهاك أعراض الناس، سلّمته للموت. ويوم تحرّكت لتقتصّ من قاتله، لم تكن صادقاً بل راوغت تقايض بدمه، ولم تكتفِ بذلك بل تزوّجت بعدها بأيّام، ولم تكتفِ... وتزوّجت الثالثة إمعاناً في إهانتي وإذلالي، واليوم تقتل جبّار، أتتذكّر

t.me/qurssan

يوم ركعت بين يديك متوسّلة أن لا تشجّعه على تهوّره، نهرتني ساخراً «الشيخ إن لم يتعلم في رعيّته ففيمن يتعلم؟!».

أيّ قلب تحمل وأيّ مشاعر تسكنك؟ وها أنت منذ صعدت إليَّ لم تتفوّه بكلمة تجبر خاطري في ابني، بخلت عليَّ حتى بكلمة حانية. وابنتاك هاتان اللتان تجلس بينهما، انظر إليهما، أتعلم بأنّهما تجاوزتا الأربعين وخالط الشيب رأسيهما، لم تواسِهما هما الأخريين في موت من بقي لهما، بعدما ظللت طول عمرك ترفض تزويجهما، خوفاً ممّن يأتي يرث أرضك وحصنك؟! وبنو عمّك جرّدتهم من أملاكهم الواحد تلو الثاني، وحشرت من رفضوا في دار لا يصل إليهم أحد. واليوم تعود منتشياً وقد أحرقت الشجر والحجر، ألا تخشى الله الذي سيسألك يوم لقائه عن كلّ نفس ظلمت، وكلّ روح قتلت، وكلّ دم سفكت، كم ستكون قدرتك؟ النار تشبع وأنت لا تشبع يا... فجأة تلعثمت كما لو كانت اختنقت بلسانها. ولم تكمل جملتها بعدما تهاوت أرضاً، ركع مرداس مرتبكاً ينظر إلى وجهها وهي تحاول النطق، وقد جحظت عيناها ناظرة إليه، وقد ارتعشت أطرافها، تركها ووقف ينظر بذهول إلى من حوله، ثمّ سار باتجاه الباب دون أن يلحق به أحد، هبط وسط ظلمة السلالم الحجرية يرافقه صوته المنتحب، في الوقت الذي كانت فيه ابنتاها تحاولان إفراغ ما في جوفها، لكنّ السمّ كان قد استشرى في عروقها، وأخذ فمها يسيل بزبدٍ أبيض مائل إلى حمرة فاتحة. سريعاً ما انتشرت بقع دكناء على أطرافها ووجهها، ولم تصمد كثيراً حين أسلمت الروح، مفسحة المجال لأصوات النائحات في ما بقي من الليل.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

زهرة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مسّ حياة الحصن جمود مبهم بعد رحيل شبرقة، وأمسى شبيهاً بتابوت حجري، فالحبس خاوٍ، ومجارش البنّ مهجورة، والمخازن مهدّمة بعد الحريق، والساحات صامتة إلّا من أصوات قلّة من الحرّاس، ومرداس يجالس نافذته المطلة على امتداد الوادي غرباً، ينادم الجفاف الطاغي، والقرى المهجورة إلّا من النساء وقلّة من الرجال يتحرّكون في هوامش الوادي. تتمرّغ ذاكرته في الأمس القريب، يسمع صدى صوت جبّار يتردّد، يراه يصول ويجول وقد ذكّره بشبابه وذلك الأمل الذي كان يتّقد من عينيه. واليوم يجد نفسه يجالس وحدته، يجترّ ذكرياته، لا يعرف من أين بدأ الخلل، ومن قاده إلى ذلك المصير؟

سمع طرقات على الباب، التفت ليرى إطلالة وجه فاطم الصبوح:

– مستشارك يستأذن للسلام عليكم.

يهز رأسه بالموافقة دون أن يتفوّه. يرى زيداً محاولاً إخفاء قامته القصيرة، بعمامته الطويلة، التي يبدو وجهه مضحكاً تحت وطأتها، يسابقه كمّاه الفضفاضان، وابتسامته المراوغة:

– السلام عليكم.

t.me/qurssan

نهض مـرداس بتثاقل، فـارداً ذراعيـه مغمغماً بكلمات غير واضحة. أردف زيد: تبدو في حال أفضل.

– ما دمت إلى جواري فأنا في أحسن حال!

محاولاً شدّ عزيمته:

– لماذا لا تنفض غبار الكسل؟ أبعد أن أزلت ما كان يهدّد الوادي تهجره؟ رعيّتك بحاجة إليك، هيّا للخروج والطواف في أنحاء واديك.

قال ما قال وفي سريرته يتمنّى ألّا يخرج أبداً.

– أيـن أطـوف؟ أراه مـن هنا طـوال الـوقـت، ثـمّ عـن أيّ رعية تتحدّث؟

لوى بعنقه مشيراً إلى الـوادي وأردف: انظر، لم يعد غير قلّة من النساء!

ردّ زيد لأول مرّة بصيغة الجمع:

– أنترك الوادي هكذا؟!

– على يديك، أشر عليّ.

– أن نجلب أجراء جدداً.

– عليك بذلك.

حاول إخفاء سعادته بما يسمعه:

– هو عمل شاقّ، لكنّ ما تراه سأقوم به.

– فليكن، ها أنا أكلفك.

حاول مـداراة ارتباكه، وأن يظهر بمظهر المخلص الذي تعوّد أن يوحي به له، بينما ظلّ لسنوات يحلم بتجاوز صفته كمستشار، لا يتجاوز عمله تدوين ما على الرعيّة من عوائد الأرض. واللحظة يرى نفسه سيّداً للوادي، وكلمته على الرعيّة ماضية.

t.me/qurssan

نهض مودّعاً، يرى ما حوله مختلفاً عن كلّ يوم، ظلّ تلك الليلة يرتّب أفكاره، يضع تصوّراً ليصبح الأجراء تابعين له. جمع أولاده يبشّرهم بفتحه الجديد: ربّيتكم على معرفة قدركم بين الناس، نحن من سلالة أطهر خلق الله، ومن نعيش بينهم من الرعيّة وغيرهم سخّرهم الله في محبّتنا، بهم يمنحنا الله سعادتنا. واليوم أبشّركم بأنّ الله مَنّ علينا بعطايا جديدة، فخير هذا الوادي إن شكرنا سيكون لنا، لقد منّ علينا به بعدما كان مرداس هو من ينهل من خيراته، ولا يبقي لنا إلّا فتات الفتات، من الغد ستذهبون جميعاً لجلب رعيّة جدد، سيكونون مسخّرين لكم. وبعد ذلك ستتوزعون أعمال مخازن الحصن ومجارش البنّ، والإشراف على الرعيّة، وعلى مزارع البنّ والقات، وعلى بيع ما تنتجه تلك المزارع.

وزَّع زيد أبناءه في كلّ اتّجاه، وأوصاهم بانتداب من يرون فيهم العافية والحاجة للعيش والقدرة على العمل. ولم تمرّ أيّام حتى تقاطر خلق جدد، ليواجه زيد مشكلة الأرامل، استطاع حلّها بتزويج القادرات على العمل ببعض الأجراء الجدد، فمن كانت لديه زوجة أصبحت اثنتين، وطرد العاجزات، ليلجأن إلى أدرام «الأخدام» متسوّلات.

ابتسم مرداس وهو يتابع تزايد حركة الرعيّة، تكحّل عينيه خضرة يتّسع حيّزها يوماً بعد يوم، ليبدأ فصل ربيع تلك السنة وقد وجدت الريح في طريقها ما تداعبه. فاتح زيداً بأنّها أعادت إليه بعض السعادة، لكنّه لم يفطن إلى أنّ مستشاره يطمح لما هو أكثر.

بعد أشهر من الحريق الكبير وصلت مجموعة من عسكر صنعاء، للتحقيق في بلاغات تفيد بحريق أتى على عشرات الرعيّة، كان الحصن يعرف أنّ البلاغات من مشايخ الأودية المجاورة، لكن دهاء زيد استطاع تطويق الأمر بعدما استضافهم الحصن لعدّة أيّام،

t.me/qurssan

عادوا إلى صنعاء محمّلين بالهدايا، وقد تأكد لهم أنّ الحريق نتيجة عبث بعض الرعاة، وقد أتى على أشجار جافة وعلى حيوانات الغابة من قرود ومفترسات. تردّدت أخبار تؤكد نجاة عدد من الفارّين، وقد رآهم البعض يتنقلون بين الأودية المجاورة.

تلك الأخبار جعلت زيد في ذعر شديد، ليرسل من يتتبّع تلك الأخبار متمنّياً أن تكون أكاذيب مغرضة. عاد من أرسلهم بصحّة ما يتناقله الناس، مؤكّدين أنّ بينهم الشيخ شنهاص الذي يطلب العون من مشايخ تلك الأودية، ليرى زيد أحلامه تنهار. وظل طوال أيّام يفكّر في ما طرأ. ثمّ رأى أن يُقنع الشيخ مرداس بضرورة الخروج للطواف في الوادي وتفقد أحوال الرعيّة. كان مرداس قد وجد سلوته في السكينة التي اتبعها منذ موت شبرقة.

في صباح مشمس خرج الشيخ محاطاً بصفوف رعيّته الجدد، بعد إلحاح زيد وتهويله بتحرّكات شنهاص بين المشايخ، تستقبله مباخر نساء القرى وزغاريدهنّ الخجلى.

وبإيعاز من زيد يتسابق الرعيّة لاستضافته، فما إن يقترب ركبه من إحدى القرى حتى يدوّي الرصاص، وتُذبح الذبائح تحيّة لمقدمه. وهكذا ظلّ تنقله من قرية إلى أخرى لأكثر من ثلاثين يوماً. يتحدّث إليهم عن مؤامرة تحاك عليهم، وأنّ شرذمة من المارقين يتسوّلون موائد مشايخ تقودهم أطماع على الوادي. حرص زيد على أن تصل أخبار جولة مرداس إلى الأودية المجاورة، وكان على يقين من تأثيرها.

وفي طريق عودته مرّ به زيد على هجرة الفواطم هامساً في تذلّل متصنّعاً الانكسار وهو يشير إلى مقبرة واسعة: هناك يرقد المهاجر جدّنا. وكما ترى، المكان تطاله البهائم، وأتمنّى موافقتكم الكريمة على نقل رفاته إلى مكان لا تصل إليه الهوام.

ابتسم الشيخ وقال:

t.me/qurssan

– في مثل هذه الأمور لا تستأذنوا!

لم يكن هناك قبر بعينه أشار إليه زيد وقت الحديث للشيخ، ولا يعرف أحد أنّ هناك قبراً لمهاجر كما وصفه زيد. ولم يفطن الشيخ إلى أنّ زيداً انتزع موافقته على بناء مزار.

عاد مرداس إلى حصنه، يشغله التفكير في حال الوادي وقد أصبحت تلك البقاع والقرى غير ما كانت بالأمس، يفكّر في جدوى ملاحقة من بقي من الناجين، وإن ظلّ حقده على شنهاص مقيماً في أعماقه، يتمنّى أن يراه يوماً ذليلاً موثقاً على أحد أعمدة الساحة.

لأيّام لم تتحدّث شادن إلى زهرة، فبسبب حماقتها ماتت شبرقة، تلوم نفسها حين أسرّت إليها بما كلّفتها شبرقة. لكنّها تغفر لها بعدما وصلتها أخبار نجاة والدها، شملها شعور بالغبطة، يعاودها حلم الفرار لتلتقيه، تساعده على مقاتلة الحصن، ليعود منتصراً لبناء دارهم في الجفنة.

لم تُظهر شادن فرحتها بتلك الأخبار، وتصنّعت انهماكها في أعمالها، وقد أرسلت زهرة تحذر والدتها بكبت سرورها وأن تظهر عدم اكتراثها بنجاة والدها.

ما إن يسكن الليل حتى تغلق شادن باب حجرتها وتتحوّل إلى كائن آخر، تتبرّج وتتزيّن وكأنّها عروس ستُزفّ إلى عريسها، لم تعد زهرة تفهم تلك التغيّرات، تقول لها ضاحكة: أريد يوم أفرّ أن أكون في ثياب العرس، لا أريد أن أخرج في ثياب خادمة. أزور قبر زوجي وقبر ابني.

تكمل حديثها لتشملها نوبة بكاء حتى يسرقها النوم. وليلة بعد أخرى يزداد حديثها عن أحلام الفرار، تبوح بما يعتمل في رأسها، تتمنّى عليها مساعدتها لتحقيق حلمها، تطلب منها أن تعاود مواعدة ذلك الحارس، وأن توحي إليه بمحبّتها.

t.me/qurssan

وسط ظلام الزريبة وقفت زهرة ترتجف، لم تكن تسمع إلّا همسه، يستحثّها على الحديث، لكنّها فضّلت الصمت وقد زاد من ارتعاشها إمساكه بكفّها، اقترب زفير محموم يلفح وجهها. تمنّت لو أنّه استمرّ في همسه. أنساها ما أوصتها به شادن، ولم تعد تعي ما عليها قوله. انتفضت حين حاول احتضانها، وهو يواصل همساً غير مفهوم. تذكّرت ما قالته لها شادن، تركته يحتضنها في البداية، يقبّل وجنتيها، ثمّ دفعته برفق، كان يهذي وأصابعه تتمادى، نهضت غاضبة، نهرته بخوف، متلمّسة طريقها وسط ظلمة الدرج تخاف أن يلحق بها، حدّثت شادن بمخاوفها: لا تخافيه، لاعبيه حتى تصلي إلى ما تريدينه أنتِ لا ما يريده هو. اجعليه يتلهّف لإرضائك، فكل الرجال تغلبهم الحيوانية، ولا يتوقفون عند عذوبة الكلام ولا جميل الأحاسيس، ومتى ما نال غرضه يترك ضحيّته ليبحث عن غيرها.

في لقائها الثاني تكرّر فحيحه، وتكرّر رجفانها، تتمنّى مواصلة همسه، لكنّه أمسك بكفّيها ثمّ احتضنها، وسريعاً ما طرحها أرضاً، صرخت: لاااا... ابتعد عنّي!

وبدأت أصوات تتدافع:

– لن أتركك هذه المرّة.

– أبعد يديك عن رقبتي، سأصرخ.

– من يسمعك في هذا المكان؟!

حينها سمعا صوتاً حادّاً من وسط الظلمة:

– دعها وإلّا!

حلّقت طيور الغابة أسراباً متلاحقة، ظنّ من رآها جراداً معمّدة. فزعت الخالة ناصية تصرخ فيمن حولها: اهربوا، اهربوا، ثمّ تهادى إلى مسامعها دويّ لا يشبه أيّ دويّ، لتعاود صراخها: الكارثة قادمة. لكن

t.me/qurssan

لم يستجب لها أحد، حلقت سحب سوداء كثيفة رويداً رويداً غطّت السماء، حينها ارتفع صراخ من أنحاء المكان، خرج بعض المصابين يزحفون والبعض يعرج. كان عـرّام وقـارون في أعالي الشلال وقد فاجأتهما رؤية سحب دخان تتكاثف متّجهة من الأطراف البعيدة نحو العمق، أسرعا بالهبوط لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكنّ السخام الخانق انتشر بين الأشجار، وتلك السحب حجبت بسوادها كلّ شيء، حاولا التقدّم لتصدّهما حرارة لا تطاق، أخذ السعال والصراخ يتعاليان، أمسك قارون بـذراع عـرّام يسحبه بعدما دهمه شعور بالاختناق والغثيان، صرخ عرّام: لن أترك أمّي، دعني... لكنّه لم يكمل حتى سقط مغشيّاً عليه، فحمله قارون بعيداً. بصعوبة تسلّق به السفوح يتبع قلّة ممّن نجوا وهم يزحفون نحو مرتفعات الجبال، كان بينهم شنهاص الذي يجاهد الصعود بمساعدة نفر حوله. بعد وقت طويل وصلوا إلى القمّة ليروا الغابة أتوناً عملاقاً مكلّلاً بالسواد، بكى عرّام على أمّه، وشاركه من حوله من هول الفاجعة.

واحد وعشرون من أمسوا في قمّة الجبل، لم تكن بينهم امرأة واحدة، يلهثون في العراء يتنفسون سخاماً أسود، يبحثون عن كهف يحميهم من الضواري وقد انتشرت في كلّ مكان. لأيّام يتخفّون من كهف إلى آخر خوف تعقبهم، استعادوا توازنهم بعد أيّام من مراقبتهم للـوادي، ليكتشفوا أنّ الحصن قد نـال منهم، ولـم يعد بمقدورهم مواجهته. أدرك شنهاص مقدار انكسارهم، وأنّ عليه مضاعفة جهده ليستعيدوا ثقتهم بأنفسهم، يذكّرهم بـأنّ الحصن هو الآخـر منهار بعد هزيمته، وما صنعه انعكاس لعجزه، وأنّ عليهم أن ينظروا إلى ما حصل وما يمرّون فيه على أنّه اختبار من الله لهم، مذكّراً إيّاهم بسيرة الرسول المصطفى وقد هاجر من مكّة إلى المدينة، لا هروباً أو انكساراً، بل ليستعدّ لمعركة جديدة، مضيفاً: «وقد عرفتم جميعاً أنّ

t.me/qurssan

الرسول الأعظم عاد فاتحاً مكّة، لينشر دين الله في أركان المعمورة، ولذلك علينا الاقتداء برسول الله، والبدء بهجرتنا إلى الله. إنّ من ماتوا حرقاً، أسمعهم يصرخون فينا «الطغيان يمثله مرداس وشيطانه زيد». هم الطغاة الروافض. ألا تسمعون الخالة ناصية تقول لكم «تمسّكوا بحبل الله واعتصموا به». ولذلك علينا الاستعداد لمنازلة الطغيان، وأن نجاهد لنشر العدل، وغايتنا نشر شريعة الله، وأبشّركم بالنصر إن تمسّكتم بكتابه وسنّة نبيّه الكريم وبنهج السلف الصالح، وأعاهدكم أن نجعل من الوادي الأرض التي تُطبَّق فيها شريعة الله وسنّة رسوله، راجياً من الجميع الصبر والثبات».

ما إن أنهى كلمته حتى صفّق له الجميع، ليقاطعهم بصوت ناهٍ عن التصفيق، موضحاً أنّ ذلك من سنن النصارى، ثمّ رفع صوته مردّداً: الله أكبر ولله الحمد، ليردّد بعده الجميع: الله أكبر ولله الحمد. ثلاث مرّات، ثمّ اختتم كلمته بدعوته للخروج إلى الأودية المجاورة، موضحاً أنّه سيطوف بهم على أصدقاء له سرّاً يشرح لهم ما تعرّضوا له ويطالبهم بالعون، داعياً الجميع إلى التحلّي بالأخلاق الحميدة، والالتزام بأداء الفروض الخمسة، كما دعاهم إلى الظهور بمظهر السلف الصالح في الملبس والتعامل، طالباً من الجميع ألّا ينطقوا اسمه إلّا مسبوقاً بصفة الشيخ أمام من سيفدون إليهم. ثمّ استدرك بعد أن لاحظ امتعاض عرّام الذي ظلّ يرمقه منذ أول كلمة نطق بها، موضحاً أنّه لا يقصد بذلك أن يعود شيخ قبيلة بل شيخ دين! مبيحاً لهم بسرّ لم يتحدّث به لأحد، بأنّ له أموالاً مخبّأة ستكون عونه يوم يعودون لمقاتلة الحصن.

عبروا تلك الجبال بحذر دليلهم قارون الذي كان إلى تلك اللحظة لا يعلم عن مقتل أمّه، وظلّ مزهوّاً بقيادته لهم في تلك المسالك الوعرة. بعد أيّام التقوا بشيخ أحد الأودية، الذي استضافهم لعدّة

t.me/qurssan

أيّام، مستمعاً لحديث الشيخ شنهاص، متفهّماً لما سمعه ومستنكراً ذلك الحريق، واصفاً ذلك بالفعل الذي لا يُغتفر، مشترطاً عليه إن أراد مساعدته أن يقاسمه الوادي. لم ترُق شنهاص مسألة التقاسم تلك، وإن لم يفصح، وطلب منه السماح لهم بالمغادرة وقد زوّدهم بمجموعة من الدوابّ، يتنقلون بها من شيخ إلى آخر كبائعي بهارات. وكما اشترط عليهم الأول، كان الشيخ الثاني أكثر حماسةً وقد استعدّ لدعمه بالرجال والسلاح، شريطة أن يكون تابعاً له. ولشهورٍ ظلّ يطرق بهم أبواب المشايخ ليجد جميع وعودهم مشروطة بتقاسم الوادي.

أمسى معظم مرافقيه يقلدونه بحفّ الشوارب وإطلاق اللحى وارتداء القصير، مواظبين على الصلوات الخمس، عدا عرّام الذي ظلّ متشرنقاً بصمته، ونادراً ما يتفوّه بكلمات تجد الرفض من شنهاص، ودوماً ما يبوح لقارون بما يعتمل في مرجل أفكاره، مستهجناً أن يظلّ تابعاً له، محاولاً إقناع صديقه بأنّ وجهه القبيح بدأ يظهر وقد حوّلهم إلى أتباع. يلحّ على قارون بالرحيل بعيداً، مؤكداً أن شنهاص طاغية كبير لا يختلف عن أيّ شيخ في تسلطه.

هبط صمتٌ حادّ للحيظات، ثمّ وقع أقدام مرتبكة، وارتطام أعقبته هرولة خارج الدار. عرفت شادن أنّ الحارس هرب مذعوراً، تلمّست طريقها باتّجاه بكاء زهرة، ضمّتها إليها وصعدت بها، قادتها إلى فراشها دون أن تنطق بكلمة. لم توقظها صباح اليوم التالي وذهبت لأعمال الدار. يتردّد على مسامع شادن صوت ذلك الحارس، تفكّر أن تلتقي به سائلة نفسها: ولمَ لا أجرّب؟

في المساء جلست إلى زهرة تحتضن وجهها، تنظر إلى عينيها مشجّعة:

– لا عليك من ذلك الوغد.

t.me/qurssan

– كان يريد أن يغصبني على ما لا أريد!

– فقط ساعديني لألتقيه.

– كيف؟

– تعودين إلى لقياه في نفس المكان.

– أخافه.

– سأحرسك.

– لكن ما عليّ فعله؟

– سأخبرك بعد أن تهدئي.

شعّت من وجهها الأبيض ابتسامة، ثمّ دسّت رأسها في صدر شادن لتتلقفها أحضان النوم، بينما ظلّت شادن تفكّر في تطويع ذلك الحارس لما تريده، وما كانت تخشاه أن تكون له صلات بابنتي شبرقة، أو أن يصل إليهما ما يدور، تُقلّب الأمر فلا تجد غير أن تغامر وتلتقيه.

– عديه بأنّك ستعطينه ما يريد، وحين يطمئنّ، اشترطي عليه أن يلتقيني، قولي له إنّ لديك له هديّة، امرأة تشتاق إلى رجل مثله.

لتسألها بخشية:

– وإذا مانع؟

– راوغيه حتى يذعن.

في حذر التقاها، ظلّ صامتاً، ثمّ انفرط عقد عِتابه:

– لم أكن أعلم أنّ هناك من يحرسك؟

تردّدت قليلاً ثم قالت بصوت رقيق:

– أقسم لك إنّي لم أكن أعلم بأنّ إحداهنّ تتلصّص علينا.

– ماذا تريد من تلصّصها؟

تلك اللحظة واتتها فكرة أن تخبره بما نصحتها به شادن:

– تلك المرأة تشتاقك!

– كيف تعرفني؟

t.me/qurssan

– إنّها رفيقتي، ودوماً تراقبك، وهي تتلهّف للقياك، فهل أخبرها بموافقتك؟

أحسّت رفضه من خلال صمته الذي طال، ليفاجئها طلبه لقياها، مشترطاً أن تطلّ عليه قبلاً ليراها.

تلك الليلة ظلّ متوجّساً بصمته، خمّنت شادن أنّه ينتظر التعرّف إليها من صوتها، لكنّها فضّلت أن تعرّفه بنفسها بشكل مختلف. مدّت أصابعها تبحث عنه، حتى لمست كتفه، هبطت بإصبعها حتى كفّه، كانت باردة، عادت تصعد بأصابعها حتى رقبته، أمسكت بوجهه، قرّبته من صدرها، أحسّت أنفاساً حارّة، تأوّهاته محمومة، كان في أعماقها كائن يستيقظ، بدأت تفقد السيطرة على رغبتها حين بدأت أصابعها بتمزيق ملابسه، ضمّته إليها عاري الصدر. أحسّت بتسلل يديه أسفل بطنها وقد ارتفع شخيره. فجأة استيقظت من حمّى تجتاحها، تصارع نار غلمتها، دفعته بعنف وهي تشتمه بأقذع الألفاظ، خرّ صامتاً. نهضت واقفة مذعورة من نفسها، تتذكّر أنّها لسنوات طويلة لم تمسّ رجلاً، تتمتم مستغفرة. نطقت أولى كلماتها:

– أعطيتك، فماذا لديك لتعطيني؟

تجرّأ ولم يخفِ رغبته المحمومة:

– أعطيكِ ما تريدين، فقط دعينا نرتوِ.

– ماذا ستعطيني؟

– ما تريدينه.

– هل لك صلات بابنتَي شبرقة؟

– أنا حارس ومهمّتي...

قاطعته:

– لا أريد أن نبدأ أول لقاء لنا بالكذب، فأنا أشتهيك، كن صادقاً.

t.me/qurssan

– تشتهينني؟

– نعم، وأعاهدك بأن تكون لنا أسرارنا الخاصّة، فهل تعاهدني؟

– أعاهدك. قالها وقد ركع يحتضن ساقيها، لتتسلق أصابعه فخذيها. زجرته وقد اقتربت من الانهيار، كابحة غول شبقها، ليتشبّث يقبّل قدميها يرجوها. قالت مودّعة:

– إن أردت أن تتحدّث فسأحضر ليلة الغد في نفس الموعد.

يتخيّل زيد ضريحاً لمهاجر أول على ربوة عالية، يراه الرعيّة عالياً مهيباً، عاد الأمل يداعبه بأن يكون يوماً سيّد الوادي، وقد تخلص من الخطر الداهم شنهاص، ولذلك أرسل من يترصّد تحرّكاته، كما أكد على فاطم إيلاء مرداس مزيداً من اهتمامها.

نقلت العيون أنّ تحرّكات شنهاص متواصلة بين المشايخ، وأنّه يعدّ العدّة للعودة ورجاله إلى الوادي، زادت تلك الأخبار من قلقه، يفكّر في وسيلة للحدّ من الخطر القادم، فكّر في حرق ما بقي من غابات وشعاب حتى لا يجد شنهاص مأوى، ثمّ فكّر في توزيع حرّاس من الرعيّة على سوامق الجبال وفجاجها لحراستها، كان طولها يبعث على اليأس، ثمّ اهتدى إلى تحصينها بسلسلة من القلاع، أن تُبنى محارس تراقب ثغورها، سيُكلّف الرعيّة ببنائها. تحمّس الشيخ للفكرة فلا تسلّل لطامعين بعد اليوم، ولا هروب للعصاة من الرعيّة، وأشار بسرعة تكليف الرعيّة ببنائها.

يحلم ليل نهار وقد وقع شنهاص في قبضته، ليبدأ عصره دون منغصات.

مضت مخلّفة لهاثه صاعدة وقد خضلتها الغلمة. في الليلة التالية كان هو المبادر، ما إن شعر باقترابها حتى طوّقها بذراعيه،

t.me/qurssan

خشيت أن تنهار وقد أرسل أصابعه تداعب مكامن لذتها، زجرته سائلة:

– كفّ عن عبثك، وحدّثني عن تواصلك مع ابنتي شبرقة.

– وستكونين لي؟

– سأقف أمامك كما ولدتني أمّي.

أغمض عينيه يبتسم متخيّلاً جسدها يفيض شهوة بين يديه، ليحدّثها:

– فليكن سرّاً بيننا. منذ وفاة أمّهما وهما تستدرجان بعض الحرّاس إلى سطوح الدار.

– ولماذا السطوح؟

– خشية الخادمات.

– وبمَ تتحدّثان؟

– أن تقتلا من تسبّبن بمقتل والدتهما.

– وما أدراك؟

– أعرف ما هو أكثر من ذلك.

صمت وصمتت تفكّر، ثمّ قرّرت أن تقذف بأول أحجارها لتسبر غوره:

– هل ترغب بي كما أرغب بك؟

– وأكثر.

– ما دمت كذلك، لمَ لا نتزوّج، حتى يكون ما بيننا حلالاً.

– ماذا؟

– أن نعقد زواجنا!

– وكيف سيكون ذلك؟

– لا يكون بيننا إلّا الحلال.

– وكيف ذلك؟

t.me/qurssan

– أن تأتي بفقيه ليعقد.

– من تظنّينني حتى آتي بأحد؟!

– أو تخرج بي خلسة إلى أيّ فقيه!

– هل جننتِ؟

– بعدها نلتقي كلّ ليلة، حلالاً.

غامرت وخلعت ثيابه بعدما طال صمته، ضمّته إلى صدرها تزيل ملابسه، تركت ليديها أن تقودا إثارته، شهق لما تصنع به وهي تعتصره. لحظات طالت إلى ساعات من أنين متقطع، فجأة وقفت تردّد آياً من القرآن مستغفرة، ثمّ خاطبته بصوت حنون:

– ألم تقل إنّك ترغب بي؟

– أكثر ممّا تتصوّرين.

– وأنا أرغب بك.

– فلماذا كلما بدأ النعيم تصدّين بابك؟

– يجب أن يكون بما يرضي الله.

قال متلهّفاً

– سأبلغك بعد أن أرتّب الأمر بما نويت فعله!

حذّرت شادن زهرة من ابنتَي شبرقة، بعدما تأكّد سوء نيّاتهما، وقالت لها أن تستعدّ ليوم الخلاص.

قبل الفرار حاولت إقناع الحارس بأن تصطحب أمّها حتى تشهد عقد القران، لكنّه رفض بشدّة.

لفّت حول خصرها طرحة أخفت في ثناياها سكّيناً وكسر خبز جافة، لم تودّع أمّها، صاحبتها رهبة الخوف وهي تعبر الساحة نحو البوابة، ضامّة إلى قامتها زهرة وقد تسربلت الظلام، ترتجفان من صخب أنفاسهما، كان الجوّ بارداً وهما تعبران البوّابة، وصل إليهما نقاء رائحة السفوح وقد حاذتا أعمدة التعذيب. فصلتها بعد ذلك

t.me/qurssan

عن طولها لتنحدرا خلفه في خطوات قلقة. تتساءل: قد تكون رائحة الحرّية تلك، أخيراً بعد سنوات طويلة ها أنا خارج الحصن. كانت قلقة من أن يكتشف الحارس زهرة، فضّلت أن تنبّهه، همست: اصطحبت صبيّة تعرفها أنت. لم يردّ، خمّنت معرفته بوجودها. جنحت تردّد كلمات غير واضحة، تعرف زهرة أنّها تناجي الله، وقف لتصمت أصوات أقدامهم:

– الآن نحن نجاور قرية المنحدر، يمكننا إيقاظ أمين مسجدها!

وقفت مشدوهة، لم تتوقع ذلك، كانت تظنّ أنّه سيذهب بهما إلى قرية بعيدة، تفكّر تلك اللحظة كيف تتدارك الموقف؟ أن تقنعه بأنّها لا تريد العودة، وأنّها ستسكن بيتاً في إحدى القرى، تنتظر قدومه بين فينة وأخرى. ردّت عليه بصوت يخالطه الاضطراب:

– من الأفضل أن نبحث عن أمين في قرية أخرى.

– لكن ضوء الصباح سيدركنا، وعلينا العودة قبل الفجر.

– لا أريد العودة هذه الليلة.

أفلتت الكلمات من شفتيها دون تمهيد ليقاطعها:

– لا تريدين ماذا؟ تحسبينني أبله؟ ألم نتفق على العودة بعد أن نعقد سريعاً ونعود!

– نعم... لكن...

– لكن ماذا؟ أتنوين خداعي؟

– اسمعني، ألم نتعاهد على الوفاء.

– وهل من الوفاء أن تضعيني في موضع...؟ صمت قليلاً ثمّ أمسك بمعصمها وقد بدا صوته حادّاً: هيّا سنعود، وداخل الحصن نتفاهم.

لم ينتظر ما ستردّ به عليه، أخذ يدفعها أمامه، وقد تصنّعت طاعته، سارت إلى جواره وقد انعدمت لديها الخيارات، بينما يدها

t.me/qurssan

الأخرى مشغولة بسحب سكّينها ببطء، أحسّ بطولها يرتعش، ظنّ أنّه برد الليل، لتفاجئه سكّينها تخترق أمعاءه، حاول إنزال بندقه، لتسارعه بطعنات متتالية، خارت قواه، وتهاوى يئنّ راكعاً، لم تميّز زهرة ما يدور في تلك اللحظات، وقد تملّكها الرعب حين شدّها صوته الخائر «يا خائنة، أهذه عهودك؟ يا خا...» لم تدر ما تصنع وقد ارتفع نحيبها جاثمة تتلمّس هذيانه وهو ممدّد، احتضنت رأسه صارخة: ماذا جرى لك؟ لم يردّ عليها وقد زاد ثقله، تتلمّس أجزاء بدنه حتى ميّزت سائلاً تشبّعت به ثيابه. بهلع ارتفع صوتها: ماذا فعلتِ به؟ أهذا دم؟

أشاع زيد أنّه نقل رفاتاً لمهاجر أول إلى الربوة العالية، ليسخِّر مجموعة من الرعيّة تعمل بجلب الأحجار وحفر الأساسات، كما استقدم بنّائين مهرة من خارج الوادي ليباشروا بناء أساسات الضريح، فيما حُدّدت مواقع لبناء قلاع الحراسة على قمم الجبال، آمراً عقّال القرى بتسخير رعيّة كلّ قرية في تهيئة المواقع، والبدء بقطع كتل الأحجار التي ستُستخدم لبنائها، وإن كان شغله الشاغل متابعة أخبار شنهاص، من خلال عيونه التي ترصد تحرّكاته، متوقعاً تسلله في أيّ وقت.

لكنّ فرار ابنة شنهاص من الحصن شوّش عليه تفكيره، ليتسلّل إليه إحساس بمؤامرة تحاك ضدّه من داخل الحصن، وقد تكون هناك صلات بين تسلّله وهروب ابنته. صبّ جام غضبه على ابنته، وهو الذي ظلّ يؤكد عليها مراقبة كلّ ما يدور في الحصن، وأن لا تجعلها عزلتها تغفل عمّا يحاك، يلومها غاضباً:

– كنت مطمئنّاً إلى أنّ عيونك تترصّد كلّ من داخل الحصن، وأنّ كلّ همسة تهمسها إحداهنّ تصلك، فلا تتنفس خادمة أو حرّة إلّا عرفتِ بها.

t.me/qurssan

– ألست أنت من نصحتني بإغلاق الأبواب في وجه الجميع.

– لكنّ ذلك لا يمنع أن تكون لك عيون بينهنّ.

– لن أخذلك بعد اليوم. قالت جملتها مدركة أنّ والدها لا يهمّه إلّا نفسه متناسياً رغبتها في أن يكون لها ولد. ردّ عليها دون أن يغيّر ملامح وجهه الغاضبة:

– اعتني بمرداس، وانقلي زوجة شنهاص لتكون في خدمتك، وكذلك ابنتا مرداس. ولا تنسي أن تحسني لبقيّة الخادمات. اجعليهنّ عيونك بعضهنّ على بعض.

لم يرقها حديث والدها، وقد تناسى ما تعانيه من عدم الإنجاب، لكنّها لا تملك إلّا إرضاءه.

التقطت شادن بندق القتيل، وجمعت الرصاص من جيوبه، وسحبت زهرة المنتحبة هبوطاً. تسير على ضوء قمر خجول، تجرّ زهرة من ذراعها ترجوها أن تكتم بكاءها، تحدّث نفسها منكرة ما صنعت، تتمنّى أن لا يكون من خلفهنّ مات في المنحدر، تصارع هواجسها رافضة أنّها أصبحت قاتلة، يضايقها استمرار بكاء زهرة، تحاول إسكاتها متصنّعة الحزم: إن لم تكفّي عن البكاء فسألحقك به. لكنّها تواصل أنينها، تغيّر شادن من حدّة صوتها: هيّا كفى بكاءً، تعلمين أنّه لم يكن لي من خيار آخر.

ظهرت شمس الأفق وقد ابتعدتا غرباً، تريان الحصن الذي بدا في عليائه مخيفاً وبعيداً، حاذتا فجوة الغابة التي تحوّلت إلى سوادٍ عملاق. واصلتا السير غرباً، مخترقتَين أشجار البنّ الجافة بحذر. تتخفّيان بين الأشجار إذا ما لمحتا أحدهم في الجوار، ثمّ تواصلان تسللهما حتى أطراف سفوح الجبال الجنوبية، غشيهما بعض الأمان وهما تواصلان صعود الجروف العالية، بين فينة وأخرى تلتقطان أنفاسهما راصدَتَين

t.me/qurssan

حركة الوادي، لا شيء يثير الريبة بين تلك القرى المتناثرة... تبتسم شادن وقد تخيّلت الشيخ علم بمقتل الحارس... أمّها تفزع متلصّصة من نوافذ الحصن لعلّها تلمح ما يطمئنها، خادمات الدور يصعدن الأسطح يتابعن حركة الوادي. تعاود شادن الوقوف لرصد حركة الرعيّة، تستغرب ذلك الهدوء، بعد حين ميّزت مجموعة من الحرّاس يسيرون هبوطاً في مجرى السيل، اختبأتا تتابعانهم وقد وقفوا بين مسافة وأخرى يتحدّثون إلى رعيّة في مزارعهم، خمّنت أنّهم المكلفون بملاحقتهما، مكثتا تتابعان تحرّكاتهم حتى اختفوا بين منازل إحدى القرى، لتكتشفا بصعودهما أنّهما تقتربان من قمّة تنشط عليها مجموعة من الرعيّة بقلع الأحجار، كان الأمر غريباً، تراجعتا لئلّا يراهما أحدهم.

ظلت زهرة طيلة ذلك النهار تخشى رؤية وجه شادن، وقد أحسّت أنّ جميع الجهات تتربّص بها، وأنّ شادن تلك لم تعد نفسها، لتكتشف أنّ الحرّية التي كانت تحدّثها عنها لها روح قاسية، بينما كانت شادن تسير متمنّية لو أنّها لم تكن تلك المرأة التي كانتها، ولم تستلّ سكّينها. تسيران وكلّ منهما تمضغ هواجسها. زهرة تخاف اكتشاف أنّ من ترافقها امرأة أخرى، وأنّ ظلمة الليلة الفائتة ألبستها روحاً شرّيرة، يراودها شعور بأنّها أسيرة كابوس مخيف.

لأول مرّة تقضي ليلها في كهف، تفكّر زهرة كيف سيكون غدها برفقة امرأة لم تعد تعرفها. لا تعرف لماذا طرأ على تفكيرها في تلك اللحظات قارون، تتخيّل أنّها التقته، كيف هي ابتسامته، رائحته، كلماته التي تتمنّاها رقيقة... شعور مبهم وقد أمسى أقرب الناس إليها بعد خذلان شادن. ترى نفسها تحدّثه عن تشابه الناس في القسوة، وعن عذابات الحياة المتصلة، وأنّها تفضّل أن تعيش الحلم بالحرّية لا الحياة فيها، تراه يطلب منها أن ترافقه، وإن لم يفعل فهي من ستطلب منه. أعادها صراخ شادن إلى واقعها، تحتدّ كأنّها في

t.me/qurssan

شجار ما، حتى إنّ جدران الكهف تردّد صدى احتدامها، ثمّ استفاقت بعدما اختنق صوتها، ظهر شبحها وقد تسلّل سنا القمر، تستند إلى الجدار، تردّد مرتجفة «ربّنا إنّا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين... ربّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين... ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين». تردّد أدعيتها حتى خيوط الفجر، حينها ضجّت زقزقة عصافير الجبل، لتمدّ يديها تضمّ زهرة التي كانت تتناوم محدّثةً نفسها: أيُعقل أن تجمع بين حناياها كلّ ذلك الحنان وتلك القسوة، أيّهما هي شادن؟

تقتعد زهرة فوهة الكهف وقد اصطبغ الكون بدفء شمس الصباح، ترى الوادي وخيوط دخان المنازل ساحراً، تشعرها ببعض الأمان في ذلك الارتفاع، سمعت صوت شادن يأتيها من داخل الكهف:

– لا أعرف ما عليّ فعله. صمتك يخيفني! لم تردّ عليها وقد أردفت: ثمّ لم أرَك ترفعين النظر إلى وجهي. اقتربت هامسة: لو كنت مكاني لعرفتِ ما أنا فيه من عذاب!

لتردّ زهرة كمن يتحدّث إلى نفسه:

– لا أعرف كيف طاوعتك!

– لا تخافي منّي فأنا لست قاتلة، وما ظننته في تلك الليلة قد حصل، لم يكن إلّا تهيّؤات، رأيته في منامي وقد حملوه في محفّة عائدين به إلى الحصن، نهض مبتسماً، وقال محدّثاً من حوله: لم يحدث شيء، فقط جرح بسيط أسفل بطني. ورأيته يكشف لهم أسفل مكان الجرح ليبدو بلون أزرق!

– أمانيّ وتهيُّؤات.

– تشفقين عليَّ.

– دعيني ولا تحمّليني أكثر من طاقتي. ثمّ تسألها باكية:

– أهذه هي الحرّية التي كنتِ تبشّرين بها.

t.me/qurssan

– وماذا تريدن أن أصنع؟
– ألم تخبريني بأنّك ستفرّين للقيا والدك؟
– وها نحن نفرّ إليه!

لم تكن شادن تعلم أنّ تلك القمم العالية التي كانت تشاهدها من الحصن قد نشط فيها الرعيّة مسخّرين لبناء قلاع منذ أيّام، ولم يعد لهما إلّا الاختباء في كهف منحدر بين القمم والسفوح، والبحث عن وسيلة لمعرفة الطريق إلى والدها. مكثتا لأيّام مختبئتَين في كهف وقد استبدّ بهما الخوف والجوع، ترقبان طوال النهار السفوح وحركة الرعيّة، تخرجان مع وهج الفجر بحثاً عمّا يسدّ رمقهما ثمّ تعودان خشية أن يلمحهما أحد، تراقبان الحرّاس يجوبون القرى، يدخلون بعض الشعاب، يصعدون جبالاً، تراقبانهم بوجل. وقبيل غروب الشمس تهبطان إلى نبع غزير لتشربا. في آخر مرّة رأت شادن وجهها على صفحة الماء، دمعت عيناها لحالتها، وحين تأمّلتها زهرة لاحظت البؤس الذي طرأ عليها، وظلّت لأيّام تحاول إقناعها بالعودة.

نباح كلب فاجأهما ذات صباح، فرّتا برعب إلى عتمة أعماق الكهف، كان الأمر غريباً وقد ظهر نابحاً عند الفوهة بضآلة لا تناسب صوته الكبير، ما لبث أن تغيّر نباحه إلى زمجرة وهو يتقدّم مقوّس الظهر نحو عتمة الكهف، صوّبت شادن بندقها باتجاهه مرتجفة، فجأة ظهر فتى أسود زعق بصوت حادّ مطلقاً صفيره، تنفستا الصعداء وقد استدار هازاً ذيله يتبعه، ليختفيا ويتركاهما في حيرة من أمرهما، نهضت شادن بحذر بعد حين تتقدّمها فوهة بندقها حتى باب الكهف، لفح وجهها سكون إلّا من ريحٍ وشمس، ثمّ تهادت إلى مسمعها أصوات رقيقة تغنّي، خرجت بحذر، لم يكن أحد في الجوار، غير مجموعة من الحاطبات وقد تفرّقن يجمعن حطباً أسفل المنحدرات. عادت مضطربة:

t.me/qurssan

– انهضي، في الجوار أمر مريب!

– لا تخيفيني فوق خوفي!

– لك أن تري.

مكثتا خلف إحدى الصخور ترقبان تحرّكات الحاطبات وأغانيهن الشجيّة، ما زادهما خوفاً أنّهما رأتا عدداً آخر منتشرات على منحدرات جبال أخرى، يذكّرهما ذلك بالأيّام التي سبقت الحريق الكبير. انقضى النهار وغادرت تلك الجموع بما جمعن من حطب، لم تجدا تفسيراً لتكرار ظهور الكلب والفتى، وكذلك انتشار الحاطبات. اضطرّتا للمخاطرة والخروج قبيل الفجر، كانت لهما فرصة أن يبحثن في موقع بناء القلعة قبل أن يصل المسخّرون، لم تجدا غير معاول، التقطت شادن أحدها، وغمغمت: سيفيدنا! ولم تعلم أنّ ذلك قد أثار التساؤلات حول اختفائه، صعدتا نحو القمم تبحثان عن مأوى آمن. أشرقت الشمس وقد وجدتا كهفاً صغيراً. لاحظت شادن ذبول زهرة المتزايد، سألتها:

– منذ أيّام وأنا أفكر في عودتك إلى الحصن.

صمتت زهرة وقد كسا وجهها بعض التبلّد:

– أعود؟ لماذا لم تفكري يوم كنّا في الحصن؟

– أنا، قدري في ما أقوم به، لكنّي أراك تذبلين من الجوع والبرد، لم أكن أتصوّر...

قاطعت كلامها عبرة ثم نحيب، ما لبثت زهرة أن احتضنتها تبكي معها.

– سأكون معك أينما تكونين.

– تريننني أمسيت قاتلة، لكن لا ذنب لك.

– لن أعود!

t.me/qurssan

منذ تلك اللحظة شعرت بأنّ شادن تصارع كائناً لا يُرى، بدت كمن تخفي ما يدور في خلدها، وتخاف أن تصحو يوماً ولا تجدها إلى جوارها.

تراقبان المسخّرين لبناء تلك القلعة من جرف عالٍ، لم تكونا تعرفان أنّ صاحب المعول يبحث عنه، وأنّ أحد زملائه قد ذهب بشكّه بعيداً، فبدآ يبحثان عن سارق المعول، في البداية اتّهم فتى الكلب الذي يتردّد باحثاً عن عيدان «الشرز» تلك الشجيرة العطريّة، لكنّه صرف النظر عنه وقد لاحظ أنّه يعود من المنحدرات قبل أن يؤوبوا إلى قراهم، ليقوده الشك إلى من يتحدّث عن هروبهما الجميع أن تكونا في الجوار. لم يساور شادن الشك ذلك الصباح حين لاحظت عدم وجود المسخرين، ظنّت في بداية الأمر أنّ ما أخّرهم طارئ، ظلت تراقب الأنحاء حتى انتصف النهار، حينها لاحظت أناساً يصعدون على المنحدرات كأنّهم في سباق محموم، ميّزتهم حرّاساً حين اقتربوا، نبّهت زهرة، عرفت لحظتها أنّ غياب المسخّرين له صلة بوصول الحرّاس، فكّرت شادن في الهرب قبل وصولهم، ولم يكن هناك غير مسلك واحد، هبطت وزهرة حتى أطلت عليهم من جرف واسع، فكرت في وسيلة للحدّ من تقدّمهم، وكانت الصخور والجلاميد المتهاوية وسيلتها، عاونتها زهرة لتتدحرج الصخرة الأولى، هوت من سامق الجرف لتثير الغبار عند اصطدامها أسفلها وتدفع بأخرى مشكّلة شلّالاً مدوّياً، أصابت تلك الصخور ثلاثة، تشجّعت ودفعت بصخرة أخرى، ثمّ ثانية وثالثة، نظرت إلى رعيّة الوادي يتابعون انهيار الجلاميد، لم تستمرّ في متابعة ما يحدث في الأسفل، اكتفت بسماع أصوات تصادمها، وتصاعد سحب أتربتها، مستغلة انشغالهم بالصخور، لتتوارى وزهرة، هابطتين من الجهة الشرقية للجبل. قطع طريقهنّ ثلاثة برصاصهم، حينها لجأت شادن إلى بندقها لتصرع

t.me/qurssan

أحدهم وتصيب ثانياً ويتوارى ثالثهم، لحظتها استطاعت الهبوط مسرعة بحذر، لم تكن تعرف أنّ شلّال الصخور قد قتل اثنين وهشّم عظام أربعة كانوا بين الحياة والموت.

مضتا متسلّلتين هبوطاً باتجاه السفوح حيث شعاب نبع ماء اعتدن التردّد عليه، وما إن توغّلتا بين شعابه حتى وقفتا بحذر تلتقطان أنفاسهما وقد ظنّتا أنّهما في أمان، لكنّ دويّ رصاصة أعاد إليهما رعبهما، وقد أخذ من بقي من الحرّاس يجدّون في أثرهما، هرولتا منهكتين بين الأشجار، دوّت رصاصة أخرى تردّد صداها مرّات. ما إن وصلتا إلى النبع حتى حاذتا مجراه موقنتين بالهلاك، هللت زهرة حين ظهرت أمامهما بركة واسعة، فشدّت ذراع شادن مشيرة عليها بالدخول في الماء، سحبت البندق ودسّتها بين شجيرات قريبة، بهدوء هبطتا بجسديهما حتى غمرهما الماء، وما هي إلّا لحظات حتى اقترب وقع أقدام يصاحبه هرج أصوات لاهثة، أخفتا رأسيهما تحت السطح تمسك كلّ منهما بيد الأخرى، رأتهم شادن من تحت الماء يتقاطرون مهرولين، حتى عاد السكون. بعد وقت كأنّه دهر شهقت زهرة مخرجة رأسها، تبعتها شادن، لا أحد عدا أصوات بعيدة، مكثتا لبرهة ترتجفان غير مصدّقتَين أنّهما نجتا، هدوء يعمّ المكان إلّا من خرير الماء، وزقزقة عصافير. احتضنت شادن زهرة وهما تتلفّتان بترقب، خرجتا من البركة لا تعرفان ما عليهما فعله، غير أنّ شادن سحبت البندق من بين الشجيرات وهرولت تتبعها زهرة، تتخفّيان خلف جذوع الأشجار، ترتجف زهرة وتصطكّ أسنانها لبلل ثيابها... بعد حين فاجأهما نباح كلب لترتبك حواسّهما، ما لبث أن ظهر ليقترب منهما، كادت شادن تطلق عليه رصاص بندقها إلّا أنّها جفلت لصوت كأنّه آتٍ من العدم:

– من أنتما، ومن أين لكما بهذه البندق؟

t.me/qurssan

كان الصوت لذلك الشابّ الأسود وقد أسكت كلبه، عقد الخوف لسانيهما وهما تتأمّلانه، كان ذا شعر أكرت وقامة قصيرة متماسكة، رفع صوته ملوّحاً بفأس طويلة الساق:

– هيّا أخبريني، من أنتما؟

عاد إلى شادن بعض تماسكها، فصوّبت البندق في اتّجاهه، بينما زهرة ترتجف خلفها، تخشى أن يلفت نباح كلبه من في الجوار، اقتربت منه تقطر ماءً:

– لا عليك منّا، امضِ في حال سبيلك.

– لن أمضي حتى أعلم حكايتكما؟

ثمّ أشار برأس فاسه:

– ولماذا تختبئان؟

قدّرت شادن أنّه معتوه، وهو يلوّح أمام فوهة البندق بفأسه.

بدأ شنهاص يعدّ العدّة للتسلل إلى الوادي بعدما سمع عن فرار خادمتين من حصن مرداس، يحدّثه قلبه بأنهما زوجته وابنتها، تمنّى لو أنّه يعرف الطريق إليهما، ظلّ متابعاً أخبارهما، ينتشي لتهويل الناس لأفعالهما، وأنّهما تصنعان ما لم يصنعه الرجال. وتبدّل الشعور بالعار وهما لسنوات خادمتان لنساء الحصن إلى الشعور بالفخر. انشغل بالبحث عن وسيلة تعيده إلى الوادي ليلتقيهما.

ضاعف زيد من اهتمامه ببناء القلاع، فجمع العقّال ملوّحاً لهم بالثواب والعقاب، قال لهم: الشيخ يتابع أعمالكم من نافذة حصنه، ويرى ما يصنعه كلّ منكم، فسارعوا في البناء لنيل رضاه. وسريعاً ما ظهرت ثمار كلماته، ليتنافس العقّال في تسخير المزيد من الرعيّة لإكمال ما بقي من تلك القلاع، يتنافسون بينما أعينهم على نوافذ الحصن البعيد، يتحدّث بعضهم بأنّهم رأوا الشيخ في نافذته يلوّح

t.me/qurssan

بكفّه مبتهجاً، وآخرون بأنّهم رأوه يبتسم لهم، وهكذا خلال أسابيع كانت جدران القلاع قد ظهرت بألوان زاهية بعدما طُليت بالنورة، توزع الرعيّة حراستها، وأمسوا يتفاخرون بسماع نفير «بورزاناتها» المتوالية نهاراً، ومشاعل النيران المتقدة ليلاً. ولم يعد هناك من يستطيع التسلل أو الخروج من الوادي، إلّا من معبر نهاية مجرى السيل غرباً، وقد كلف أحد أبنائه بالإشراف على تسيير حرّاسها.

يتحدّث زيد إلى الشيخ بزهو وهو يريه من سطح حصنه مواقع تلك القلاع: الوادي أمسى بعيد المنال عن كلّ طامع، وتلك القلاع التي تراها يرصد من يتناوب عليها كلّ حركة في الوادي حتى الطير في كبد السماء. وقد زوّدنا حرّاس المنفذ بأوصاف شنهاص، إن حاول التسلّل. سيقودونه مكبّلاً إليكم.

– وابنته الفارّة التي تقتل الناس؟

– سأكلف عقّال القرى بجمع كلّ من لها عين باطلة، وستراها قريباً بين يديك، فلا مجال لأيّ عاصٍ أو فارّ بعد اليوم للإفلات من العقاب، وسيعمّ الوادي الاستقرار الدائم بفضل حكمتكم.

في الوقت الذي أنجزت فيه القلاع، كان البنّاؤون يرفعون جدران الضريح متفنّنين في تشكيل أحجاره بنقوش وألوان بديعة. وقد تزاحم الرعيّة للمشاركة في البناء تبرّكاً.

أدركت شادن أنّ ذلك الفتى غرّ، يرمق زهرة بعينين ولِهتين. أنزلت بندقها تمثل المغلوبة على أمرها:

– نحن طوع بنانك.

تقدّم مزهوّاً يتفرّس البندق وقد خفض فأسه:

– ماذا سيقول الجيران عن هذه البندق؟

– أيّ جيران؟

t.me/qurssan

– جيراننا في الدرم.

صمتت تفكّر ثمّ ردّت بغنج:

– سنرى حين نصل.

ابتعد بهما غرباً، وقد وضع فأسه على كتفه، وطوال الطريق يسيرون تحت أشجار متشابكة، يتحدّث منتشياً عن مواضيع لا تفهمانها، شعرتا بخوف بعدما خرجتا إلى سهول مكشوفة، تتلفّتان خوف ظهور أحدهم، بينما ذلك الشاب يرفع صوته يحدّث كلبه تارة، وأخرى يتحدّث عن نفسه إليهما، وقف وقد ظهرت لهما مجموعة أكواخ تجاورت على أطراف مجرى السيل، وقف بخيلاء:

– ذلك هو درمنا.

بدت المسافة قريبة، أكواخ متهالكة، تفصلها أزقة متعرّجة وضيّقة، قلة من الخوادم يجلسن أمام أكواخهنّ، أطفال عراة يتلاحقون هنا وهناك، وكلاب تلوب بحثاً عمّا يُؤكل. وقفت شادن مشيرة إليه:

– سننتظر هنا حتى يحلّ الليل.

– ولماذا تبقيان هنا؟

– لا نريد أن يرانا أحد!

– تريدان الهروب؟

– أبداً.

– سأبقى معكما.

طوال الوقت ينظر إلى زهرة في خفر. يسأل بتلهّف: لم تحدّثاني عن حكايتكما، لتمطره شادن بأسئلة تدفعه للحديث عن نفسه، عرفتا أنّ اسمه محمّد، وأنّه يعمل حطاباً، ويعيش مع أمّه في كوخ وسط ذلك الدرم. استمرّ يتحدّث حتى دنت الشمس وصخب الجدجد بصريره، وقد رأتا خوادم الأكواخ يشعلن مواقد النار أمام أكواخهنّ، واختفى الأطفال إلّا قلّة حول بعضهنّ. وظهرت نجيمات متباعدة. أشارت

t.me/qurssan

عليه شادن مبتسمة بأن ينهض، مدّ يده للإمساك بمعصم زهرة، هبطوا تتلمّس عيونهم غبشة المساء، وما إن اقتربوا حتى استقبلتهم جوقة كلاب، غاص كلبه بينها نابحاً في تآلف، أطلق الحطّاب محمد صفيراً حادّاً لتفرّ جميعها عدا كلب هرم ظلّ أمامه يهز ذيله، ركع وأخرج له من تلابيب ملابسه كائنات في قبضه اليد يبدو أنها فئران ميتة، ألقاها ماسحاً بيده رقبته ورأسه، قائلاً: هذه أمّ كلبي وقد هرمت! ثمّ مضوا يتابعون خطوهم وسط حذر عيون الأكواخ، وقف بهما أمام كوخ وسط الدرم، تكوّمت جذوع أشجار وعيدان حول بابه القصير، أشار عليهما بأن تدخلاه. استقبلتهما رائحة عفن خانقة، بينما انشغل محمّد بإشعال نار موقد طيني، للحظات تعانقت ألسنة اللهب وتسرّب ضوؤها إلى الداخل، وقفتا تكتشفان ما حولهما... امرأة ممدّدة، ما إن شعرت بوجوده حتى استوت جالسة على فراش داكن، ورفعت صوتها:

– ما أخّرك يا محمد؟

دخل إليها أمسك كفيها هامساً:

– ضيوف!

– أينهم؟

اقترب من أذنها:

– اخفضي صوتك، ها هما إلى جوارك.

لوّحت بيديها تتلمّس الفراغ، وقد انعكس ضوء اللهب على وجهها المتغضّن الأسود:

– أين هما؟

أمسكت شادن بذراعها، بشرة جافة، أصابع داكنة، عينان واسعتان، فراش أمسى دون لون، وقد ربضت إلى جوار فراشها جلاميد حجرية مستطيلة، عليها بقايا أطعمة، تفصل تلك الجلاميد فراشها

t.me/qurssan

عن فراش آخر تغطّيه ملاءة متربة مُدّدت على أطرافه، ومجموعة من الحبال، عرفت شادن لاحقاً أنّها أدوات احتطاب... في فضاء الكوخ تدلّت سلاسل خوص وعدّة فؤوس، وإلى جوار الباب قرعة مليئة بالماء. أدرك حيرتهما وقد ظلّتا واقفتَين مشيراً عليهما بالجلوس على فراش الحبال، جلست شادن تتأمّل ضيق الكوخ، تتخيّل إذا ما دهمهما أحد فلن تجدا زاوية تختبئان فيها. حتى إنّه ليس للباب درفة تُغلق، عدا جذوع توضع بعضها فوق بعض ليُسدّ عند الحاجة.

عاد محمّد إلى ناره واضعاً قصعة عليها يحرّك فيها عصيدة العشاء، مغنّياً بكلمات قد تكون موجّهة لزهرة، سريعاً ما دخل واضعاً القصعة على الجلاميد... رائحة ذكّرتهما بجوع استبدّ بهما، تتخاطف الأصابع عصيدة رغم سخونتها. لم يكن لزهرة غير الصمت أمام نظرات محمّد التي تحاصرها، حتى حين يتحدّث ينظر إليها، بينما ظلت في ذهول غير مصدّقة أنّ هناك من يعيشون بذلك الكفاف، وإن تسرّب إلى أعماقها نوع من الطمأنينة، تستمع إلى حديثه وأمّه ذلك الحديث الذي يشي بقناعة غريبة، نهض محمّد مرسلاً ابتسامة خجلى لزهرة: سأنام في الخارج.

لم تكن تشعر بأيّ خوفٍ من نظراته، بدت لها مألوفة، لتنام تلك الليلة إلى جوار شادن نوماً عميقاً، بينما أمست شادن تقلّب خوفها، وهي ترى الصباح يظهر أكثر ممّا يخفي. قادها خوفها للتسلل واكتشاف المكان، عند الباب كادت تهوي فوق شبح محمّد المحتضن كلبه، نبح متحفزاً لتتراجع، هامسته: نَم، أردت فقط أن أريق الماء. غمغمت أمّه بكلمات غير مفهومة، ليعود محتضناً كلبه، خرجت تتأمّل فراغ الظلام وقد غمرته غلالة فضّية لقمر يسافر باكتماله، تستطلع تلك الأكواخ، ليتعالى نباح كلاب في الجوار، لم تجرؤ على التقدّم واكتفت بالطواف حول الكوخ... اكتشفت بقايا كوخ يلاصقه

t.me/qurssan

من الخلف، دون سقف أو باب، عادت تنتظر الصباح، حين سألت محمّد عن بقايا الكوخ الخلفي، أخبرها ضاحكاً:

– لقد أمسى مدفناً للموتى.

لم تفهم، لتنبري أمّه موضحة:

– كلّ من يموت في درمنا، يُحفر له ويُدفن في أقرب كوخ مهجور، وإن لم يجد يُدفن في كوخه، حتى يبقى مجاوراً لمن يحبّ.

ردّت شادن بتعجّب:

– أحبّ أن أسكن مع الأرواح.

– ولمَ لا؟ محمّد سيتكفل بذلك من غد.

خلال يومين جلب محمّد فروعاً لأشجار وسيقاناً قويّة، ثمّ باشر بإصلاح الكوخ حتى أمستا تدخلانه من باب داخلي.

لم تكن العمياء قد أصابها الخرف، وليست كما بدت في أول ليلة طاعنة في السنّ، قضتا الوقت في الحديث إليها، تردّد هنهنات هازّة رأسها، وشادن تحكي حكايتها ملفّقة دون أن تطلب منها ذلك، محاولة تبديد تحفظها، بصوت يستدرّ الشفقة: تيتّمت وأختي صغيرتين بعدما مات والدانا، ليسومنا أقاربنا ألوان العذاب، فررنا من بينهم، ولأيّام طويلة نسافر من قرية إلى أخرى حتى وجدنا ابنك محمّد، وكم نحمد الله أن اصطحبنا إليكِ، نشعر بمحبّتك في قلوبنا، ولذلك أرجو أن تقبلينا ابنتين لك. تستمرّ شادن في حكاياتها لتحرّك العمياء عينيها المطفأتين رافعة وجهها إلى السقف بهزات متوالية، لتوقف رأسها وتلتفت كأنّها تنظر إلى شادن: محمّد ولد طيّب. بعض نساء درمنا يطمعن فيه، أتعرفين لماذا؟ ودون أن تنتظر الردّ واصلت: لأنّه لم يتعوّد التسوُّل مثل البقيّة، ولا يسرق، يجمع ما يحتطب ويقايض به ما نقتات به، كما يجمع عيدان وجذور شجيرات «الشرز» ذات الرائحة الطيّبة ويبيعها للنساء، مقابل ذلك يتفضّلن عليه

t.me/qurssan

بحبوب الذرة والبنّ، وأيضاً بأغصان القات وممّا يزرعون، وأنا كما ترين لا أستطيع الخروج أو الدخول إلّا بمساعدته، أخاف أن تأخذه إحداهنّ بعيداً، وأشعر بأنّكما لا تهتمّان به، فكلامكما مختلف عن كلامنا وحتى رائحتكما لا تشبه رائحة الخوادم! تبادلت شادن نظرات التعجّب مع زهرة.

منذ أول يوم وشادن تراقب من شجوج كوخها سكّان الأكواخ بقلق، تراهم يخرجون مع خيوط الشمس، لتسمع جلبة عودة أسرابهم بعيد الظهيرة، فرحين بأغصان القات وما جمعوه من طعام. وترى محمّد يخرج حاملاً فأسه وحباله على كتفه، يتبعه كلبه في طرق مختلفة، وحين يعود، يكون وحيداً، يجالس أمّه يمضغان القات. شادن تنصت لعلّها تسمع ما يشفي غليلها، لكنّ أحاديثه لا تتجاوز ما يصنع بيومه. تتمنّى أن يتحدّث عمّا يتحدّث به الرعيّة، أن يذكر ما سمعه عن نشاط حرّاس الحصن، أو يأتي على ذكر والدها، لكنّ كلامه لا يحيد. يوماً بعد يوم تملّكت شادن حيرة، فتساءلت: أين ذهب ذلك الفتى الذي ظهر حول تلك البركة حاملاً فأسه مهدّداً، وهذه النظرات التي ما فتئ يرسلها لزهرة؟ تودّ أن تسأله، في الوقت الذي تخاف فيه أن يعرف بسرّهما.

ولم يكن أمامها إلّا أن تستدرجه ليخرج معها في ليلة حالكة السواد، حملت بندقها وسارا بعيداً عن الأكواخ، يتبعهما كلبه، سألته:

– ألا ترغب في الزواج؟

ردّ عليها بخجل طفولي:

– سأتزوّج أختك!

– متى؟

– حين توافق.

– وأنا، ألا تريد أن تتزوّج بي؟

t.me/qurssan

– أنت كبيرة!

– وماذا تفعل بها حين تتزوّجك؟

ضحك، ولم يـردّ، مـدّت أصابعها وأمسكت بكفّه، شعرت بارتعاش يده:

– تذهب كلّ يوم لتحتطب، بمَ يتحدّث الناس؟

– لا أتحدّث إلى أحد.

– ألا تسمعهم يتحدّثون؟

– يتحدّثون، لكنّي لا أسمعهم.

صمتت لبرهة، ثمّ رأت أن تستخدم رغبته في زهرة:

– كيف ستتزوّج أختي؟

– إن وافقت فسنكون زوجين.

– سأجعلها ترغب فيك إن أطعتني.

– كيف أطيعك؟

علت ضحكتها عالياً لتلقائيته، تتأمّل شبحه وسط العتمة تأمّل القنّاص للفريسة:

– حين ترى الناس يتكلمون استمع لحديثهم، لتخبرني بما يقولون.

– لكنّي دوماً بعيد عنهم.

– اذهب إليهم!

أدركت صمته وحيرته، انتابها قلق من أن يفكّر لماذا تطلب منه ذلك. وأثناء العودة إلى الكوخ راحت تمنّيه بزهرة، وقبل أن يصلا ربّتت كتفه:

– أنت شابّ طيّب وسأقنع أختي بأن تحبّك!

انتظرت عودته، تنصّتت لحديثه ووالدته أثناء مضغ القات، لكنّه استمرّ في حديثه المكرّر عمّا يصنعه في يومه مع الأشجار، مرّت

t.me/qurssan

الأيام وشادن تفكّر في وسيلة لمعرفة الطريق إلى والدها. إلى ذلك النهار حين عاد بحديث يضحكه:

– حرّاس الشيخ يبحثون عمّن عيونهنّ باطلة.

شعرت شادن بتلك الكلمات توقظ قلقها، نهرته أمّه وقد ظنّت أن الكلام يعنيها:

– ما لك وما لهذا الكلام يا محمد؟

– ويقولون إن عاقل القرية المجاورة سيأتي ومعه حرّاس ويصفون نساء الدرم.

زاد اضطراب شادن، فنظرت إلى عيني زهرة بقلق. وطوال الليل راحت تلحّ على زهرة بالرحيل.

ساورت شنهاص حيرة لانقطاع أخبار ابنته بعد محاولة القبض عليها، في الوقت الذي كان يعدّ العدّة فيه للتسلّل، بعدما ملّ من انتظار وعود المشايخ. وما جرح كبرياءه أنّ بعضهم أخذ يردّد «شنهاص رجل عجوز ولا كفّ يقاتل بها، ولم يعد له من وريث، ويطمع بمشيخة الوادي». دفعه ذلك للاعتماد على ذاته، متمنّياً الوصول إلى ما خبّأه من مال ذات يوم بعيد.

عرف من جولته بين المشايخ أنّ الكل يطمع في ضمّ الوادي، وقد أمسى مرداس منزوياً، بينما الفاطمي يوسّع من نفوذه.

رأى شنهاص أنّ مصلحته تقضي بسرعة عودته، فأخذ يفكّر في حيلة يتغلب بها على الحرّاس بعدما تأكّد له أنّ الوادي أمسى سجناً كبيراً، ليتسلّل دون أن يكتشفه أحد، فكّر في عدّة سبل منها: استمالة حرّاس إحدى القلاع بالمال، لكنّه أدرك أنّها مسألة غير مضمونة وقد يعتقلونه، أو أن يقاتلهم ويدخل الوادي عنوة، وقد يلفت الأنظار بذلك، والعبور من المنفذ فيه خطورة، وقد يستدلّون عليه من كفّه.

t.me/qurssan

وبعد طول تفكير قرّر المغامرة والدخول من المنفذ دون أصحابه، يرافقه جمع من مبتوري الأكفّ، رافقوه بأجرٍ معلوم، كان معظمهم من المتسوّلين وعوامّ الناس، ولم يكن لديهم علم بخطورة ما يقومون به، كما يجهلون من يكون، وما إن اقتربوا من المنفذ حتى تباطأ أمرهم بالعبور، انشغل الحرّاس بهم ثمّ قرّروا اقتيادهم إلى الحصن مقيّدين، ليصل الخبر إلى زيد الذي هلل بأنّ شنهاص بينهم، صُفّوا أمام الشيخ الذي تفرّس في ملامحهم فرداً فرداً، لكنّه لم يجده بينهم، ليعلم أنّه كان بينهم وقد تسلّل في غفلة من الحرّاس.

وكما توقع شنهاص، ما إن وصلوا حتى التفّ حولهم الحرّاس بعدما أثاروا عجبهم بأذرعهم المبتورة، وأخذوا يسخرون منهم، دون أن يفقهوا أنّ شنهاص هو من بهرهم على حصان مزيّن بحلة زاهية، ومظهر لافت، متنكّراً بعمامة فاطمي، وثوب فضفاض بكمّين مطرّزين يخفيان ذراعه، و«توزة» فضّية تزنّر خاصرته، وقد مضى بعيداً. نظر الشيخ إلى زيد هازاً رأسه بسخرية دون أن ينطق، ليعود غاضباً إلى عزلته.

تناقل الوادي خبر تسلّل شنهاص وعدد من رجاله، ليقيم الذعر في قلب زيد الذي لازم الشيخ ليل نهار منذ ذلك اليوم، محاولاً إثارة حماسته لملاحقته ورجاله، موضحاً أنّ بينهم قارون ابن قاتل عنصيف، وأنّ شنهاص إذا تُرك يتنقل بين الرعيّة فسيكسب تعاطفهم ويعيد الوادي إلى اضطرابه القديم، شارحاً له فرصة التخلص منه بعدما وقع في المصيدة، مشيراً عليه بضرورة إرسال أكثر حرّاس الحصن شجاعة لملاحقته واقتياده لينال العقاب. لم تخب مساعيه حين نهض الشيخ رادّاً: تعني أنّ الفأر دخل القفص. وهبط ساحة الحصن، آمراً مجموعة من حرّاسه بالخروج إلى الوادي، على أن يصطحبوا عاقل كلّ قرية ويقتادوا فاقدي الأكفّ إليه. كما أمر بمجموعة أخرى من الحرّاس

t.me/qurssan

بملاحقة أقارب كلّ من تسلّل من رجال شنهاص، ومن يمتّ بصلة قربى لهم.

وبدوره زيد، حثّ أمناء المساجد في القرى على مضاعفة مواعظهم ضدّ شنهاص وابنته القاتلة، ولم تمض أيّام حتى كانت صفوف من جمعوهم في ساحة الحصن، وقد تجاوز عددهم الخمسين شخصاً، ليس بينهم شنهاص.

عقب تسلّل شنهاص إلى الوادي تخلص من حصانه واستبدله بحمار، وتنكّر بأسمال امرأة تجيد تلاوة القرآن، يحرص على طلي وجهه بمعجون الكُركم بعدما أزال شعره. يداوي الممسوسات والعواقر، ويعمل على جلب الغائب، كما يعيد الحبيب دون مقابل. يردّ على من تسأله عن اسمه «المداوية آية، هذا اسمي»، متجنّباً التواصل مع من يعرفهم، والاحتكاك بأيّ رجل. يطرق الأبواب ليستقبله الأطفال والنساء.

يرهف السمع في تنقله إلى ما تتحدّث به النساء عن شنهاص، وابنته التي ظلّ في حيرة من اختفائها، يلاحظ في تنقله حرّاس الحصن يجوبون الوادي ليل نهار بحثاً عنه وعن ابنته، يسمع عن زيد الكثير، فهو من يتابع المكلفين بمطاردته، وهو من يهتمّ وأولاده بشؤون الرعيّة، وبتشييده جدران ضريح كبير يكرّس حضوره.

كان الخوف يمنعه من دخول قريته الجفنة بعد كلّ تلك السنين، وحين يجاورها عابراً يركض قلبه وترتبك مشاعره، تاركاً عينيه تغرقان في دموع دافئة. إلى ذلك النهار حين ترك حماره يلج أزقتها متمهّلاً، يرى بيوتاً لم تتغيّر، وعيوناً تنظر إلى امرأة غريبة تجول بحمارها، وجوهاً لا يعرفها وأخرى مرّ الزمن عليها. تجمّع الصغار في أثره حتى حاذى ركام داره، بهتَ وكاد ينعق نائحاً، تاركاً للحمار أن يطوف حوله

t.me/qurssan

مدارياً دمعته، محاولاً تحديد مكمن كنزه، يتذكّر أنّه دفنه ذات مساء في الزاوية القبليّة للزريبة، أزعجه تكاثر الصبيان، خشي فضولهم. ابتعد وقد تأكّد من سلامة ذلك الركن الذي يختبئ فيه صندوقه تحت تلة ركام. ابتعد به الحمار تاركاً له المضيّ كيفما كان. يستجمع قواه ليطرق أول باب، تتجمّع حوله النساء، يعرض مهارته ويلتقط بين فينة وأخرى ما يتفوّهن حول: شادن، اعتكاف مرداس، نشاط زيد، تسلل شنهاص ورجاله، وملاحقة الحرّاس المحمومة له. قلة يثنين على أيّام شنهاص، وبعضهنّ يصفنه بأقذع الصفات، لكنّ ما أدهشه ثناء الجميع على شجاعة شادن، يذكرن اسمها بفخر قلّ نظيره. ولأول مرّة يعرف أنّ من فرّت معها لم تكن أمّها كما كان يظنّ، بل صبيّة لا يُعرف لها اسم. ظلّ يطرق الأبواب، حتى كان أمام أحدها ساهماً، تنهّد وذهبت ذاكرته إلى سنوات صباه وتلك الصبيّة عمادة، وقد أرسلها والدها إلى «المعلامة» لتتعلم الكتابة وحفظ القرآن على يدي فقيه القرية، هي الصبيّة الوحيدة بين مجموعة من الصبيان، وكانت أنجب من حولها، يشير عليها الفقيه بمراجعة ما حفظه بعض أقرانها، ومن بينهم شنهاص، حينها ربطته بها مشاعر مودّة بريئة، ويوم أكملت حفظ القرآن رتّب لها والدها زفة ووزع الحبوب المسلوقة، وقدّم لها شنهاص هديّته مصحفاً صغيراً، تطوّرت تلك المودّة إلى دفء في المشاعر ظلّت حتى بعد زواجها بآخر، وبعد وفاة زوجها استمرّ عطفه عليها، يسعد قلبه لمرآها، ويمدّها بما ينقصها.

تردّد في طرق بابها، تمنّى أن لا يكون ملاك الموت زارها في غيابه. وقف يتأمّلها بسعادة تفيض دموعاً، دعته للدخول، أغلقت الباب، همس في تضرّع بأن يحدّثها منفردين. احتضنته باكية بعد أن أفصح عمّن يكون، مدّت أصابعها تلامس طبقة الكُركم، ظلت تتأمّل عينيه. يراها صبيّة رغم تجاوزها خمسة عقود، حدّثها عن معاناة

t.me/qurssan

حبسه، وتشرّده بين الغابات والجبال، لم يخفِ عنها ما يخطط له. حوّل حيرته من انقطاع أخبار ابنته، إلى رغبته في لقياها، قال لها: لا أحد يعرف أنّني المداوية غيرك. وشكا خذلان المشايخ له، وأنّهم يطمعون في الوادي. نهضت وعادت تحمل مصحفاً صغيراً، تنظر في عينيه دامعة، قائلة:

– أتتذكر هذا؟

– لا أتذكر!

– هذا مصحفك الذي أهديته لي في «المعلامة». أنت معي منذ ذلك اليوم، ولذلك أريدك أن تسمعني، اعتبر هذا البيت بيتك، وحتى لا تلفت الانتباه أن ترحل من فورك! وأن تتخذ منزلاً تأوي إليه في إحدى القرى الطرفية، حتى إذا ما كُشفت تستطيع الهروب، وأن لا تستقبل أحداً في بيتك، ولا تفصح عن شخصك لأيّ كائن، وأن لا تحتكّ مع الرجال البتة، ولا تأتِ إليّ إلّا للضرورة. ظلّ ينصت إليها وقد تساقطت دموع عينيه ليهامسها راجياً:

– قبل أن أستودعك الله، أرجو متابعة أخبار شادن حتى إذا ما عرفتِ تخبرينني.

– بدون رجاء.

– وأن تحفظي سرّي.

– أعدك!

– وأن تساعديني في إخراج ما أخبّئه من مال.

– مال؟

– صندوق تحت قاع الزريبة، وضعت فيه ما ورثته عن والدي وما أضفته في سنوات. أرجو أن تفكّري في طريقة لإخراجه دون أن نلفت أنظار الناس.

– سأفكر.

t.me/qurssan

– والآن أستودعك حافظ الكل.

– لا تعد إليَّ إلّا عند الضرورة، وحين أريدك سأبحث عنك وأصل إليك في الوقت الذي أراه مناسباً.

مرّت الأسابيع وعمادة تبحث بين أفكارها عن طريقة لإخراج ما أراد، حتى راقتها فكرة وقد وجدتها في مداواة زوجة أحد أبنائها. خرجت ذات صباح من قريتها تبحث عنه، تعمّدت أن تطوف عدّة قرى سائلة عن مداوية تعالج بكتاب الله، وزاعمة أنّ زوجة أحد أولادها لم تنجب منذ تزوّجت، وقد رأت في منامها مداوية تقبل عليها ممسكة بطفل باسم.

وحين التقت به حدّثته عن استمرار انقطاع أخبار ابنته، وطرحت عليه فكرة استغلال عدم إنجاب زوجة أحد أبنائها، دعت مجموعة من نساء الجفنة ليحضرن مداواة زوجة ابنها حسب اتفاقها معه. وقد وقفت بين يديه تحدّثه أمامهنّ بحالة زوجة ابنها، رفع صوته منقلاً عينيه بين من حوله من النساء «أحضري لي سبعة أحجار كل حجر بحجم قبضة اليد، أحجار لم ترَها الشمس منذ سنوات، تُجمع وتوضع على نار متّقدة، ثمّ توضع تحت المريضة عارية الفرج، ويُصبّ عليها الماء». سألتها:

– أين نجد مثل تلك الأحجار؟

– من أيّ خرابة!

– في الجوار ركام دار هُدمت قبل سنوات طويلة.

– هل لي أن أراها؟

خرجت به، وحولها المدعوّات من نساء الجفنة، وقفت به في جوار ركام داره، رفع صوته يردّد مغمض العينين «ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا، ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّرْ عنّا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار... ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا،

t.me/qurssan

ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا». ثمّ صمت كمن يبحث عن شيء في ركام الدار، مشيراً إلى أحد أركانه «هناك في وسط ذلك الركام ابحثن عن حاجتنا». لم يطل الأمر وقد تسابقت النسوة بالحفر، وكلما أخرجن حجراً عرضنه عليه، يتأمّله ثمّ يهز رأسه بالرفض، ومتى ما كان الحجر مناسباً يغمض عينيه ويتلو «ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير». وهكذا حتى رأى أنّ الحفر قد وصل إلى العمق المناسب، رفع وجهه إلى السماء ليردّد «ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رَشَداً». ثمّ مشيراً بكفّه اليسرى بأن يوقفن الحفر، مركزاً نظراته على ما أمامه من أحجار، ثمّ رفع صوته ناظراً إلى السماء «ربّنا هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعينٍ واجعلنا للمتّقين إماماً، اللهمَّ آمين». وما إن وقف حتى شاهد حشداً كبيراً من الصغار وبعض الرجال على مقربة يتابعون ما يدور، سار غير مكترث عائداً خلف عمادة ومن حوله جمع النساء باتجاه بيتها.

مع هدأة الثلث الأخير من الليل استطاعت عمادة إخراج الصندوق، وقبل أن يغادر بيتها، أضافت ناصحة: اليوم لديك القليل من المال، تستطيع أن تصطفي رجالك وتمدّهم بالقليل القليل منه. لكن عليك أن لا تلتقيهم في زيّ المداوية، وأنصحك بأن تختار ستار الليل لتذهب إلى من تنتقيه وتلتقيه دون تنكّر، كن حريصاً أشدّ الحرص ولا تجعل أحداً يعرف أنّك المداوية آية.

أخذ ما يعينه ثمّ استودعها صندوقه ورحل، استمرّ متنقلاً، يطرق أبواب النساء، يعرض عليهنّ مهاراته، يتلو عليهنّ ما تيسّر، فيما كان يرهف السمع باحثاً عن خيط يطمئنه عن ابنته، مهموماً بلقياها.

يعود إلى بيت عمادة بين فينة وأخرى، مندهشاً من ظهور عوارض حمل زوجة ابنها، وكذلك يردّد البعض شفاء مريضة أخرى كانت تعاني من الصرع، وثالثة عاد الودّ بينها وبين زوجها، ورابعة

t.me/qurssan

جاءته وقد تخلّصت من مسّ كاد يطير بعقلها، ينزوي شاكياً حيرته من استمرار انقطاع أخبار ابنته، تنصحه: دع الهمّ بشادن حتى يظهر لها خبر، وتفرّغ للإعداد والترتيب لمقارعة الحصن.

انشغل شنهاص باصطفاء من يرى فيهم الثقة، كانت خطواته تجري بحذر شديد، يزوّدهم بالقليل من المال لشراء بنادق ورصاص وإخفائها عن الأعين، لم يكن يعرّف أيّاً منهم بالآخرين، مكلفاً كلّ فرد باستقطاب من يثق بهم، وأن يكون تواصلهم سرّاً، ظلّ حريصاً على ألّا يعلم كلّ فرد بأفراد مجموعته. يعود ليحدّثها بأدق الخطوات التي أنجزها، يبشّرها بأنّ له شبكة واسعة تغطي قرى «غرب الوادي».

ظلّ اختفاء بنت شنهاص يشغل الجميع، ليتزايد قلق زيد من التقائها بأبيها الذي تماهى مع خبر تسلله ولم يعرف إليه طريقاً، ولا إلى رجاله، ولذلك تساوره الشكوك في أنّه لم يتسلل إلى الوادي بعد، لكنّ شكوكه تلك تبخرت حين جاء من يخبره أنّ شنهاص التقى بعض الرعيّة، ليحلّ اليقين بوجوده في الوادي. زاد زيد من إلحاحه على الشيخ بضرورة الخروج، ليتزايد شكّه في نيّات مستشاره، ويخشى أنّ له أطماعاً غامضة، وليس كما يدّعي حبّاً وإخلاصاً له. ولذلك سأله بتهكم:

– أين وصلت في بناء الضريح؟

أدرك زيد عدم براءة السؤال، لكنّه ابتسم وهو يراه ضعيفاً ولم يعد له غير لسانه، ولذلك رأى أن لا يظهر بمظهر القوي. كبت غيظه وفي هدوء أجابه بدون مراوغة:

– قارب على الانتهاء.

مدركاً أن يقظته متأخرة، فلم يعد يمتلك القدرة على تجاوزه، وبدون أن يأمره كما كان في سابق أيّامه، أخذ يحثّه متسائلاً:

t.me/qurssan

– ألا ترى أنّ أمر شنهاص وابنته قد طال؟

ابتسم لتلك اللهجة وقال:

– نعم.

ذلك اليوم لاحظ مرداس خطاب زيد الذي تحوّل وكأنهما ندّان، يتكلم كما لو كان صاحب الأمر، بل كمن اكتفى بنفسه، ظانّاً أنّه الوالي على الوادي. لحظتها أضمر مرداس أن يبعث برسالة إلى ابنه جمال يستحثه سرعة العودة، وكانت العقبة من سيحملها إلى صنعاء لإرسالها، فكّر في اللجوء إلى أم جمال عيشة، أن يناقش معها أمر شكوكه في نيّات زيد، لكنّ الخجل كبّله وهو المجافي لها منذ طلاقها. ابنتاه لا يعرف أنهما خرجتا يوماً من بوابة الحصن، يتحسّر على عدم تزويجهما، متخيّلاً وجود زوجيهما وأولادهما حوله. لأيّام ظلّ يفكّر ليقرّر الركون إلى عاقل قرية المنحدر، ولم يبطئ حين أرسل في طلبه بعيداً عن أعين فاطم، محذّراً إيّاه من عدم معرفة زيد بذلك أو أيّ أحد، وبالفعل خرج من الوادي في طريقه إلى صنعاء لإيصال الرسالة لمن سيرسلها إلى مصر من صنعاء، وقد ضمّنها «ابني الغالي وقرّة عيني الولد الصالح الشيخ جمال مرداس حماه الله ورعاه... ولدي الكريم، غرض رسالتي إليكم السلام والاطمئنان على أحوالكم بعد انقطاع رسائلكم وأخبارك عنّا، يساورني القلق من ذلك، نحن بخير ووالدتك بخير، وما ينقصنا سوى رؤية وجهك الطاهر، وأخبار دراستك. ولدي ومهجة فؤادي، لا أخفيك أنّ الطامعين بمشيختنا كثر، فشنهاص فرّ من محبسه ويعدّ العدّة بمؤازرة مشايخ المخاليف الأخرى للهجوم، لكنّي قادر على ردعه، ولكن ما هو أدهى أطماع الفاطمي زيد، مستغلّاً وحدتي وكبر سنّي، وأظنّه الآخر يعدّ العدّة للتسلط على الوادي، بعد أن ائتمنته ظانّاً برعايتنا له طول سني عمره، ولا أخفي عليك أنّه يشيِّد ضريحاً كبيراً في قريته الهجرة يدّعي أنّه

t.me/qurssan

للمهاجر الأول من سلالتهم، ويساورني الشك في أنّه يريده مزاراً، كما كان ضريح جدّك الكبير قبل هدمه رمزاً لسلطاننا، ولم يعد لديّ من أعتمد عليه بعد أن تراكمت عليّ سنوات العمر، ولم يعد لي أمل إلّا فيك. ولدي الغالي وقرّة عيني، نحن ننتظرك والوادي ينتظرك، فأنت شيخه ووارثه، العَجَل العجَل قبل فوات الأوان، والدتك تسلّم عليك وأختاك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم تكن عيشة بعيدةً عمّا يدور، تتابع أنشطة زيد وركون الشيخ إليه، لكنّ ما كان يشغلها هو انقطاع رسائل ابنها، ولا تجد وسيلة للتواصل معه، وتشعر بالعجز وهي ترى كلّ شيء يسير في اتّجاه لا يصبّ في مصلحته. ولم تعد تأمل خيراً من مرداس الذي انكفأ على نفسه تاركاً كلّ شيء لنسيبه الفاطمي، ولا تعرف هل هو عجز منه، أم يأس، أم هو يظنّ أنّه يسير في الطريق الصحيح.

استأنست عيشة بالوحدة، حتى إنّ ساكنات الحصن ينسين وجودها لأيّام، حتى إذا ما التقين بها في مناسبة أو زيارة، تذكّرن وجودها، وتلك الزيارات نادرة بينهنّ، خاصّة في السنوات الأخيرة، تساورهنّ الدهشة من أسلوب حياتها. فابنتا شبرقة منسيّتان منذ موت أمّهما، وفاطم تعاني الأوهام ظانّةً أنّ من في الحصن وراء تعاستها. ولذلك تحوّلت دور الحصن إلى جزر منفصلة.

كانت رسائل جمال تصلها وقد خطّ اسم والده على غلافها الخارجي، في أولى رسائله كان الشيخ يفضّها ليجدها موجّهة إلى عيشة، ثمّ عدل عن فضّها مكلّفاً من يوصلها إليها. ولم يكتب إلى والده قطّ، وبدوره الشيخ لم يبعث إليه منذ غادر. ومنذ انقطاع رسائله تخرج والدته السابقة منها، تبسطها أمامها متجاورة، تترك لعينيها أن تسرحا، ثمّ تعيدها بعناية إلى مرقدها كنفائس. ونادراً ما

t.me/qurssan

تستعين بخادمتها أمّ شادن لإعادة قراءة بعضها. تساورها ظنون بأنّه يبعث إليها برسائله، وأنّ أحداً ما يخفيها، بحثت عن وسيلة لتتأكد من ظنونها، لكنّها لم تصل إلى نتيجة.

تدمع عيناها ألماً على حالة الحصن وما آلت إليه... زوج لم يكتفِ بتطليقها، بل حرّم عليها الخروج أو استقبال أيّ أحد من خارج الحصن لزيارتها، حتى أفراد أسرتها... تساورها الشكوك في أن يكون هو من يحتجز رسائل ابنها. وما كان يؤلمها أكثر أنّه لم يولِ ابنها يوماً اهتمامه كما كان مع أبناء شبرقة، ما أثّر على ابنها الذي لم يبدِ أيّ اهتمام بشؤون الوادي، ولم يشابه إخوته في شغفهم بالمشيخة، ولا أخذ من والده ولو القليل من حبّ التملك والتسلط. لم تكن تعرف أنّ ابنها استمرّ في بعث رسائله إليها، ولم تنسِه إيّاها واجباته الدراسية بعد أن تخصّص في مجال الدروع، ولم يكن ينتظر منها ردّاً فهو يدرك صعوبة ذلك.

في القاهرة حرص جمال على إقناع نفسه بأنّ الإنسان بإرادته يستطيع أن يتجاوز العقبات، فرغم ميله للّين ثابر على التحصيل والتفوّق، حتى لا يمنح من حوله فرصة النظر إليه كطالب رقيق الطبع، تحمّل تلك التدريبات العنيفة، والانضباط الشديد، ولذلك كان داخل الكليّة طالباً معروفاً بين زملائه وأساتذته بالالتزام والتفوّق، ولم يكن يجرؤ على إظهار ميله للّين، رغم إحساسه بوجود أمثاله بين الطلبة، فهو داخل الكليّة غيره خارجها. ينتظر الإجازة ليطلق لروحه العنان، وليعوّض ما يفتقده خلف أسوار الكليّة. حين يخرج من البوّابة يعرف إلى أين ينطلق، متحاشياً مرافقة زملائه. فلا تنقصه الوسامة ولا الطول، اعتاد الاعتناء بمظهره ونظافته الشخصيّة منذ طفولته، ولذلك يبدو مختلفاً عمّن سواه من الدارسين اليمنيّين، مفضّلاً عدم ظهوره بلباسه العسكري.

t.me/qurssan

مع مرور الأيّام كان جمال يتصوّر اليوم الذي سيغادر فيه مصر إلى صنعاء. يفكّر في كيفيّة حياته بعد عودته وقد أصبح معلماً لطلبة عسكريّين، يرى نفسه بمظهر وانضباط مقنع، وتصرّفات تتّسم بالخشونة. كثيراً ما أقلقه التفكير بيوم العودة. يتمنّى لو أنّ الحياة تستمرّ بعيداً.

جنح زيد للعمل الهادئ بعد تهكّم مرداس من بناء الضريح، معتمداً على عيون له في متابعة تواصل شنهاص مع الرعيّة، راصداً أولئك الخونة، ثمّ كلّف فرقة سرّية بزيارة بيوتهم فجراً، يقتحمونها فجأة بتكسير أبوابها ونوافذها، ينتزعون أرواح ساكنيها ببلطات وفؤوس تهبط على رؤوسهم وأضلاعهم، وبسكاكين تُحزّ بها رقاب ضحاياهم، وحبال يطوّقون بها رقابهم، ولا يغادرون إلّا وقد أشعلوا النيران في أركانها، ليتنفس الصباح على حريق التهم كلّ شيء يصاحبه عويل الجيران ونحيبهم، ليهمس البعض بأنّه سمع ليلاً أصواتاً زاعقة، وآخرون بأنّهم سمعوا تهشيماً ثمّ سكن كلّ شيء. وهكذا ليلة بعد أخرى انتشر رعب زوّار الفجر في قرى الوادي. وقد أشاع أمناء المساجد بين المصلين أنّ وراء تلك المذابح شنهاص وابنته، مؤكّدين أنّهما يتخفّيان بأردية الليل لتنفيذ جرائمهما، يدعون الرعيّة لملاحقتهما، ويحرّضونهم على قتلهما، بينما كان البعض يهمس بخوف أن من وراء ذلك زيد.

سأل الشيخ مستشاره عن تلك الحوادث، فابتسم منتشياً وهو يرى مرداس عاجزاً حتى عن فهم ما يدور، ليردّ عليه: يقول الناس إنّ شنهاص وابنته وراء كلّ تلك الجرائم.

أمست فاطم شبيهة بزوجها مرداس، تعيش الوحدة وقد بدأ حلمها بطفل يذوي يوماً بعد يوم، لتجد نفسها وقد تعوّدت حياتها

t.me/qurssan

بعيداً عن أنظار من حولها، وإن أظهر لها والدها حرصه على إعادتها إلى ما كانت عليه من تواصل مع من حولها، أن تهتمّ بأبسط ما يتفوّه به زوجها وبكلّ تحرّكاته حتى لو كانت بداخل داره، ورصد من يتواصل معهم، منبّهاً إيّاها بأنّه مشغول عنه بملاحقة شنهاص ومن يتواصل معه، وكذلك استكمال الضريح. يشرح لها مقدار الجهود التي يبذلها وجهود إخوتها الذين ينشطون كلٌّ في ما أوكل إليه، لتفاجئه ببكائها.

– ولماذا البكاء والنواح يا ابنتي؟!

– وأنا؟ أين أنا من كلّ ما تحدّثني عنه؟

– أنت قرّة عيني وما كلّ ذلك العناء إلّا من أجلك ومن أجل إخوتك!

– لكنّي لا أريد شيئاً، لا أريد شيئاً، ولا يعنيني كلّ ذلك التعب!

صمت فاغر الفم وكأنّ من أمامه ليست فاطم صاحبة الابتسامة والكلمات المشجّعة.

– ستقولين إنّني لا أتمنّى ما تتمنّينه يا ابنتي الغالية.

– لا أحد يهتمّ بي، ولا أحد يسألني عن حالتي، ما أسمعه منكم دوماً أن أهتمّ بما يدور في الحصن، وأن أرهف السمع للعجوز مرداس ولنساء الحصن.

– لقد بذلت جهدي معك، ولا أعرف كيف أساعدك!

– أن تتركوني لوحدتي لعلَّ الله يتقبّل منّي.

أطرق أرضاً بصمت وحيرة من دموع ابنته وكلماتها:

– لا أحتمل رؤية دموعك، وشعورك هذا، فأنت ابنتي الغالية، فلست كما تتصوّرين ولست أنانياً، لكنّها الأقدار يا بنيّتي، وعليك أن ترضي بالمقسوم، ولا تأتمني الغرباء.

خرج مصدوماً من حالة ابنته، تلاحقه كلماتها، لا يعرف إلّا أنّه شاور أمّها، ورجاها بإقناع أن تطمئنها بأنّ الجميع يشعرون بها

t.me/qurssan

ويقفون معها: لا أريدها أن تموت حيّة، العزلة تعني الموت، وعليك أن تقنعيها بأن تنفض عزلتها، حثَّ والدتها بعينين دامعتين ناقلاً مخاوفه على فاطم من الانطواء على ذاتها.

قرّر خال قارون العودة إلى الهجرة، ترك زوجته وأولاده ليفرّ من الوادي بعدما وصلته أخبار تحرّكات حرّاس الحصن ومداهماتهم لبيوت أقارب المغضوب عليهم. ودَّع أسرته ليلاً وهو في طريقه إلى عدن. وأثناء تسلله خارج الوادي سمع أنّ ابن أخته قارون في إحدى القرى، ليلتقي بشابٍّ تجاوز السادسة عشرة، يشابهه في أشياء كثيرة: عينيه الضيّقتين، شفتيه، قامته القصيرة، وكأنّه هو في سنوات صباه، فاضت عيناه، وقد تذكّر أخته الراحلة، فعزّاه فيها... صُدم قارون لخبر مقتل أمّه. وكأنّ ما ينقصه هو موت أمّه، ليزيد من عبث التشرّد والضياع. دعاه الخال للرحيل معه، يحدّثه عن بلاد ليس فيها مشايخ، ولا اقتتال، بل أودية على مدّ البصر. حدّثه بأنّه عاهد شنهاص على اللحاق به، لمناصرته في مقاتلة مرداس، ليقف صاحبه عرّام مؤيّداً فكرة الخال مردّداً «أرض الله واسعة يا صاحبي». احتار قارون بين عهده للشيخ شنهاص، ودعوة خاله ورغبة عرّام في الهروب بعيداً، لتنتصر كفّة عرّام الذي كان يقلّد صوت شنهاص ساخراً «يا قارون، اترك هذا الشيوعي، سيفسدك يا ولدي، وأدعوك إلى طريق الله» ولم يكن يعرف عرّام إلّا أنّ كلمة شيوعي شتيمة.

وسط برودة ذات صباح، انتظم صفّ قصير في أطراف الدرم أمام عاقل إحدى القرى وعدد من حرّاس الحصن، لم يكن غير خمس ممّن فقدن عيونهنّ، وقد تجمهر من الصغار والكبار حولهنّ، في الوقت الذي كانت فيه شادن تلوب داخل كوخها في خوف كاد يفقدها صوابها، مرّ ذلك الصباح بطيئاً وثقيلاً حتى عادوا بالعمياء

t.me/qurssan

إلى كوخها، ليغادر العاقل ومن معه خالي الوفاض. سألتها شادن عمّا يحدث، فأخبرتهما العمياء: يقولون إنّ الشيخ أرسلهم يطوفون القرى والأدرام باحثين عن امرأة فرّت من الحصن.

منذ ذلك اليوم قلّ حديث شادن إلى العمياء، تشعر بأنّها ترى وجهها، تمدّ يديها لتغطّي عينيها، ترهف السمع حين تتحدّث إلى ابنها، تسأله هامسة عن ملامحهما فلا يشفي شكوكها، حتى هامسها ذات نهار بأنّ شادن ذات عاهة في عينها. ومن لحظتها عادت إلى صمتها، ولم تعد كما كانت تتحدّث إليها. إلّا أنّ زهرة ظلت بحاجة إلى حكاياتها، تتقرّب إليها، في بداية الأمر جلست إليها ممسكة بكفّيها، تتأمّل تجاعيد وجهها القريبة إلى نفسها، تتملّكها السعادة وقد وافقت على غسل يديها ووجهها، أو تفلّي شعرها، لتجد العمياء تعود إلى طبيعتها وقد خرج همسها كأنين شجيّ. ويوماً بعد يوم أخذت تدندن، تشعر بحركة زهرة وهي تنظف فراشها، تزيل مخلفات وبقايا أطعمة قديمة. ومع قدوم الليل تصطحبها خارج الكوخ لقضاء حاجتها. مع الأيّام ترفع العمياء صوتها ببقايا أغانٍ وكأنّها تغنّي لنفسها، لم تكن تعرف زهرة أنّها ستطرب لذلك الأنين، حتى ذلك الصباح حين صاحبتها مدندنة، ما لبثت العمياء أن رفعت صوتها.

تسألها زهرة أن تحدّثها عن حياتها، وكأنّها كانت تنتظر ذلك، فتتدفّق كلماتها: لم أكن منذ وُلدت عمياء، كنت صبيّة في مقتبل العمر حين وفد إلى درمنا البعيد خلف تلك الجبال، رجل وحيد في عمر أبي، شعره مرسل، ووجهه يبثّ السعادة، ملابسه غريبة، حتى كلماته ينطقها بليونة، لا أحد يعرف من أين أتى، كان الجميع يتحاشونه حتى تلك الليلة حين أشعل بعضنا نار ساحة الدرم، تقاطر بعضهم حولها، رأيته وقد جلس ممسكاً بمزماره بين أصابعه ينظر بشغف إلى ألسنة النار، يبتسم بين وقت وآخر، بعد وقت رفع مزماره

t.me/qurssan

إلى شفتيه وبدأ بالعزف دون أن يبعد ناظريه عن النار، خُيّل لي أنّ ألسنة النار تتراقص لنغماته، تمايل البعض في مكانه طرباً، وتوافد من بقي في الأكواخ لتتّسع دائرة اللهب، نهض قلّة يرقصون على نغماته، ارتفعت أصوات جوقة صبايا يجارين عزفه. كانت نظرات الحضور ملتصقة بوجهه، سحرني عزفه وشعرت به يتغلغل إلى مسامعي وروحي، في لحظة التقت عيوننا، شعرت بمسّ يهزّ وجداني، ابتسم فابتسمت له. كانت المفاجأة حين حضر صباح اليوم الثاني يفاتح والدي بأنّه اختارني زوجة له، تعجّب أبي وهو يراه في سنّه، ثمّ التفت إليَّ ليرى ابتسامة تغطّي ملامحي، قال لي: إن كنت ترغبين فاذهبي معه، فبرغبتكما تصبحان زوجين. ومن يومها خرجت من الدرم أرحل معه بين القرى، علّمني كيف أغنّي. وراقصني حتى أجدت الرقص على أنغامه. كنت صغيرة وهو رجل كبير، حين ينفخ مزماره أشعر بروحي تئنّ منتشية، أبكي فرطاً وأرجوه المزيد. ظننته سحرني، لكنّني حين رأيت مزماره يسحر من يسمعه عرفت أنّه ليس ساحراً. ودوماً يردّد: أنا لا أزفر هواءً بل هي روحي تسكن اليراع.

ومع طوافنا وصلنا إلى وادي مرداس ولنا صبيّة تجاوزت العاشرة، وأخوها هذا محمّد كان لا يزال صغيراً، وكان زوجي قد أمسى هرماً، وإن ظلّ عزفه شجيّاً لا يماثله عزف، لم يطل به المقام، فمات لندفنه هنا في كوخه الذي نجلس الآن فيه، ومن يومها لم أنتقل من هذا الدرم. ولم يعد لي بعد موته رغبة في الرجال أو الرقص والغناء، برحيله مات شيء في روحي. شبّت ابنتي وظهرت مفاتنها، تزوّجت بشابّ تحبّه، وسكنا الكوخ الذي تسكنانه الآن، ولم يطل بهما المقام، حيث رحلا معاً، ولم يعودا إلينا، وتركا كوخهما مقبرة لمن مات، ضاع زوجها وضاعت منّي، وذهب نظري بعدها.

– كيف ضاعت؟

t.me/qurssan

– في يوم عيد جاء رجال عنصيف ابن الشيخ مخيّرين سكّان الأدرام بين الرحيل خارج الوادي أو الموت، صعد الجميع يتسوّلون الحصن للبقاء، قبِل عنصيف تسوّلهم مشترطاً أن يعمل المقتدرون في مزارعهم، وكانت ابنتي وزوجها بين المقتدرين، عدت وصغيري محمّد مع من عادوا من كبار السنّ والأطفال، ومن يومها لم أرَ ابنتي، إلى أن جاء من يخبرنا أنّ زوجها قُتل، ثمّ بعد موته بسنين جاء خبر موت ابنتي، بكيت كثيراً، وأصيبت عيني برمد أبيض، عانيت منه ولم يتركهما إلّا وقد سرق بصري. غابت عنّي ألوان الحياة، ولولا هداية الله لابني محمّد لكانت حياتي عذاباً.

مع تلك الحكايات تسرّب شكّ إلى قلب زهرة في أنّ من تجالسها هي أمّ أمّها، ففضّلت الاحتفاظ بذلك الشك وعدم البوح به لأحد، ليزداد شغفها بحكايات العمياء، تسألها المزيد، فتردّ عليها بحنان: أنا لا أراك، لكنّي أشعر بأسى يسكن قلبك، كما أحسّ من صوتك عشقك للحياة وللمغنى. وتطلب منها إذا ما غنّت أن تغمض عينيها، وأن تترك لبدنها أن يهتز مع صوتها، وتتمنّى عليها أن تصاحبها حين تغنّي. كانت شادن تتابع تلك العلاقة وتسعد أنّ زهرة استطاعت أن تقترب من العمياء. تتابع وقد أخذت زهرة تساير بصوتها أغنية التقطتها العمياء من قعر ذاكرتها، يرتفع صوتاهما وقد أغمضت زهرة عينيها منتقلة إلى عوالم من الوجد، شعور بالسكينة يطوّق شادن وهي تسمعهما، تلك الأحاسيس تنسيها هموم واقع يلاحقها، وتشعر بأنّ صوتيهما يسكنان روحها. يوماً بعد يوم تغنّيان معاً، يشعرها الغناء بالأمان. وفي يوم طلبت العمياء من زهرة أن تبحث عن مزمار في أحد الزنابيل المعلقة. بعدما وجدته أخذت تقلبه بين يديها، يراع حفر ثقوبه الجمر. يغطّي أطرافه دبق متيبّس، قالت لها:

– لمن هو؟

t.me/qurssan

– هذا لزوجي، هو لك، حرّريه من صمته.

جرّبت زهرة النفخ فيه، لتخرج منه أصوات جافة، سمعت ضحكة العمياء:

– خُلقتِ لتغنّي، وذلك المزمار أمانتك، ستجدين يوماً من يجيد زرع روحه فيه، أمانتك أن لا يظلّ مهجوراً.

– وابنك محمّد؟

– لقد حاول مراراً، لكنّه لا يملك روح المغنى.

تدندن زهرة وقد انشغلت بتقليب المزمار بين أصابعها، ثمّ تخفيه بفرح طفولي بطرف طرحتها، وقد تعلمت أنّ المغنى بوح الروح.

الصباح موعد مجالستهما، كلّ منهما تتأهّب لتستمع للأخرى، تبدأ زهرة بسؤال، ليتدفق صوت العمياء بحكايات جديدة، تتساءل زهرة: لماذا لم تطلب منّي أن أحكي عن نفسي كما أطلب أنا منها؟ وتتعجّب حتى إنّها لم تسألها عن اسمها أو بنت من تكون، ودوماً تصفها بـ«ابنتي». تعرّفت زهرة من حكاياتها إلى حيوات لا تشبه حياة حصن مرداس، ولا تشبه حكايات شادن، وأنّ حياة الترحال لا تهتمّ بأن يكون لك سكن، ولا أن تفكّر بالغد وهموم المعيشة. تردّد العمياء حين تسألها زهرة:

– لماذا لا أجد في حكاياتك الهمّ بالغد؟

فتردّ عليها ضاحكة:

– يا ابنتي يومنا عيدنا.

رحل الثلاثة عبر أودية متداخلة وجبال لا تنتهي، يحدّثهما الخال عن سنواته الطويلة في مدينة بشرق السودان اسمها القضارف، عاش فيها سنوات يزرع في سهولها الواسعة حبّ العزيز (فول

t.me/qurssan

سوداني)، حيث غيث السماء الجواد، وبحر السهول الواسعة، وعن تمازج الأحباش بشباب الغرب والجنوب حين يلتقون في مواسم الحصاد، يصوّر لهما المستقبل وقد أضحوا مزارعين، يمنّيهما بوفرة المال والحياة المستقرّة. قارون يحاول تصوّر حياته الجديدة بعيداً عن واديه، الذي لم يعطه غير اليتم والحبس والتشرّد، يحاول تخيّل صفحة جديدة من عمره، تاركاً قلبه هناك حيث روح أمّه.

قطعت بهم الدواب بلداناً يتقاسمها مشايخ كثر، فيها الرعيّة يشابهون رعيّة وادي مرداس، كلّ شيء حق الشيخ، ليتبيّن أنّ شعب اليمن أودية تتقاسمها حصون تشابه في سطوتها وتسلطها حصن مرداس. بعد أيّام من السفر وصلوا إلى مدينة قعطبة الصغيرة ومنها أقلّتهم سيّارة «لاند روفر» لتعبر بهم بلاد شعيب الضالع مروراً بيافع والحبيلين وصولاً إلى حوطة لحج، ومن أراضيها المنبسطة أشار لهما الخال إلى نقطة دكناء في طرف الأفق، جبل شمسان. ظنّ قارون أنّهم سيعبرون من عدن إلى السودان كما عبروا البلدان السابقة، لم يتصوّر أن يرى بحراً بذلك الاتساع.

غادرهما الخال إلى السودان بعد أيّام من وصولهم إلى عدن واعداً بإكمال وثائق سفرهما وإرسالها من الخرطوم خلال أيّام، لكنّ الأيّام تمضي وتلك الشلنقات التي تركها لهم تتناقص، حتى صرفا آخر قطعة، عانيا النوم على الأرصفة والحدائق، تذوّقا الجوع، فلم يكونا يجيدان إلّا حمل البنادق. دلّهما أحدهم على «دكة معلا»، تعرّفا هناك إلى عمّال قدموا من جبال بعيدة. أسكنوهما بينهم، واصطحبوهما صباحاً لتحميل «البوابير» من السفن الراسية على الأرصفة. أثقال بالات أضعاف حجم قارون. انسحب عرّام يواسيه شاعراً بذنب اقترفه حين أقنعه بالرحيل برفقة الخال. يقاسمه لقمته ويردّ عنه سخرية الساخرين لفشله.

t.me/qurssan

عاد قارون يذرع الشوارع وحيداً، يتأمّل تلك المعارض الكثيرة، تعجبه «مانيكانات» عروض الملابس من النساء، حركة الناس، تحاصره الغربة ويحنّ للعودة إلى الوادي.

لا تجرؤ شادن على الخروج نهاراً من الكوخ، توزّع وقتها بين سماع منادمة زهرة والعمياء، واستراق النظر من شجوج الكوخ إلى حركة الشوارع الخلفية، وبين النوم، حتى إذا ما عاد محمّد تنصت إلى حديثه وأمّه. وما إن يحلّ الليل حتى يحيطها بسكينته مانحاً روحها الأمان، تبتعد ومحمّد عن الدرم محاولة الفكاك من شعور يكبّلها وكأنّها لم تتحرّر من أسر الحصن، تنسى كلّ غمّها وهو يحدّثها: رأيت حرّاس الحصن وعقّال القرى يبحثون عن رجال دون أكفّ، قالوا إنّهم تسللوا إلى الوادي ليقتلوا الناس.

تلك الليلة عرفت أنّ والدها قريب منها، وأنّ عليها أن تغامر لتلتقي به، تفكّر كيف تستدلّ على الطريق إليه. ظلّت لليالٍ تستمع إلى محمّد، تعده بزهرة إن حدّثها بكلّ ما يتحدّث الناس به. لم تكن تعرف أنّها بدفعه لسماع الناس كانت تلفت الناس إليه، وانتباه من تلفتهم تصرّفاته، ليستدرج أحدهم سذاجته ويعرف منه أنّ في كوخه امرأتين تختبئان منذ أيّام، وأنّ إحداهما عوراء.

فاجأها برفضه الحديث إليها، خمّنت لحظتها أنّ في الأمر جديداً، أنعمت النظر في عينيه لعلَّها تُخجله، لترى غياب ابتسامته البلهاء، تابعته وهو يجالس أمّه مهامساً، تيقنت من شكوكها، وأنّ هناك خطراً ما، ليمسي الشكّ يقيناً برفضه الخروج معها مساءً. وحين ألحَّت فاجأها رافعاً صوته:

– أنت تقتلين الناس!

– أيّ ناس؟

t.me/qurssan

– الناس وبس.

– من قال لك ذلك؟

– الرعيّة.

– أيّ رعيّة؟

– لماذا تكذبين على أمّي؟

– بماذا كذبت؟

– بأنّكما من الخوادم!

– ...

– وقالوا إنّ القاتلة بعين واحدة.

– ألا تريد زهرة زوجتك؟

– زهرة زوجتي.

– وأنا؟

– وأنتِ سيأتون ليأخذوك!

لحظتها جُنّ جنونها وقد خرجت عن طورها:

– من الذين سيأتون؟

ركن محمّد إلى صمت أمّه، بينما زهرة كانت تراقب ما يدور مرتجفة. تأكّد لشادن يقين ظنونها، وأنّ ذلك المعتوه سيقودهما إلى الموت دون إدراك. عادت تهامس زهرة بأن تستعدّ للرحيل. لم يعد لهما من خيار. خرج ليوقد ناراً أمام الكوخ، ينظر إلى داخل الكوخ تارة ثمّ إلى ناره ليزيدها حطباً، فكّرت شادن في فتح ثغرة في سياج كوخهما لتهربا من الخلف، لكنّه سمع تهشيم عيدانها، ليهبّ مسرعاً يصرخ بكلمات ملتبسة، يبرطم لائباً حول الكوخ، قرّرت شادن المضيّ قدماً نحو الباب، حين رآها تقترب من الباب صرخ:

– لن تخرجي حتى يأتوا.

– لا نريد رؤية أحد، اتركنا نمضي!

t.me/qurssan

– لقد وعدتهم.

كانت أصواتهم تتزايد وقد احتضنت زهرة العمياء التي كانت تهتز منتحبة، بينما محمّد يلوّح بفأسه أمام حلق الباب كالمجنون، ليرتفع صوت شادن وقد رأت بعض «الأخدام» يتجمّعون:

– اتركنا وسنعود إليكم.

وقبل أن تكمل تقدّم بفأسه مهدّداً:

– لن ترحلي.

استدارت حاملة بندقها، وما إن رآها حتى رفع صوته: لا تحاولي، لن ترحلي.

اضطرب صوابها وهي ترى على ضوء اللهب مزيداً من «الأخدام» يراقبون ما يدور، صرخت مهدّدة:

– سأقتلك إن وقفت في طريقي.

صوّبت بندقها مهدّدة ومحاولة الخروج، ازداد هذيانه بكلمات التهديد، ليرتفع صوت أمّه منتحباً:

– اتركهما يا ولدي واقصر الشرّ.

ردّ غاضباً:

– لن أتركهما.

خطت شادن خطوة أخرى خارج الباب، هرول نحوها رافعاً فأسه، انطلقت رصاصتها تبدّد صفوف من تجمّعوا وقد اخترقت صدره، ارتفع صراخ العمياء وزهرة التي ظلّت تحتضنها، وبعنف سحبتها شادن خارج الكوخ مخلفة محمّد أرضاً، ارتفع نباح كلبه خلفها لتستدير وتصرعه برصاصة، ازداد تجمهر سكّان الأكواخ في بلاهة وخوف يقفون، هرولتا مبتعدتين دون أن يعترضهما أحد، حتى برز رجل من بينهم مهرولاً خلفهما:

– ماذا تنتظرون، أتتركونهما تفرّان بفعلتهما؟!

t.me/qurssan

استدارت شادن، لتدوّي رصاصة أخرى شتّتت شمل من خلفه ليتواروا في الظلام، لا تعرف إن كانت أصابته أم لا، لكنّها رأته يتهاوى في العتمة، أسرعت ممسكة بـذراع زهـرة لتختفيا وسط الظلام، يلاحقهما نباح كلاب تطغى على صراخ العمياء حتى خبا. عبرتا السهل بصعوبة لشدّة الظلمة، تتوقفان بين فينة وأخرى فلا تسمعان غير صرير الحشرات، واصلتا السير حتى أطراف دغل مجرى مياه النبع.

أصيب شنهاص بإحباط لتتابع إحراق بيوت أنصاره بعد ذبحهم وأفراد أسرهم. لم يكن يتوقع ما يحدث، فاعتبر ذلك مؤشّراً لاقتراب عيون زيد منه، يتصوّر وقد حلّت لحظة اكتشافهم لسرّه. لجأ إلى عمادة يستشيرها في ما يجب عمله، ولم يكن يتوقع أن تحدّثه عن شادن: يقولون إنّها قتلت خادمين حاولا اعتقالها، ثمّ فرّت إلى الجبال، وإنّها تؤاخي السباع. ذلك الخبر أعاد له الأمل بلقياها. لكنّها حذرته من أن يجعل عاطفته مصيدة تقوده إلى حتفه، كما رجته أن يضع كلّ همّه لردع زيد بعمل مماثل لما يقوم به تجاه أنصاره.

انشغل شنهاص بزياراته المتكرّرة لهجرة الفواطم، يخطّط لتنفيذ أول هجوم، اقترب من دور زوجات زيد، ليختار دار إحداهنّ بعد أن سمع أنّ زيد يبيت معظم لياليه في جوارها لصغر سنّها، ثمّ التقى بمجموعة من مناصريه في بيت أحدهم ليلاً:

– إن لم نبادر إلى ردعه فسيرسلكم رجاله إلى الآخرة الواحد بعد الآخر.

ردّ أحدهم بيأس:

– وما العمل؟

– جمعتكم الليلة لنخرج معاً ننفّذ عملاً بسيطاً، فإن ارتدع زيد وإلّا فستكون هجمات متتالية.

t.me/qurssan

كان شنهاص حريصاً على أن لا يعرفوا قطّ أنّه تلك المداوية التي تطوف القرى وتزور نساءهم، وقد عرفوه حليق اللحية والشارب، يعتمر شالاً، متزنّراً بجنبيّة. قادهم تلك الليلة ليعبروا الوادي باتّجاه هجرة الفواطم. ولم تشرق شمس اليوم التالي حتى كان الوادي يتحدّث عن مقتل إحدى نساء زيد وأطفالها وجميع من في الدار من خدم، ليعرف شنهاص أنّ زيد أفلت منها.

من سمعوا ذلك الدويّ عرفوا أنّه انفجار نواسف قلبت عالي الدار سافلها. نشط بعدها أمناء مساجد القرى في بثّ شائعاتهم بأنّ من نسف دار زيد هو من يحرق دور الرعيّة. بعد تلك الليلة عاد السكون المحفوف بالحذر يعمّ الوادي. وأخذ كلّ طرف يعدّ لجولته التالية.

أرسلت زوجة زيد الكبرى وأمّ فاطم من يجلب إليها المداوية، ليُفاجأ شنهاص ذات نهار بمن يتبعه: لقد أرسلتني زوجة المستشار زيد لكي أصطحبك إليها!

ارتبك هابطاً عن دابّته، يتأمّل نظرات ذلك الفتى جامدة وهو ينظر إليه، دارت في رأسه عدّة صور، يرى نفسه وقد كُشف سرّه لزيد، وما تلك الدعوة إلّا أسلوب من أساليبه، أو هو يريد أن يكبّله ليشفي غليله قبل أن يرسله بعدها إلى الحصن ليوثق إلى عمود التعذيب في الساحة، ردّ بصوت متذبذب:

– ما حاجتها لي؟

– لا أعرف، لكنّها قالت لي لا تعد إلّا بها، وقد طفت عدّة قرى باحثاً عنك.

بحث بين كلمات الفتى عن مؤشرات لصدق ما، لكنّه شعر بخوف ينخر أعماقه، وقد ارتدّ زفيره في حركة لاإراديّة، وكاد يختنق،

t.me/qurssan

يفكّر في أسوأ ما يكون وذلك الفتى يقف منتظراً ردّه، ظلّ صامتاً يتلو في سرّه ما تيسّر، محاولاً تهدئة نفسه. ثمّ قال:

– سأزورها غداً أو بعد غد.

– أوصتني أن لا أعود إليها إلّا بك.

يقود الفتى الدابّة، وشنهاص صامت كالمسحور، لأول مرّة في حياته يشعر بأنّ عقله شُلّ، يحدّث نفسه: لو كانوا يعرفون من أنا لأرسلوا من يقتادني بكلّ عنف وليس هذا الفتى. ظلّ الفتى يسير به من قرية إلى أخرى حتى اقترب به من هجرة الفواطم، حينها ظهر مبنى الضريح في بياض جدرانه الآسرة، تزهو قبّته بأعلامها الخضراء، ما إن صعدا وحاذيا الضريح حتى رأى تزاحم الناس يطوفون حوله، وتلك الشوارع لم تكن كما تركها آخر مرّة، وقد كُنست وظلّلت بأشرطة ملوّنة، وبدت جدران المنازل تشعّ ببياض «النورة».

لاحظ أنّ جميع من يصادفهم يسألون الفتى الذي كان يردّ منتشياً وكأنّه أنجز عملاً عظيماً. دُهش حين اقترب من دار زوجة زيد لتجمّع عدد من النساء بعدما عرفن بقدومه، وأخريات قادمات بخطوات عجلى وكأنهنّ يلحقن بحدث مهمّ، وما إن ترجّل عن دابّته وخطا نحو الداخل حتى تزاحمن لكسب ودّه، سمع أحاديثهنّ بأنّ زيداً قد دعا العقّال وأمناء القرى لإحياء ذكرى دخول اليمنيّين الإسلام حول الضريح، وما زاد ذعره حين عرف أنّ ذلك الفتى هو أحد حرّاس زيد المخلصين، حين شكرته الزوجة وكلفته إبلاغ زيد السلام.

في ليلة أول جمعة من رجب خطب زيد في الجموع التي حضرت من مختلف قرى الوادي عن مكانة صاحب الضريح وكراماته، مسلسلاً للجميع نسبه الطاهر الذي يصل به إلى البتول الزهراء سيدة نساء العالمين بنت أكرم خلق الله سيد الرسل وحبيب الله، موضحاً

t.me/qurssan

مكانة آل المصطفى الذين سكنوا وادي مرداس منذ سنين بعيدة، وأولهم صاحب المقام، داعياً الجميع إلى تعظيم الأئمّة الأطهار. استمرّ زيد حتى أكمل كلمته، ثمّ نهض صفّ من المنشدين وقد حملوا دفوفهم يصدحون بأصواتهم مردّدين عظائم وفضائل خير الأنام وآله الأطهار.

لأيّام تدفق الناس لزيارة الضريح والتبرّك به، يدعون لشفاء أمراضهم، وزيادة ذرّياتهم وأرزاقهم، يتزاحم حوله المجاذيم والمعوقون، من داخل الوادي وخارجه، مجزلين النذور والهبات.

في تلك الجمعة دعا زيد أمناء مساجد القرى من الفواطم إلى اجتماع خصّهم به، حدّثهم بأنّ الأرض قد حُرثت وخصبت لسنوات، وأنّها قد بُذرت، وأنّ الوادي قد تهيّأ لسلطانهم: فكما تسمعون بحالة مرداس وقد أمسى لا يهمّه أمر الوادي في شيء، كما ترك لي الأمر لأقوم بما يجب القيام به، وقد ذللنا العقبات واليوم أعلن لكم دعوتي، أن تبشّروا الجميع في مواعظكم بأنّ عهداً جديداً قد بدأ، قائماً على شريعة الله، ومن اللحظة أدعوكم للخروج ونشر دعوتنا بين رعيّة الوادي: أنّ الله واحد ليس كمثله شيء، وأنّه عدل في جميع أفعاله، غنيّ عن ظلم عباده، وأنّ وعده ووعيده حقّ، وأنّ محمّداً رسول الله إلى جميع خلقه، وأنّ عليّاً وليّه والمستحق بالخلافة من بعده، وأنّ الإمامة في آل محمّد إلى يوم الدين، وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر. أمّا الأمر الثاني الهام، فعليكم أن تجدّوا في الكشف عن تخفّي شنهاص الذي يعيش بيننا، ويتواصل مع بعض الرعيّة وأنتم تعرفون ذلك، نريد أن ننهي وجوده ليكتمل لنا السلطان دون أدنى معارضة على الوادي.

مع ازدياد المقاومة ضد الإنكليز في عدن رُحّل المئات من سكّان الجبال، لتستمرّ ملاحقة الإنكليز لكلّ ما هو جبلي، فكّر قارون

t.me/qurssan

في مغادرة عدن والعودة من حيث أتى، حدّث عرام يستأذنه الرحيل، لكنّه سأله:

– إذا وصلت إلى الوادي فأين ستذهب؟

– أتمنّى أن يكون الشيخ شنهاص سيطر على الوادي.

– ويملأه عدلاً، بعد أن يحوّله ملاذاً لكلّ مظلوم، ما زلت واهماً بذلك المخاتل يا صديقي.

– لكنّ رؤية من حولي وقد عادوا من أعمالهم، يصرفون ممّا يجنون، تجعلني أرى نفسي حقيراً. إن بقيت هكذا فسأصاب بالجنون، ثمّ ألا تعرف أنّي فكرت أن أذهب إلى جرف صيرة لألقي بنفسي لحيتان البحر.

– هوّن عليك، ستُفرج غداً، ها نحن أخوان نأكل معاً و...

– أنت تشقى وتكدّ وأنا أشاركك الطعام.

لم تمرّ ليلتان من ذلك الحوار حتى عاد أحد زملاء السكن، يحدّث من حوله برغبته في السفر في إجازة إلى بلاده، باحثاً عمّن يحلّ محلّه حتى يعود بعد شهور ثلاثة. خفق قلب قارون لما سمع لكنّه خجل أن يخاطب المسافر، أو حتى أن يسأله عن طبيعة ذلك العمل، ليبادر عرّام ويعرض على المسافر أن يحلّ قارون محلّه.

في ذلك المساء اشترى له عرّام ملابس جديدة، ثمّ عادا ليعلمه المسافر كيف يتكلم مبتسماً، كيف يزن خطواته، وكيف يقدّم ما طُلب منه، متى يعود لرفع الفارغ، وكم مقادير إعداد كوب من الشاي، وكوب من القهوة... إلخ ما يجب القيام به في عمله الجديد. في صباح اليوم التالي كان قارون وصاحبه يصعدان خلف المسافر درجات مقرّ الوكالة التجارية التي سيعمل بها، عبرا صالة واسعة توزعت مكاتب الموظفين في أطرافها، وعدّة مراوح تدور ببطء فوق رؤوسهم، يبتسم الجميع للمسافر، بينما يمضي بهما نحو باب أفضى

t.me/qurssan

إلى قاعة واسعة، برز في منتصفها مكتب كبير خلفه رجل أشيب يقلب أوراقاً من عمود أمامه، وإلى جواره مكتبان أحدهما جلست خلفه فتاة سمراء لعينيها لمعان، كانت تلك القاعة هي مكتب المدير، الذي كان يتحدّث إلى المسافر، عرف لاحقاً أنّه هندي، وقد وافق على عمله لديهم.

غرفة منزوية ازدحمت بدواليب صُفّت بداخلها أكواب وصحون، وفي الوسط ثلّاجة عمودية فتح بابها ليرى قوارير ماء و«ميرندا»، وطاولة عليها «شولة» نار وأواني تحضير الشاي والقهوة. عرف أين يجلس منتظراً رنّة جرس ليستجيب، ثمّ يعود لتجهيز ما طُلب منه. يوماً بعد يوم تعرّف إلى الموظفين وعرف أنّهم خليط من: العدانية والهنود وقلة من الأفارقة، وجبلي واحد مهمّته الكنس وتنظيف المكاتب، سريعاً ما تعرّف إلى أسمائهم، ونوعية طلباتهم. ذلك العمل جعله يستردّ ثقته بنفسه ويعرف أنّ كلّ كائن خُلق لما هو مُسخّر له.

قبض مرتبه الأول وانطلق ليضعه بين يدي عرّام:

– هذا جزء من حقك.

ابتسم عرّام للحظات، ثمّ ردّ عليه بحزم:

– مبارك، أخيراً قبضت، هذا حقك.

– أبداً، أنا مدين لك بمصاريف شهور طويلة، حتى الملابس التي ألبسها منك.

– ألسنا أخوَين.

– أخوان لكن الحق حق.

– قد يأتي يوم وأحتاج إليك، ليس بيننا حساب.

انزلقت دمعة صامتة على خدّ قارون، وكأنّه يردّ بها على كلماته، ليطوّقه بذراعيه: يا صديقي، ربطت بيننا ظروف قاسية وعجيبة، لم

t.me/qurssan

يعد لنا أهل، فأمّك وأمّي قتلهما الشيخ، وإخوتي أحرقهم، ووالدي أيضاً قتله، ووالدك شرّده. وها نحن مشرّدان، فلا تحسب بيننا حساباً، نحن أخوان ولن يفرّق بيننا مالٌ ولا أهواء، لتخنقه العبرة.

انتهى الشهر الثاني وقد أحبّ قارون عمله، وما نغّص عليه هو عودة المسافر، يعدّ الأيام ويجدها تذوب... وسريعاً ما عاد المسافر، وهو الذي كان يتصوّر أنّ الأشهر الثلاثة لن تنتهي. ذلك المساء تجمّع من في السكن حول العائد يستمعون إليه يحدّثهم عن أيّام إجازته، كان الجميع يستمعون بشوق بينما قارون يشعر بالضياع صامتاً.

صباحاً ذهب برفقة المسافر إلى مقرّ الوكالة، تسلّم ما بقي له من أجر وهبط منكسراً، ليسمع صوت أحدهم يلاحقه:

– أنت يا قارون.

كانت سكرتيرة المدير تقف أعلى السلم مبتسمةً تشير إليه بأن يعود. ظنّ أنّ في الأمر لبساً، أو أنّه نسي شيئاً، أو أخطأ في شيء، عاد مطأطئاً نظراته إلى مكتب المدير:

– لم تودّئني؟

ابتسم في خجل ولم ينطق بكلمة، أردف الهندي: يله تآل فيه أندك شكل.

– شغل لي أنا؟!

– هدسني الفراش بأنكِ مزارئ.

– نعم أنا مزارع.

– إذن ليكي شغل عندي.

عاد شنهاص إلى عمادة ليفرغ جعبة حكاياته، ظنّت أنّه سيحدّثها عمّا صنع بدار زيد، لكنّها سمعت العجب:

– لقد قابلت مرداس!

t.me/qurssan

– أفي المنام؟

– بل في الواقع.

– كيف ذلك؟

– دعتني أمّ زوجة مرداس لزيارتها، ثمّ رحلت بي إلى الحصن.

– حصن مرداس!

– ما غيره. في البداية ظننت بهلاكي وأنا ألج أزقة الهجرة، لتخرج بي صبيحة اليوم التالي في موكب ضمّ حارسين ومجموعة من النساء وخادماتها، سرنا في عمق مجرى السيل الجاف نحو الشرق لنصل إلى الحصن مع قرب نهاية النهار، ومع أنّها وضّحت لي أنّها لجأت إليّ لمداوة ابنتها بعدما سمعت الكثير عن بركاتي، كنت متيقناً بأنّي أسير إلى حتفي، مع ذلك صمّمت على المضيّ حتى النهاية، وقد تملكتني مشاعر بفقدان عقلي. لم يكن أمامي من خيار، وصلت بي لنحاذي أعمدة التعذيب التي جزمت بأنها تنتظرني وسط الساحة الخارجية، هزّني رعب مميت لرؤية باب حبسي، عبرت بي بوابة الحصن لأرى مجموعة من الخادمات اللواتي اصطففن في استقبالي. لحظتها رأيت وجه زوجتي، كدت أسقط أرضاً بعد أن تعاظم صوت سريان الدم في أوردتي، للحظات التقت عيناي بعينيها، أدركت أنّها لم تتعرّف إليَّ. لم تعد هي، بدت ملامحها قديمة، ونظراتها لا تعني شيئاً، تسير في مؤخرة الخادمات. شعور بأنّي أعيش كابوساً، أنفاسي تضيق وهنّ يصعدن بي سلّم إحدى الدور، أسير إلى قدر محتوم لا خيار لي فيه، حجرة واسعة تحيطها عدّة أبواب، خرج من أحدها شيخ طاعن في السنّ بظهر مقوّس، ووجهٍ غطّاه شعر أشعث مبيضّ، وهيئة من لا يهتمّ بما حوله. كان ذلك مرداس. دار حديث هامس بينه وبين زوجة زيد التي كانت تشير إليَّ، ثمّ خطا نحوي مادّاً كفّه، التقت عيوننا في لحظة كأنّها دهر ولا تزال كفّه معلقةً، ارتبكت، لتنقذني

t.me/qurssan

زوجة زيد: حتى إنّها لا تصافح النساء! تكلّم إليّ بكلمات مشتّتة لم أفهم منه إلّا أنّه يريد أن يتمّ كلّ شيء بسرعة، مشيراً إلى أحد الأبواب.

دخلت وتبعني الجميع، وقفت مع من وقف في غرفة تفوح بروائح البخور، وتغطّي أرضيّتها وجدرانها طنافس متنوّعة، لتطلّ امرأة لم أرَ في حياتي أجمل من محيّاها: بياض نقيّ، ووجهٌ تزيّنه غمّازتان، لا أحدّثكِ بعين رجل، لكنّني دُهشت لحظة رؤية إطلالتها الباهرة وقد دخلت بطولها الفارع، فتانك العينان تحملان غموضاً آسراً، وحين تبتسم تفتر شفتاها كورقتي ورد. أشرت على الجميع بأن يتركوني لأسمعها، وكنت قد أضمرت شيئاً. خرج الجميع. لحظتها تيقّنت من أنّي في أمان، وأنّ تلك الهواجس أوهام، وأنّهم لا يعرفون إلّا أنّي المداوية، فلم يكن زيد مع زوجته في الهجرة، ولم يكن كذلك في الحصن، وعلمت أنّه مشغول بالبحث عنّي بعد نسف داره، وقد كلف أحد أبنائه على رأس مجموعة من العيون لتتعقب خطواتي.

سألتها فتكلمت عن تكرار إسقاطها، وأنّ حفظة للقرآن قد زاروها وتلوا ما تيسّر في زوايا البيت، وأنّ السقط تكرّر حتى بعد تطهير الدار وانعزالها عمّن حولها. أجلستها أمامي وطلبت أن تغمض عينيها، تلوت ما تيسّر بصوت هامس واضعاً يدي على بطنها، مرّ الوقت والسكون يعمّ المكان، وحين أكملت نظرت إليها، كانت لا تزال مغمضة: العيب في مرداس، فـ«صيبه» مريض. كانت تلك الكلمات ما أكملت به جلستي ولم أضف، لتدور حولي وهي تردّد: وماذا عساي أفعل؟ لم أردّ عليها وقد تملّكني رعب هياجها، كنت أريد أن أفارق ذلك المكان. لكنّها ركعت أمامي، مادّة يديها في توسّل، تنتظر أن أخرج كفيَّ لتمسك بهما، مكرّرة: قولي لي ما عليّ فعله، أرجوك دلّيني؟! كنت متأكّداً من أنّها أدركت ما أعنيه. وما كانت تريده منّي غير مزيد من تأكيد ما ذهب فهمها إليه. لكنّي اكتفيت بما قلت. ونهضت نحو

t.me/qurssan

الباب، لأجدهم يقفون منتظرين بقلق، اقتربت منّي أمّها متلهّفة، همست لها: ابنتك بخير. حرصت على ألّا أكثر من كلامي، مقترباً من مرداس لأرى عينيه مرّة أخرى قبل أن أغادر. تركتني والدتها ودخلت إليها، لم يلتفت إليَّ مرداس حين تبعها وبقيّة الخادمات.

قضيت ليلتي في غرفة أجالس الأرق، أتمنّى أن التقي بزوجتي، أن يكلفنها لتأتي بطعامي، أو أن تأتي بين من سيأتين لمسامرتي، ما أقسى حين أدركني ضوء الصباح وأنا أقلّب الأماني وحيداً.

أن أفلت من بين أنياب الضباع أمر لم يصدّقه عقلي، وها أنا أمامك غير مصدّق، فهل حقاً نجوت؟ لكنّي أتذكّر ذلك متحسّراً من شلل طرأ على عقلي، ولم أفكّر لحظتها في استغلال ذلك الحدث، كان بإمكاني عمل الكثير، لكن...

– وماذا بعد؟

– ماذا بعد؟ أريد أن ألتقي بابنتي.

– لماذا لا تأخذ بنصائحي؟

– لم تنصحيني بشيء إلّا وجدته صائباً.

– إذن دع التفكير بابنتك واتّجه بعدما ردعت زيد لتعدّ نفسك لمقارعتهم، اجعله همّك. فقد سمعت أنّ دعاة زيد يدعون الناس لطاعته.

– معتمداً في نشر دعوته على الضريح كرمزٍ لأحقيته في ولاية الناس.

هزت رأسها وهمست مبتسمة «لا يفلّ الحديد إلّا الحديد. وأنت تمتلك مالاً يمتلكه غيرك، تفقهك في الدين، قارئ لكتاب الله، وحافظ لأحاديث كثيرة. وما عليك إلّا أن تنشر مقابل دعوته دعوتك، خطّ مكتوباً ووزّعه على من اصطفيتهم تدعو فيه الناس إلى شرع الله وسنّة الرسول الحق، معلناً مقارعتك لدعوة التشيّع، وحدّد

t.me/qurssan

اليوم الذي تزيل فيه طبقة الهرد عن وجهك، وتخلع أردية المداوية شاهراً سلاحك.

– وشادن؟

– ألم أقل لك اترك أمر شادن عليّ، وضع كلّ جهدك لتتغلب على الحصن، بعدها ستستعيد واديك، ستستعيد ابنتك وزوجتك. أمّا الآن فحذارِ أن يعرف أحد أنّك المداوية!

خرج شنهاص من بيت عمادة مدركاً طريقه الذي سيسلكه، بادئاً بإبلاغ مناصريه بالدعوة إلى توحيد الله، ومحاربة البدع والشرك، واتّباع سنّة المصطفى والسلف الصالح. وسريعاً ما وصلت تحرّكاتهم إلى مسامع زيد، ليدرك أنّ خصمه أمسى له حضور قويّ في الوادي، وأنّ عليه بسرعة الوصول إلى رأس الأفعى، ليشفي غليله. كان زيد – بعد مقتل أصغر زوجاته وأبنائها – يشعر بأنّ الأمر أصبح بينه وبين شنهاص شخصيّاً.

ظلّ صوت المداوية يتردّد في عقل فاطم «أنت بخير، العيب في من صيبه ضعيف». ولذلك أخذت تفكّر في تدبّر أمور خلوتها. باحت لوالدتها بما تفوّهت به المداوية، بأن تقنع أباها بطلاقها من مرداس حتى يكون لها نصيب آخر، صرخت والدتها في وجهها:

– إيّاك والتفكير في ذلك، والدك لن يغفر لك ذلك.

– لكن...

لم تدعها تكمل وقد صفعتها بعنف وهي التي لم تصفعها يوماً:

– أجُننتِ؟ قد يقتلك لو علم بما تفكّرين فيه، تريدين أن تنهي ما يخطّط له؟

في ذلك اليوم أدركت أنّ أمّها تشابه أباها، بل هي أشدّ قسوة، ولذلك أضمرت أن تعيش حياتها التي يدفعها الجميع إلى أن تعيشها

t.me/qurssan

حتى أمّها. سقطت ثقتها بكلّ من حولها، حتى أمّها التي كانت تراها مثالاً لا يضاهيه أحد سقطت أمامها لتصل بها إلى اللطم. لم تبكِ كعادتها، وما هي إلّا أيّام حتّى عادت لتعامل أمّها كأفضل ما يكون، معتذرة لها عمّا بدر منها، وترجوها أن لا تتفوّه بكلمة إلى والدها، كما اعتذرت لها عن سوء تقديرها للأمور، وأنّها تستغفر الله على ذلك التفكير. احتضنتها والدتها باكية معتذرة لها، لتصارحها بأنّ والدها يعقد على وجودها في الحصن آمالاً عريضة، وأنّه بفضلها قطع شوطاً كبيراً.

تحوّل الجميع فجأة منذ صفع أمّها إلى أدوات، ترى مرداس أداة وأمّها أداة وكلّ من حولها أدوات، فصمّمت على استخدام الجميع ليكون لها طفل.

على غير عادته استقرّ زيد في الحصن لأيّام، شارحاً للشيخ يقينه بأنّ شنهاص وابنته هما من قتل صغاره وزوجته، متوسّلاً إلى الشيخ أن يكلّف مجموعة من حرّاس الحصن تحت إمرته ليتعقبهم بنفسه، مظهراً غضباً ممزوجاً بحزن دفين، وظلّ يكرّر أرجوك امنحني ذلك قبل أن يصل شنهاص وابنته لنسف الحصن. خشي الشيخ إن لم ينفذ طلبه أن يتآمر زيد عليه، أو ينسف إحدى دور الحصن بمبرّر أنّه حذره من شنهاص. ولأول مرّة يأمر مجموعة من حرّاسه بطاعة مستشاره الأمين، صاحب قرية الفواطم زيد، هكذا وصفه بتلك الصفات أمامهم. مكرّراً: وعليكم التقيّد بأوامره.

لم يكتفِ زيد بمجموعة الحرّاس التي أمر بها الشيخ، بل دعا صبيحة اليوم الثاني جميع حرّاس الحصن بحضور أحد أبنائه موجّهاً إليهم أولى كلماته: أحدّثكم اليوم باسم الشيخ مرداس، الآمر لكم بطاعة أمري، فعليكم جميعاً السمع والطاعة، ومن يتهاون في ما يؤمر

t.me/qurssan

به فسيكون عبرة لمن يعتبر، ومن يخلص فسينال منّا التقدير والعطاء، وقد جمعتكم اليوم لأعيد إليكم كرامتكم وهيبتكم المهدورة، بعدما استباحتها امرأة، فلا توجد امرأة تنتصر على رجل واحد، فما بالكم بها وقد انتصرت على مجموعة منهم، وهم أنتم، كيف تصفون أنفسكم بالحرّاس الأشدّاء؟ يا للعار، وهي تقتل من تريد وتسلب ما تريد، وتجول دون خوف، وكأن لا أحد يمتلك كرامة ليثأر لزملاء له قُتلوا. أسألكم: أليست عندكم نخوة لتثأروا منها؟ أتتركون امرأة تمرّغ رجولتكم بالتراب، وتزرع العار في كرامتكم، كيف ينظر إليكم الرعيّة بعد كلّ ذلك؟

صمت يجيل النظر في عيونهم، ثمّ انتقى خمسة منهم، ليعود صوته أكثر حدّة: أنتم مكلفون بملاحقة بنت شنهاص، أثق برجولتكم، هيّا امضوا ولا تعودوا إلّا بها، وإلّا فالويل والثبور لكم. عاد صمته مرّة أخرى وعيناه تتفرّسان في ملامح البقيّة، ثمّ أشار إلى تسعة آخرين: وأنتم أراكم وقد عدتم بجثة مقطوع اليد شنهاص، أو الأفضل أن تأتوا به إلينا حيّاً حتى نجري عليه شرع الله.

هبط الحرّاس كلّ مجموعة في اتجاه، يوجّهون العقّال بتحريض الرعيّة لترصّدهم، ولأيّام يأتيهم البعض مشيراً إلى أنّهم رأوها في الجبال الجنوبية ولم يُرَ والدها، وآخر يتحدّث عن رؤية الحواطب لها في الشعاب الغربية، وثالث بأنّه رآها تخرج من أحد الكهوف... ينتقل الحرّاس من جبل إلى آخر دون أن يهتدوا إلى أيّ منهم، ما جعل الناس يشيعون على لسان شادن ووالدها الكثير من الأشعار، لكن ما أضفوه على شادن كان كثيراً، فتارة تناجي والدها، وأخرى نخوة الرعيّة، ما دفعهم إلى وصفها بالحرّة والفارسة الشجاعة، لتتحوّل في وعيهم إلى كائن خارق لا يُغلب، في الوقت الذي ظلت فيه شادن وزهرة تعانيان من وعورة تلك المسالك، وشحّ الطعام، متنقلتَين من جبل إلى آخر

t.me/qurssan

بعيداً عن أعين حرّاس القلاع، وتحرّكات الحرّاس، حتى وصلتا أطراف الجبال الغربية المطلّة على قريتها الجفنة.

لم يعد لشادن رغبة في مفارقة تلك الجبال، تشعر بنوع من السعادة، وقد تلاشى الخوف من قلبها، تراقبها زهرة وقد جلست متأمّلة الجفنة تنقّل ناظريها بين الأودية والآكام المحيطة بها، كما لو أنّها تبحث عن شيء، ثمّ تلتفت مبتسمة مشيرة: ترين تلك البيوت المتحاضنة بعضها مع بعض، بينها خطوت طفولتي وصباي، وتلك الشعاب المحيطة بها فيها كانت أولى لقاءاتي. تسترسل في حديثها فرحة، يختلج صوتها وتدمع عيناها فجأة، ثمّ تلوذ بالصمت دون أن تنقل عينيها عن الجفنة. تتأمّلها زهرة بخوف، ترفع صوتها محاولة انتشالها:

– تخيفني تحوّلاتك.

تنظر إليها من خلف شبح ابتسامة:

– لا يتركنا الآخرون نظلّ نحن!

– أراك امرأتين في امرأة.

– بل أكثر من كائن، ما نقترفه يفرضه علينا الآخرون في لحظة ضعف.

– إلى متى سنظلّ نتنقل من جبل إلى آخر؟

– أريد سماع أخباره، أن ألتقي به.

– كيف تسمعين أخباره وأنت في هذه الجبال؟

– أشعر بأنّه قريب، في هذه الأودية والقرى التي ترينها، قلبي يحدّثني بأنه في مكان ما منها، فقط علينا معرفة الطريق إليه.

– وقارون؟

– ماذا؟

– ألم تمنّيني بلقياه، ثمّ قلت لي إنّك تعرفين شيئاً من حكاياته.

t.me/qurssan

– الكل يعرف أنّ والـده فرّ طالباً النجاة من بطش الحصن، ليجعل مرداس من وجوده في حمى والدي سبباً لحربه.

– وما مصيره؟

– انتهج مرداس نهب إرث بني عمومته، واحداً بعد الآخر، ومن قاوموا يختفون، ويقال إنّه يضعهم في حبس سرّي في داخل الحصن، عدا والد قارون الذي كان في قريتنا حتى يوم الهجوم.

تصمت لحظات ثمّ يعود صوتها هادئاً، فلا تدري زهرة أتحدّثها أم تتحدّث إلى نفسها: دعينا من والد قارون، سأحدّثك عن سنوات صباي، حين كان يخرج والدي بي وبإخوتي إلى أطراف الوادي، يثبّت كرسيّ البندق على صدري، يريني كيف أمسكها، أصوّبها، وكيف أحدّد الهدف، ومتى أضغط قدّاحة الزناد، يضع إخوتي أصابعهم على مسامعهم في انتظار دويّ الرصاصة، طلقة تلو أخرى. أنهض رافعة صوتي «لقد أصبته، لقد أصبته». ويوماً بعد آخر أزداد دقة في إصابة الأهداف، أزهو على إخوتي بتفوّقي. ويزهو والدي مفاخراً أمام ضيوفه، يتحدّث عن براعتي في استخدام السلاح. تصمت هنيهة ثم تعاود كلماتها وقد تحوّلت إلى همس: أتذكّر لقائي الأول بزوجي، كانت البداية بتردّده على مجلس والدي. أرقبه دون أن يراني في دخوله وخروجه، بعدما أعجبت به، ولم أبح لأحد بما يعتمل في أعماقي، انشغلت بالتفكير فيه، أبحث عن سبب لهذا الانجذاب. فلم يكن عمري تجاوز السادسة عشرة، أسأل قريناتي عن الحبّ، يثرثرن عمّا يتمنّينه، أسألهنّ عن الإحساس به، يتخيّلن أحاسيس يفتقدنها، ولم أجد لديهنّ ما يشفي رغبتي. كنت أتخيّل لقاءات بيننا لم تحدث، صوته، كلماته، نظراته. عرفت أنّه يذهب إلى الوادي صباح كلّ يوم، وبعد تردّد قرّرت لقياه، حملت بندق أبي وخرجت أرقبه من سفوح مطلة على سهول الوادي، رصدت مسالك ذهابه ومواعيد عودته،

t.me/qurssan

وكان لقائي الأول مخيّباً، ما إن التقت عيوننا حتى لاحظت في نظراته خوفاً وتردّداً، ولم يطل الوقوف، بل مضى في طريقه دون وداع، ولم يلتفت حتى اختفى. فكرت أن أعترضه أثناء دخوله أو خروجه من دارنا، وكانت المفاجأة حين أمسك والدي بيدي:

– يا بنيّتي، قد جاء من يطلب يدك.

لا أعرف إلّا أنني تمنّيت أن يكون هو من جاء، لم أتجرّأ على سؤال والدي عمّن يكون، وأتذكّر أنّي صمتُّ، بينما والدي ينتظر ردّي، لأجد كلماتي تخرج مرتبكة:

– الرأي رأيك.

ردّ مبتسماً مربّتاً رأسي:

– إرادة الله فوق كلّ إرادة.

بعد لحيظات من الصمت اضطرب قلبي خوفاً من ألّا يكون هو، أردت أن أعرف، خرجت من حضرة أبي والحيرة تعصف بي، ماذا سأقول لو كان غيره. أبحث عن أمّي، لا أعرف إلّا أنني ارتميت في حضنها باكية، سألتني بوجل عمّا يبكيني. ما زاد بكائي حين علت ضحكات أمّي هامسة في أذني عمّن يكون. مسحت دموعي وقد انفرجت أساريري بابتسامة وضاءة، ثمّ شعرت بأنّي في موقف المغفلة، عدت إلى صدرها باكية من جديد، لا أعرف لمَ البكاء، أمن السعادة أم الخوف، فهو الذي التقاني بوجهٍ متجهّم، ولم يتفوّه إلا بكلمات محايدة. وكانت سعادتي مضاعفة حين هامسني يوم زفافنا بأنّني تملّكت شغاف قلبه منذ لقيانا، وأنّه أحسّ بمشاعر تغرقه بالسعادة، فسارع إلى طلب يدي، قلقاً من رفض والدي له. صمتت للحيظات ثمّ التفتت لزهرة: لم تكن سعادتي به خيالاً، بل حقيقة عشتها معه كلّ لحظة بعدما انتقلت إلى دارهم، يعاملني الجميع كأميرة، حتى أمسى لنا بيت يخصّنا، لنعيش سنوات في أحضان السعادة رزقنا

t.me/qurssan

خلالها بثلاثة أطفال. ودون مقدّمات انفجر نحيبها، تعاتب الوجود بصوت متقطع: لماذا يا ربّ؟ لماذا اكتمالك يقتضي تعاستي؟ ربّي أحمدك حمداً يملأ الأودية والسماء. ثمّ التفتت تخاطب زهرة: أما لهذا التشرّد أن ينتهي؟ لن نبقى هنا بل هيّا سنهبط الآن إلى قريتنا.

ردّت زهرة وقد شعرت برهبة من تصرّفات صاحبتها:

– الآن ضوء الشمس سيفضحنا، ألا تخافين عيونهم؟

– أشعر بأنّ والدي ينتظرنا.

لم تكن تعي أنّ حرّاس الحصن قد جنّدوا أمناء المساجد وعقّال القرى والرعيّة عيوناً لهم. ولم تدنُ الشمس حتى رآهما بعض الرعيّة هابطتَين نحو السفوح السفلى، ليسارعوا بإخبار أمين المسجد. أمسى الحرّاس يمشّطون تلك الجروف والكهوف، ولا يعلمون أنّهما هبطتا حتى مزارع الوادي القريبة من إحدى القرى، ثمّ واصلتا تسلّلهما إلى أزقة القرية، التي كانت شادن تعرف طريقها إلى أحد منازلها، وما إن طرقته حتى فُتح الباب وظهر وجه على ضوء مسرجة يحملها رجل ثلاثيني، وقف برهة يتأمّلها، ثمّ همس:

– أنتِ ابنة الشيخ شنهاص!

أربكتها معرفته بها، لم تتذكر أنها رأته يوماً:

– أليس هذا البيت بيت الخالة غانية؟

– بلى، رحمها الله، وأنا ابنها! هيّا ادخلا قبل أن يلحظكما أحد.

– فقط أسألك، أتعرف الطريق إلى والدي؟

– الجميع يتحدّثون عن وجوده، لكن لم أسمع أحداً يقول إنّه قابله.

– إذن أستودعك الله.

– ادخلا، لا أحد غير زوجتي وأبنائي.

– لا نريد أن نسبّب لك مشاكل.

t.me/qurssan

– لكنّ حرّاس الحصن في كلّ مكان.

يحدّثهما وقد أطل الخوف من عينيه، لتصمّم شادن على المضيّ مع الليل إلى حيث يقودها قلبها، ودموع ذلك القريب تلهج بالدعاء، كان قلب شادن يحدّثها بأنّ والدها في الجوار.

سمع شنهاص بأنّ عيون بعض الرعيّة شاهدت ابنته ورفيقتها في جروف الجبال الغربية قبل أيّام، فسارع إلى زيارة عمادة، ليلحظ في طريقه وجود الحرّاس في تلك الأنحاء، خرجت عمادة لتعود تخبره بأن الجميع يتحدّثون بأنهما في الجوار. تلك الليلة قرّر نزع ملابس المداوية كما يفعل في الليالي التي يقابل فيها أعوانه، والخروج للبحث عنهما، لكنّ عمادة فاجأته بتنمّرها وقد أغلقت باب بيتها:

– أجننت؟ هم يتربّصون ظهورك!

– سأقاتلهم.

– كم ستقتل؟ هي مصيدة، ألا ترى وقد سخّروا الرعيّة يتربّصون بك؟

تلك الليلة عبرت شادن وزهرة حتى أزقة قريتها، تنتقلان من زقاق إلى آخر بحذر، حتى توهّج أفق الفجر، سارع أحدهم إلى أمين المسجد «رأيت غريبتين في أزقة القرية». في تلك اللحظة كانت شادن قد اقتربت من بيت زوجها، يصل إلى مسامعها صدى همس زوجها، وجدته دون باب، دخلته، تلمّست مواطن أمسها وسط عتمة حالكة لتذرف دموعاً بللت وجهها، وصدى صراخ أطفالها يتعالى، كادت أصواتهم تفقدها ما بقي من عقلها، سحبتها زهرة لتخرج بها مرتجفة:

– أشعر بالخوف من طول بقائنا هنا، ألا تخشين ضوء الفجر؟ أرجوك أن نغادر.

t.me/qurssan

– بل أتوسّل إليك، نزورهم ثمّ نغادر.

– من تزورين؟

– أبنائي وزوجي!

مضت باتّجاه مجنّة تعرف الطريق إليها. ترى أطفالها يسابقونها وسط عتمة الأزقة، تسرع لعلّها تمسك بأصواتهم، حتى شارفتا أطراف المجنّة، وقفت لحظتها وقد شعرت بوحشة المكان، شهقت منتحبة. تهرول بين شواهد متراصّة وأحجار مهملة حتى نهايتها ثمّ تعود من جديد، لا تعرف في أيّ ركن تجدهم، تقف متلفّتة في كلّ اتّجاه لعلَّ قلبها يقودها إليهم، ثمّ تواصل هرولتها هنا وهناك وزهرة تتبعها باكية، وقفت شادن وقد انبلج الأفق عن غلالة فضّية، وزهرة ممسكة بمعصمها تستحثها على الهرب. لفت نظرها تجمّع بعض الأشباح عند أطراف المجنّة، ظنّتهم قادمين ليدلّوها على مراقد أولادها وزوجها، رأت أشباحاً أخرى على أسطح المنازل المحيطة، صرخت بعلوّ صوتها: أرجوكم ساعدوني. وأخذت تلوّح بيديها لهم. دوّت رصاصة، أحسّت شادن بوخز حارق أعلى ساقها، سقطت أرضاً. ركعت زهرة تحتضنها ملتفتةً في هلع لترى أشباحاً يهرولون باتّجاهها، حينها أدركت أنّ كلّ شيء قد انتهى.

في الوقت الذي تعلقت فيه عين شادن بشبح امرأة دون ملامح على سطح أحد المنازل المطلة على المجنّة، دوّت رصاصة بندق شادن ليسقط أحد الحرّاس أرضاً، اختفى من كانوا عند أطراف المجنّة وعلى سطوح المنازل، عدا شبح تلك المرأة بأرديتها السوداء. احتمى خلف شواهد القبور بقيّة الحرّاس، حاولت زهرة سحب شادن خلف أحد الشواهد، زجرتها بأن تتركها وتحمي نفسها بعيداً، توارت زهرة نائحة، نهض أحدهم مصوّباً بندقه نحوها، لتفاجئه برصاصة اخترقت رأسه، ليصوّب بقيّتهم رصاصهم على جسمها الممدّد، تحاول تقليب

t.me/qurssan

بندقها وقد تمدّدت مضرجة بدمائها، صمت كلّ شيء، وعاد الناس للظهور يتابعون ما يدور. تأكّد للحرّاس عجزها عن تحريك أطرافها، خرجوا بحذر شاهرين بنادقهم نحوها، اقتربوا منها لتدوّي رصاصة ثالثة أوقعت ثالثاً أرضاً، أحاطوها يتبادلون ضربها بأعقاب بنادقهم. شهرت عينها ناظرة باتّجاه امرأة السطح التي لم تختفِ، خُيّل لها أنّها تبتسم لها، بادلتها ابتسامتها حين تأكّدت أنّه هو. لاحظ أحد الحرّاس نظراتها الباسمة، انكفأ مادّاً سبّابته وبظفره فقأ عينها. ثمّ سحبوها بين القبور نحو أطراف المجنّة.

كان آخر ما شاهدت عين شادن ذلك الواقف على سطح بيت قريب. عرفت أنّه أبوها، ظلّ على سطح بيت عمادة، فكّر أن يصوّب بندقه، مستخدماً إصبع كفّه اليسرى، إلّا أنّ عمادة منعته، ليقف كالصنم يتابع ما يدور، ابتسم حين بادلتهم طلقات الرصاص لتصرع الأول، ثمّ الثاني والثالث، وما نغّص عليه حين ابتسمت له وقد عرفت من يكون رغم أرديته... بعينين باكيتين تابعهم يجرّون زهرة بعدما أحكموا وثاقها، بينما شادن ومن قُتلوا حمّلوهم على ظهور بهائم يسوقها عدد من الرعيّة، وآخرون يزوملون بأصوات جماعية.

بدت لقارون الحياة مختلفة، وقد انتقل للعمل بستانياً في فيلا مستر ديفيد، تلك الفيلا المتربّعة على جبل هيل، يرى البحر باتّساعه وتلك السفن التي تدخل وتخرج من دكة معلا إلى اليمين، وتحته حيّ التواهي... كانت له غرفة ضمن سكن خلفي للخدم، الذين يتوزعون أعمال النظافة والبستنة والطبخ وخدم المائدة. لم يكن عمله الجديد مضنياً، فهو واحد من ثلاثة يهتمّون بريّ الشجيرات والمساحات الخضراء المتدرّجة، وتقليم الزائد منها وتقليب تربتها وتسميدها، ومكافحة الحشرات.

t.me/qurssan

يلتقي بعرّام كلّ يوم عطلة، يوزّعان وقتهما بين الثرثرة في زوايا مقاهي «كريتر» والذهاب إلى السينما. يتحدّث قارون عن عوالم لا تشبه ما يعيشه الناس، حفلات ليليّة تزدحم بالرجال والنساء المتأنّقين، يرقصون ويأكلون ويشربون حتى منتصف الليل، وأحياناً حتى الفجر. يشير من أحد شوارع التواهي إلى فيلا تربّعت على كتف جبل أسود بلون أبيض زاهٍ، يجاورها برج ساعة مخروطي، وعدّة فلل أخرى. يسأله عرّام:

– أين البساتين والحدائق التي تحدّثني عنها؟

– قد تتعجّب إن قلت لك إنّها حدائق صخرية نباتاتها غريبة، وإنّ زوجة المستر تعشق تلك النباتات التي لا تحتاج إلى تربة كثيرة، وقد وزعت تلك المساحات بين شجيراتها، واقتطعت مساحة لحفلاتها وسهراتها، تُرى صفحة البحر من مقاعد توزّعت في زوايا وأركان زجاجية تعزلهم نهاراً عن حرارة الشمس، ولذلك يحرصون على أن تكون حفلاتهم على تلك المساحات ليلاً.

استمرّت لقاءاتهما منتظمة، يشتاق كلٌ منهما للآخر، يستهلكان ساعاتها بشغف دائم، إلى ذلك اليوم الذي لم يجد فيه قارون صاحبه في انتظاره حسب ما تعوّدا، سأل عنه زملاء السكن، أخبره الجميع بأنّه لم يعد منذ عدّة ليالٍ، ولعدّة أيّام بحث عنه في أرصفة دكة معلا وسأل عنه بين الحمّالين، ليتلقى نفس الإجابة.

يفكّر كسير القلب، متسائلاً بخوف: أيكون عرّام عاد بدوني إلى الوادي، أم يكون تعرّض لمكروه؟ نصحه البعض بأن يسأل عنه في المستشفى ومراكز البوليس، تنقل طوال أيّام يسأل ولم يجد جواباً.

مع استمرار غياب عرّام تتهاطل الذكريات ومنها نقاش دار بينهما ذات لقاء، أبدى فيه عرّام اعتراضه على عمله في فيلا إنكليزي، داعياً إيّاه إلى أن يكون من مناهضي الاحتلال، وفي لقاء آخر

t.me/qurssan

دعاه للالتحاق بصفوف الثوّار، لكن قارون كان يتملّص في كلّ مرّة من دعوات صاحبه، وتناحر الثوريين يتزايد يوماً بعد يوم في شوارع عدن، ليصفه عرّام بالساذج، وأنّ مظاهر الأمور دوماً ما تخدعه، ناصحاً إيّاه بأن يمعن التفكير في ما يستجدّ، مذكّراً إيّاه بتأييده لشنهاص رغم وضوح مكره وسوء نيّته، موضحاً له أنّ عمله في تلك الفيلا خادماً للمستعمر يُعدّ خيانة لوطنه، في الوقت الذي يُفترض فيه أن يكون في صفوف المناضلين ضدّ وجوده.

كان قارون يعي ما يعنيه عرّام، ولا يتهرّب من النقاش، مفضّلاً الاستماع له راسماً ابتسامة باهتة، حتى لا يخسر صاحبه، وحين تشتدّ بعرّام الحماسة يردّ عليه: حين نجد عملاً آخر سأترك خدمة الإنكليز، موضحاً له أنّ العمل يمثل له لقمة عيش ليصون كرامته، يتذكّر حين كان يضحك ساخراً: بل قل أغرتك الحياة في جبل هيل، بأصناف الطعام النظيف، وتلك المشروبات، وأجساد النساء الراقصات، وكأنّك في جنّة عدنٍ التي ذكرها القرآن.

يتذكّر ليلة حمل إليه قنّينة صغيرة من شراب إنكليزي، عازفاً له ممّا تعلمه من هنود الفيلا أنغام الرعاة في قريتهم، وتلك «المهايد» الشجيّة، وأنهما شربا وضحكا إلى ساعة متأخّرة من الليل. ومنذ تلك الليلة لم يعاود عرّام دعوته للذهاب إلى أصدقائه الثوريّين الأحرار، ولم يفصح له عن الطريق الذي بدأ ينتهجه، لكنّه عرف من إلحاحه أنّ صاحبه أمسى عضواً في جبهة التحرير من الاحتلال. يتذكّر أنّه كان في لقاءاتهما الأخيرة مهموماً، وكأنّه ليس عرّام الذي عرفه، يسأله فلا يصدقه القول، ثمّ حاول إقناعه بعدم التورّط في القتال مع أيّ طرف من أطراف الصراع على خلافة الإنكليز، محذراً إيّاه أن لا يكون أداة في أيدي غيره. يمنّيه بالعودة إلى الوادي معاً ليعيشا هناك وقد تغيّرت الأحوال وانزاح ظلم المشايخ وأعوانهم الفواطم.

t.me/qurssan

ظلّ يبحث لعلّه يكتشف سرّ اختفاء صاحبه عـرّام، ليخبره أحدهم بعد شهور، حين التقى شابّاً بالمصادفة في أحـد مقاهي المعلى، سمعه يتحدّث إلى زميل له في طاولة مجاورة عمّن سقطوا في مواجهات الجبهة القومية وجبهة التحرير، في شـوارع الشيخ عثمان ودار سعد وكرتير. شاركهم قارون الحديث بفضول لم يتعوّد عليه، ليكتشف أنّ المتحدّث من رفاق عرّام، وأنّه كان معه يوم قُتل في مواجهات حيّ المنصورة. لحظتها ارتبكت حواسّه ولم يصدّق أنّه فقد صديقه للأبد. ولعدّة شهور امتنع عن الشراب واعتاد الصلاة في مواعيدها، محاولاً تفادي الشعور بالضياع. لم تعد شوارع عدن تستهويه، ففضّل قضاء كلّ أوقاته في سكنه بين الهنود في فيلا جبل هيل، دون أن يخالط سهراتهم، ليعود فجأة بعد حين لمجالستهم، وأمسى العزف على الناي حياته. ولم يعد قارون ذلك الشابّ الذي يهمّه شيء غير أن يشرب ليحلّق حيث ينسى ضياعه، ليحلم بوجود وطن وأهل يحتضنونه.

أحكموا وثاقهما إلى عمودين متجاورين وسط الساحة، وبعد وقت خرج الشيخ وإلى جواره زيد يسيران بين صخب من حضر من الرعيّة لصلاة الجمعة، وقفا يتفرّسان في الفتاة التي شغلت الجميع، تلك التي آخت وحوش الجبال شهوراً طويلة دون خوف. كان زيد يبتسم بغبطة المنتصر وهو يرى الانبهار في عيون من تجمّعوا، يتفرّسون في وجه شادن المعمى. يعرف أنّها جثّة هامدة، ومع ذلك وجّه كلامه إليها ليوحي للجميع بأنّها تسمع ما سيقول: أيّها الناس، ترون مصير من يقتل ويعيث بين الناس الفساد، علينا جميعاً أن نؤمن بالحديث القائل «وبشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين». ها هي أمامكم من كنتم تظنّونها خاوت الوحوش، وأنّ الوصول إليها بعيد المنال،

t.me/qurssan

صحيح أنّها لا ترى أحداً منكم، لكنّها تسمعنا. ثمّ صمت يمسح وجوه من حوله بعينيه، ليعود مشيراً إليها: أيّتها العمياء، كنت أتمنّى لو بقي لك بصيص من نور حتى تري من جاؤوا اليوم ليروك، من ظنّوا أنّك لن تُقهري. كان زيد يواصل حديثه إليها بينما انشغل الشيخ بالنظر إلى وجه زهرة المعلقة، ليلتفت سائلاً زيد بصوت هامس:

– من الصبيّة الأخرى؟

أجابه جذلان:

– هذه التعسة رفيقة بنت شنهاص.

اقترب ينعم النظر في وجهها، وبحزم رفع صوته:

– أنزلوها!

وتحت دهشة زيد فكّوا وثاقها وأنزلوها. لم يعرف أنّ مرداس كان يرى وجه شبرقة، وهو يردّد متمتماً «أيُعقل؟».

تكاثر الناس ليواصل زيد خطابه، مشيراً إلى الجسد المعلق: اليوم نقف لنسأل أنفسنا مَن منّا لا يريد رضى الله وعفوه، من منّا يريد أن يكون وقوداً لجهنّم والعياذ بالله؟ تعلمون جميعاً بأنّ شيخنا جزاه الله خير الجزاء يريد أن يعيش الرعيّة في سلام واستقرار، ويأبى المارقون إلّا أن يقلقوا السكينة، وأن يسعوا في الأرض فساداً. ولمواجهتهم علينا أن نقف صفاً واحداً، وكما ترون اليوم هذه الشيطانة وقد نالت جزاء شرورها، وقد سرقت هذا وقتلت ذلك، ناشرة الخوف بأفعالها التي لا ترضي الله ولا رسوله، وتعلمون أنّها كانت قبل هروبها تعيش في رعاية شيخنا الذي أغدق عليها من نعيمه سنوات، بل وعاملها كما يعامل ابنتيه. ثمّ جازت إحسانه بجحودها، هربت بعدما احتالت على أحد الحرّاس وقتلته وسرقت بندقه، والآن أخاطب ديانتكم، ما الحكم في ناكرة المعروف؟

ردّد الجميع بصوت وحد: الموت لها، اللعنة عليها.

t.me/qurssan

ابتسم وقد اتّسعت عيناه الصغيرتان، مردفاً: أعاهد الله وأعاهد شيخنا، أنّكم سترون والدها معلقاً في مكانها. عهد يحاسبني الله عليه يوم ألقاه، ذلك الشيطان الذي أحرق البيوت وقتل الأنفس حتى إنّه لا يستحي من الله حين يفجّر البيوت فوق النساء والأطفال. أكمل خطابه مشيراً للحرّاس: هيّا احملوا جسدها وجبةً للكلاب، فمثلها لا تستحق الرحمة لتُدفن مثل أمّة محمّد.

في تلك الأثناء سقطت أم شادن مغشيّاً عليها وهي تتابع بين نسوة كثيرات من أسطح الحصن، وبصمت حملتها قلّة من الخادمات هابطات بها، ولم يصلن بها أسفل السلّم حتى فارقت الحياة كمداً.

خيّم يُتمٌ بطعم الحنظل على بعض سكّان الحصن من الخادمات، فلا من يحزن على أمّ شادن، ولا من يواسي زهرة المكبّلة بجراحها في إحدى زوايا طابق الخادمات بدار شبرقة.

تصاعدت حدّة الصراع بين الجبهة القومية وجبهة تحرير جنوب اليمن المحتلّ، لخلافة الإنكليز على عدن، وتجاوزت ملاحقات الشوارع إلى الاغتيالات وهجمات على المقارّ والمنازل. وقد اعتكف قارون في تلك الفيلا في حياة بعيدة عن دماء الشوارع، فهو الجبلي الوحيد بين عدد من الهنود وقلة من الصوماليين، حياة غيّرت مفاهيمه للحياة وحتى أسلوب حياته.

يسمع عن تطوّر المواجهات بين فصائل الثورة والوجود الإنكليزي في عدن، حتى ذلك اليوم الذي أصبح فيه الجميع يتحدّثون عن قرار الأمم المتحدة الذي يطالب الإنكليز بالرحيل، ليصدر عن الخارجية البريطانية «الكتاب الأبيض» في 22 فبراير 1966 الذي أعلنت فيه بريطانيا منح مستعمرة عدن والمحميّات الاستقلال مطلع 1968، ليتزايد النضال الثوري وتوقع اتفاقية الجلاء

t.me/qurssan

في نوفمبر 67. كان قارون حزيناً ولا يعرف أنّه يشارك شرائح كثيرة في المجتمع العدني حزنها لرحيل الإنكليز... وتجدّد الصراع الحادّ بين جبهات الثوار في سباق من يخلف الإنكليز، وتحوَّلت شوارع عدن إلى ساحات قتال في سباق محموم على السيطرة والتسلط.

تأهّب كثيرون للرحيل عن عدن، هنوداً ويهوداً وجنسيّات أخرى، ومع اقتراب شهر نوفمبر شعر قارون بالضياع، وسؤال يتردّد بداخله: إلى أين؟ ولا أشدّ منه حين حلّ ذلك اليوم الذي أخذ الجميع فيه بالرحيل، حتى إنّ المُشاهد لتلك الجموع المتجهة إلى الميناء والمطار وعربات النقل البرّي يظنّ أنّ عدن ستفرغ من ساكنيها، بعد رحيل جميع من في فيلا جبل هيل، خرج قارون يهيم في الشوارع دون هدى. لم تعد تلك الشوارع التي عرفها، بعدما غطّت جدرانها الشعارات، وطفت على سطح المدينة وجوه مختلفة، ولغة مختلفة، وسكّان آخرون. أمست مدينة غريبة، فقرّر الرحيل، يتمنّى لو يعرف لعرّام قبراً ليودّعه، طاف المقاهي التي كان يرافقه إليها، دور السينما، دكة معلا، سوق الطويلة، الشوارع والشواطئ. كان يرى صاحبه في كلّ مكان.

ركب من الشيخ عثمان باتجاه تعز، يخبّئ القليل من مدّخراته في «كمر» يطوّق خاصرته، يلتفت متأمّلاً جبل شمسان الذي يتوارى ويتحوّل نقطة داكنة كما رآه يوم وفد برفقة خاله وعرّام، ليعبر حوطة لحج ومنه إلى وادي عقان. بعد عقان اعترضهم حاجز عسكري يطلب وثائق المغادرين، تذكّر ما كان يردّده عليهم خاله الذي غادر إلى السودان عن وثائق السفر بين البلدان، شرح للجنود أنّه من جبال بعيدة وأنّه غادرها رغبة بالسفر إلى السودان، لكنّ خاله خذله.

تتابع عيشة ما يعتمل حولها وتقيسه بما يعود على ولدها جمال بالنفع. مرداس خيّب ظنّها ولم يعد من أمل فيه، بل تراه بحاجة

t.me/qurssan

إلى العون، وترى زيد يمسك بالخيوط يوماً بعد يوم، وما تخشاه كثرة أولاده الذين سلّطهم على نواحٍ عدّة. ولا يزال زيد يمثّل رأس مال يجب الاستفادة منه. من أين أبدأ؟ حدّثت نفسها. وقرّرت أن تصل إليه عبر ابنته فاطم، المغلوبة على أمرها بعد محاولاتها المستميتة ليكون لها خلف.

في اليوم الثاني زارتها لتفاجأ عيشة بحفاوة فاطم، وهي التي أغلقت أبوابها في وجه الجميع:

– جئتِ في الوقت الذي كنت أفكّر فيه بأن أزورك.

– هذه أنا جئتك.

– تعرفين مكانتك، فكيف كلّ هذا الوقت ولا أراك؟

لتتكرّر زيارات عيشة، وقد وجدت أن أفضل مكان يتيح لقاء زيد هو عند ابنته، تتحدّث متسائلة عمّا يدور في الوادي مبدية تعاطفاً مع ما يواجه زيد من متاعب وصلت إلى حدّ قتل زوجته وأطفاله، تسمعها فاطم وقد بدت لها عيشة غير من عرفتها، ما حرّك ظنوناً بحدس أنثوي، لتدرك أنّ عيشة لم تكن نيّاتها بريئة من عودة زياراتها المتتالية، فما إن يصل والدها لزيارتها حتى تجدها قد وصلت في أثره، وكأنّها تراقب من يدخل ومن يخرج من دار فاطم، تلك الظنون التي ذهبت بها لم تكن لتهمّها، فوالدتها بعد ذلك الموقف والصفعة المدوّية قد جعلتها تفكر بما يعود عليها بالنفع، ولا يهمّها الضرر بغيرها حتى والدها ووالدتها. كانت سعيدة وهي ترى عيشة وقد وقفت لوالدها تحدّثه دون تحفظ، بل إنّها في إحدى المرّات حملت له هديّة مغلفة لم تعرف ما يخفي غلافها وأدركت بعد ذلك أنّ والدها هو من يسأل عن أحوال عيشة إذا ما زارها ولم يصادف وجودها ودوماً يحمّلها السلام.

t.me/qurssan

لعدّة ليالٍ تنتظر زهرة ما ستصنع بها ابنتا شبرقة، تنام نوماً متقطعاً، لتفزع وقد أحسّت بأنفاس تلفح وجهها، تنظر في اتّجاهات الظلام، تصيخ السمع، يأتيها صوت شادن، وجه يتدلى من العتمة، رائحة تجالسها، بل إنّها توشك أن تلامس كفّها، لكنّها لا تجد إلّا أرضاً باردة. تكتفي بروحها التي تجول حولها، تعوّض صقيع رحيلها. تغمض عينيها باكية من أحلام أمّها وقد سرقت منها شادن بعيداً. تؤنسها حكايات العمياء، يشدّها الحنين لسماعها، يرتفع نحيبها، تتمنّى أن تعود لتخدمها، تسمع المزيد من حكاياتها، وتشاركها المغنى. تتذكّر أنّها الوحيدة التي لم تسألها عن اسمها، ولا من أين تكون، أو ابنة من هي؟

في اليوم التالي اقتادتها خادمتان، لم تكن تعرف إلى أين تمضيان بها، ولا أيّ مصير ينتظرها، صعدن بها سلّم الدار الوسطى، ظنّت أنهما ستذهبان بها إلى ابنتي شبرقة، لكنّها وجدت نفسها أمام الشيخ الذي نهض غاضباً حين رآها: ألم آمرهم بفكّ وثاقها؟ هيّا فكّا أربطتها وانصرفا.

وقفت مرتعشة، بينما عاد يجالس نافذته، ثمّ التفت بوجهه المجهد مشيراً عليها بأن تقترب. تقدّمت خطوات مرتبكة، وضع كفّه على الأرض مشيراً:

– هنا! اجلسي أمامي!

جلست مرتابة، بعد لحظة صمت رفعت ناظريها تتأمّل شعر وجهه، أنفه الأفطس الذي ذكّرها بأنف جبّار، لمحها تتأمّله، اقترب بوجهه من وجهها مبتسماً، لترى عينيه هي الأخرى كعيني جبّار، طبقات تجاعيد متراكمة، سألها:

– من أنتِ؟

دفعها سؤاله لأن تسأل نفسها، أن تعرف من تكون، وأن تقنع نفسها بما ستجيب قبل أن تقول، حضرها صوت شادن «أنتِ مجرّد

t.me/qurssan

خادمة، وأيّ تبسّط كان منها أو من ابنتيها يُعدّ تفضّلاً منهنّ عليك».
أجابته بصوت ذليل:

– خادمة.

– خادمة من؟

– في دار... ابنتيكم.

– ابنة من تكونين؟

– ابنة خادمتكم حمامة.

فتح فمه مندهشاً:

– آآآه حمامة، خادمتنا حمامة.

عاد ينعم النظر في وجهها، ثمّ سألها بتردّد: هل أنت من حذرتني شرب السمّ تلك الليلة؟

هزّت رأسها بالإيجاب دون أن تنطق.

لحظتها أخفت وجهها بين كفّيها باكية بحرقة، شعر بشفقة نحوها، مدّ كفّه ومسح رأسها، ولم يتوقف نشيجها، لا يعرف إلّا أنّه أحسّ بدمعة يتيمة تدحرجت على خدّه، متذكّراً حديث شبرقة ذات مساء: لا أريد لتلك الصغيرة أن تشقى. كان يعرف أسباب عاطفتها دون أن تُصرّح. تمتم: أستغفر الله وأتوب إليه. مسح دمعته. ثمّ رفع صوته لمن خلف الأبواب: هيا احملنها عنّي.

في تلك الأيّام تملّك زيد زهو وإحساس بقدرته على السيطرة، مؤمناً بأنّ الله قد اصطفاه لهذا الوادي، متخيّلاً حالة شنهاص وقد وصلت إليه أخبار ابنته وزوجته، وسعيداً بخيبة ظنونه في من كان يحسبهم أنصاره، وأمسى زيد متيقناً من أنّهم ينتظرون رؤيته على أحد أعمدة الساحة مصلوباً.

t.me/qurssan

عاد إليه يقينه باقتراب نهاية شنهاص، وهو يرى حرّاس الحصن يمشطون الوادي عرضاً وطولاً. ولم يعد ملزماً بإخبار مرداس بما يصنع أو ما يريد فعله، وهو يوسّع من نشر دعوته لينتقل من اجتماعه بالأمناء إلى عقّال القرى الذين بايعوه على السمع والطاعة.

لكنّ ردّ جمال على رسالة والده فاجأه «حضرة والدي العزيز الشيخ مرداس حفظكم الله ورعاكم، سلاماً كثيراً وأشواقاً حارّة، لن أعاتبكم على عدم الكتابة إليّ منذ غادرتكم، بعدما كتبت تستنجد بي من الخسيس الفاطمي، أكتب إليكم جواباً على رسالتكم، التي ذكرتم فيها لؤم من لا أمانة له، بعدما جعلته الأعلى بين رعيّتك مستشاراً لكم، بل وجعلته صاحب هجرة الفواطم.

والدي العزيز، للأسف؛ لقد وضعتم ثقتكم في كائن ليس أهلاً للثقة، فها هو يقيم ضريحاً على قبرٍ خاوٍ إلّا من أحجار سوداء، ويسعى لأن يتسلّط في خلق ليس منهم، ويدّعي لنفسه شرفاً لا يمتلكه، وها هو يستخدم قلّة وافدة ليتحكم في وادٍ هم إليه وافدون.

والدي العزيز، أعدك بأن أصل إليكم في أقرب وقت، وأن ينال على يديّ ومن على شاكلته أشدّ الجزاء.

تحيّاتي لوالدتي التي تسكن قلبي، أكرّر تحيّات تخصّها معطّرة زكيّة، ولك السلام وجلّ الاحترام، ولأختيَّ ومن سأل عنّا ألف سلام».

كرّر زيد قراءة تلك الرسالة، كمن يبحث بين ثناياها عمّا ذكره مرداس في رسالته إلى ابنه، كانت كلماتها واضحة وجارحة. متسائلاً: كيف بعث مرداس رسالته وهو لا يبرح الحصن؟ كيف أخرج رسالته هذا الخرف من الحصن وأوصلها إلى مصر، أخذ يبحث عمّن قد يكون ساعده، هل هو أحد الحرّاس، أم إحدى ابنتيه التي ارتكبت مثل ذلك الفعل؟ لكنّهما لا تصلان إلى بوّابة الحصن. وقف كالملدوغ: أتكون الخيانة اليتيمة، أم هناك ما يخطّط له مرداس من وراء ظهري؟ بل

t.me/qurssan

هناك أفعال ينفّذها مرداس، وليست هذه الرسالة إلّا إحداها. قطعاً لا يمكن أن تكون عيشة، ولا إحدى الخادمات المنتشرات في دور الحصن.

تذكّر ما حدّثته فاطم ذات مرّة عن اكتشافها علاقة سرّية بين ابنتي مرداس وبعض الحرّاس، قالت له: يتسلّلون ليلاً وقد جعلوا من أسطح الدور ملعباً لنزواتهم. وبعد رحيل شبرقة تستضيفانهم في حجرتيهما. لم يكن الأمر يستحق مزيداً من الصبر، تصوّر كيف تخرج الرسائل من الحصن. لم تمضِ ليالٍ حتى وُجدت ابنتا مرداس جثّتين هامدتين على فراشٍ ملوّثٍ بالدم، وإلى جوارهما جثّتا حارسين، وقد مُثّل بهم، ليبدو الأمر كأنّه ردّة فعل لما يعلمه الجميع منذ حين ولا يجرؤ أحد على الحديث عنه. تنفّس زيد الصعداء متخيّلاً الحصن مكاناً آمناً له، بينما ازداد مرداس عزلةً بعد مقتل ابنتيه، حتى إنّه لم يعلّق حين أعلموه بما حصل، ليأمر الحرّاس بدفنهما جوار أخويهما، ولم يحضر أو يقبل أن يعزّيه أحد، عدا زيد الذي ركع على غير عادته باكياً وقد وقفت فاطم ترقب ما يدور بحيادية وبرود.

طلب الشيخ الإتيان بزهرة، أجلسنها أمامه، تأمّلها صامتاً وقد تكوّمت في ترقب وخوف، أمسك بكفّها يتفحّص بقايا جراح على أطرافها، وداعبها ملاطفاً:

– ما شاء الله، أراك اليوم أفضل.

لم تردّ عليه ترقبه بطرف عينيها بحذر، سألها مبتسماً: قولي لي، كيف كانت ابنتاي تعاملانك؟

دمعت عيناها:

– لا أذكر إلّا خيرهما، وحزينة لفقدهما.

– رحمهما الله.

t.me/qurssan

– غفر لهما.

ذهب بنظراته بعيداً عبر نافذته يتأمّل الوادي، بينما استمرّت دموعها. عاد صوته دون أن يلتفت إليها:

– لا أريد الحديث عن ابنتيّ.

التفت إليها:

– كفاك دموعاً. أتصدقينني إذا ما سألتك؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي ترمقه في توجّس بنظرات مسروقة، ليسألها:

– أتخشين منّي؟

التفتت لوقع سؤاله، تتردّد في أن تقول ما تشعر به، هزّت رأسها بالإيجاب، انفرجت ملامحه المتغضّنة عن ابتسامة، ثمّ ابتعد بسؤال آخر:

– لماذا هربت مع تلك الشقيّة؟

صمتت تلاعب أصابع قدميها، وقد حضرت شادن بسؤاله، اجتاحتها نوبة نحيب تحاول كتمها، انفجرت وقد حضرت. تركها تندب وقتاً حتى هدأت وعادت إلى صمتها، لم يكرّر سؤاله، بل ذهب بسؤالٍ آخر بعيداً:

– أشعر بالوحدة، فهل تشعرين مثلي بالوحدة؟

رفعت وجهها وهي تمسح بقايا دموعها، لمح لأول مرّة شبح ابتسامة تطفو على محيّاها. أطرقت تفكّر غير متوقعة سؤاله، ثمّ أردف:

– هل تقبلين أن تكوني خادمتي؟

ظنّت أنّه يلهو، ثمّ أردف:

– فاطم مشغولة بنفسها ولم تعد تهتمّ بي!

t.me/qurssan

مكثت ترقبه وقد عاد إلى صمته والنظر من النافذة، ثمّ نهض مشيراً:

– سأذهب لبعض شؤوني وعليك بإعادة ترتيب المجلس.

خرج وتركها وحيدة، لتدرك أنّه جادّ في ما حدّثها، تردّدت في بداية الأمر ثمّ نهضت منهمكة في ترتيب البسط والمساند والمتّكآت، وكنس أعواد القات الجافة ورفع المتافل لتنظيفها، ظنّت أنّ عملها سيقتصر على الترتيب والتنظيف، لكنّه يوماً بعد يوم يضيف إلى أعمالها أعمالاً أخرى، وقد طلب منها أن تبخّر له ما يشربه من ماء في جلسة القات، ثمّ العناية بغسل أغصان قاته وتجفيفها، إلى تجهيز «مداعة» تنباكه، حتى وجدت نفسها وقد أضحت نديمته؛ تجالسه، تنصت إلى ما يتحدث به، وأكثره لا تفهمه. تطوّر الأمر إلى البوح بما يقلقه، وأحياناً يعود بها إلى حوادث من أيّام غابرة، فيها أناس لم تسمع بهم.

تقف على ما أصبحت عليه لتغشاها حيرة، تقلّب الأمر في ذهنها لعلّها تجد تفسيراً لتلك العلاقة، تتخللها هواجس كثيرة، تعاملت معه بحذر، لكنّ خوفها راح يتلاشى مع مرور الأيّام، وإن ظلت تتساءل عمّن يكون من تجالسه: هل هو نفس ذلك الكائن الذي يتحدّث عن جبروته وقسوته الجميع، كانت تظنّ أنّه من دون مشاعر، وما خُلق إلّا ليقتل ويدمّر، وأنّه من دون قلب، لا يعرف إلّا البطش، ولسانه لا يأمر إلّا بسفك الدماء.

سُرّت فاطم لتعلق مرداس بتلك الصبيّة التي أمست جليسته، لتتفرّغ لما يخصّها، سخرت من إحساسها بالغيرة وهي تسمع تلك المنادمة التي لا تنتهي بينهما، تتنصّت لتسمع صوته وكأنّه يتحدّث إلى الفراغ، تسترق النظر لترى زهرة تتربّع أمامه جالسة تنصت بشغف وقد تسمّرت عيناها بفمه، يحدّثها عن حياة عاشها لم تكن سمعتها، كانت أموراً بسيطة وتفاصيل متشعّبة، حتى إنّها خجلت من استراق

t.me/qurssan

السمع. عادت لتحدّث عيشة بما يدور بين الصبيّة والشيخ، وأنّ مرداس قد خرف ويهذر لها دون توقف، فسألتها بلهفة عمّا يتحدّثان به، لكنّها تسخر من هذره لتضحك عالياً لاهتمام عيشة اللافت.

ظلّ شنهاص لأيّام ومشهد مقتل شادن يتكرّر أمامه، وما زاد حزنه وفاة زوجته، غير مصدّق أنّه أصبح فرداً دون أحد، خشيت عمادة أن يسحقه ذلك الحزن الثقيل ويثبط إرادته. مكثت تحفّز همّته وهي تحدّثه بما سمعت عن أنّ زيد جمع عقّال الوادي بعد اجتماعه السرّي بأمناء المساجد، ليعلن لهم دعوته إلى استعادة ميراث النبيّ، الذي خصّ به آله، أمراً إيّاهم بمناداته بالسيّد الأمين زيد اقتداءً بالأمين المصطفى سيّد الخلق، واعداً بالخروج لإزالة الظلم والجور الذي عمّ العباد، داعياً إيّاهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بدورهم بايعوه على الطاعة والنصرة، وراح يكرّر دعوته على جموع زوّار ضريح المهاجر «أدعوكم إلى جهاد الظالمين، ألا ترون عباد الله أنّ دينكم مقتول، وأنّ الحق الذي أنزله على نبيّكم مخذول، وأحكام الكتاب معطلة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهملان، وقد بسطوا بالظلم أيديهم، وحكموا بحكم الشيطان فيكم، أحلّوا دماءكم وأموالكم، وأجاعوا بطونكم، وساموكم سوء العذاب. أدعوكم أيّها المسلمون إلى نصرة دين الله وطاعة آل بيته، أن تردّوا الأمانة إلى أهلها، ليعمّ العدل والخير كما وعد الله ووعده حق. أنا لا أبحث عن مطامع دنيويّة، ولا أسعى خلف سلطان، بل أدعوكم لتطبيق الشريعة بطاعة الله ورسوله الكريم. فشيخنا هو مرداس، وما أقوم به نيابة عنه وباسمه».

تتقاطر الجموع أمام الضريح لمبايعته على السمع والطاعة، كما يعاهدونه على الجهاد في سبيل الله وإعلاء دعوة آل البيت. جعل من قرية الهجرة مركزاً لنشاط دعوته، يعمل بثبات وتأنٍّ، مستغلّاً

t.me/qurssan

موقعها المتوسّط بين قرى المغرب والمشرق، وما يمتاز به سكّانها من علاقتهم برعيّة القرى، محافظين على حيادهم عند نشوب الخلافات والاقتتال بين القرى، مستفيدين من دورات القتال، وكذلك من فترات الاستقرار.

ألحّت عليه عمادة بسرعة التحرّك، وأن لا يدع أحزانه تؤثّر في ما نذر نفسه له، فيعود ليسابق زيد قبل أن يفوت الأوان.

يردّد الأمين زيد على مسامع فاطم: الصبيّة أرسلها الله لتسير بمرداس إلى نهايته، وعليك أن تفكّري بعقلك لا بقلبك، فرحلتك معه قاربت على نهايتها.

تلك العبارات تسمعها وقد أظهرت غيرة زائفة أمام أبيها، ليسألها: ماذا تريدين منه؟ فتردّ وقد غالبتها دموع وعويل: لم أره يوماً يدلّل أحداً مثلما يفعل بزهرة. فكيف لا أحنق وأغار؟ يستعين بعيشة التي استطاعت خلال فترة بسيطة أن تأسره بدلال لم يألفه، تمنّى عليها: ألا تعقّلين هذه الغاوية؟ أنت من الحكمة بما تهدينها إلى الصراط.

همست فاطم في أذن عيشة بأنّ مرداس لم يعد يعني لها شيئاً، وأنّ ما تقوم به هو من أجل إرضاء والدها ليس إلّا، لتسرّ لها بما بدأ يتحرّك في أحشائها، لم تصدّق ما تسمعه:

– ماذا تقولين؟

– الذي سمعتِه!

تلك المفاجأة أشعرت عيشة بمغص حاولت مداراته، فمطّت بسمة تخفي خلفها مشاعر مضطربة.

تداري فاطم على سعادتها وقد أخذ بطنها بالتكوّر. لا تتحرّك إلّا للضرورة، تاركة مرداس لزهرة. لم تعد تتصنّع غيرتها وهي تراها تفلّي

t.me/qurssan

براعم قاته، وتمدّ له ما تراه من أغصانه، وهي من تعدّ مياه الوضوء الدافئة، وترتّب فراش نومه.

ظلّ مرداس ينتظر وصول ابنه جمال، يخطّط ليلاً ونهاراً لما سيصنعه بهم بعد وصوله. يمثّل دور المُسيّر، خشية على حياته من زيد، تاركاً لفاطم حياتها مظهراً عدم الاهتمام بما يدور. بعدما وجد ما يشغله بسرد حكاياته لزهرة، قلقاً من نضوب ما يختزنه، راح يعوّض بأسئلة ليفتح مغاليق الكلام:

– حين صرختِ تحذّرينني من سمّ الكأس تلك الليلة، أكنت تفكّرين في الانتقام من صفيّة؟

– ولماذا الانتقام؟

– ألا تظنّين أنّها أضرتك؟

– لم أحمل لها يوماً غلّاً.

– فلماذا حذرتني إذاً؟

– لا أعرف إلّا أنّ صوتي خرج.

– فقط؟

– منذ رأيت أمّي تموت تحت أقدام الحرّاس، أصبحت أكره رؤية الموت.

– وتكرهين القاتل؟

– أرثي له.

– لماذا؟

– لأنّه وضع نفسه في ورطة العذاب الدائم.

يتمعّن في صوتها الذي يخرج مباشراً، وكلماتها المفعمة بالعفوية، جازماً بأن عجزها عن الانتقام خلق لديها تلك القناعات، أو هي سذاجة متأصّلة فيها، متذكّراً طعم لذة الانتقام، جازماً بأنّها لو ذاقته لتغيّر كلامها:

t.me/qurssan

– من علمك هذا؟

التفتت ناظرة إليه وقد غشيت عينيها سحابة دموع، ثمّ نظرت أرضاً:

– شادن.

– المارقة.

– سنوات بين أحضانها تعلمني التسامح والمحبّة والغفران.

– لكنّها قاتلة منتقمة.

– هذا ما يحيّرني ويشقيني!

– أنا على يقين لو ذقتِ طعم الانتقام لتغيّر رأيك.

– لكنّي لا أطيق رؤية الموت.

– لا تملكين القدرة، ولذلك تقولين ذلك.

صمتت متعجّبة من ثقته، بينما أضمر أن يتيح لها أن تنتقم، وبعدها يرى كيف ستتحدّث. فكّر في فاطم وقد اختارت طريقة أخرى لتحقيق أحلامها، جرّب تحريض زهرة عليها، قال لها ضاحكاً:

– عليكِ أن تتغدّي بها قبل أن تتعشّى بك.

– من؟

– فاطم التي تظنّ أنّك أخذتني منها.

سكتت تبحث عن إجابة فلم تجد، ليضيف: اعلمي إن لم تبادريها فستسبقك.

– سألتني في أول يوم عن سبب هروبي مع شادن.

– تريدين الهروب بعيداً.

– لا أريد الحديث عن الانتقام. طريقة تفكيرك ذكّرتني بها. شادن لم تقتل انتقاماً، فقط كانت تجد نفسها في موقع الدفاع!

– ولماذا هربتِ معها؟

t.me/qurssan

– لم أهرب إلّا بعد أن علمتني كيف أحلم، أن أكتشف الحياة وراء أسوار الحصن، كنت مرتبكة حين وافقت على مرافقتها، أن أهرب لأنجو ممّا يُدبَّر لي. وكما رأيت، لولا فضلك لأمسيت طعاماً للكلاب.

أدرك مرداس مدى ما تحمله الفتاة من آلام، رغم طبعها المسالم، يشعر بأنّها تؤثّر عليه بعض الشيء، وأنّ مرافقتها له بذرت في نفسه عاطفة كان يفتقدها، تجاوز بها إلى الدهشة والإعجاب بجنوحها للغفران والتسامح.

زهرة كانت تتعجّب حين كان يحدّثها عن بعض همومه، يشكو لها من أفعال تؤرّقه، لتلحظ أنّ شعورها تجاهه تحوّل من الخوف والحذر، إلى العطف عليه وهي تسمعه مثقلاً بهمومه، لا تصدّق وهي ترى ملامح جبّار عالقة في وجهه الهرم، حكى حكايات لا تُحصى عدا تلك المحرقة، وكأنّها فوهة سوداء يخاف الاقتراب منها، ومقتل ابنتيه أيضاً، لم يكرّر ذكرهما. ومع ذلك ظلت تدّخر أسئلة عن ذلك وتتحيّن الوقت المناسب. يوماً شكا لها أرقاً يعذبه، وإذا ما زاره النوم، تخالطه أحلام يقبل عليه فيها أناس يحملون أوعية، يستجدونه فرط العطش، يبحث حوله، يحمل إناءً كبيراً، يفيض ماءً زلالاً، يصرخون مبتعدين: لا، لا، هذا لا يروينا، نريد دماءً حارّة! يشكو لها عذاب لياليه، وتقلّبه بين الأرق والرؤى المفزعة، يرجوها ألّا تملّ سماع أحاديثه مهما كانت مفزعة. يذهلها نطقه لكلمة أرجوكِ، وكثيراً ما تدمع عيناها حزناً عليه، ليتردّد صدى صوته الحزين في أعماقها، تسأله بخجل:

– لو عاد الزمن إلى الوراء، فماذا كنت ستصنع؟

يمطّ رقبته، ويعتدل في جلسته وقد بدت على وجهه علامات الجِدّة:

– سأصنع ما صنعت. يصمت قليلاً ويردف: بل وأكثر!

t.me/qurssan

يتجهّم وجه زهرة وهي تردّد عليه نفس السؤال، ليهزّ رأسه مكرّراً إجابته بثقة.

– لا أصدّق أنّ من يشكو مرارة ماضيه، يعيشه بنفس القسوة مرّة أخرى.

– للأسف، إنّ الآخر لا يترك لك أيّ خيار.

تتأمّل وجهه مندهشة، وتردّ:

– هذا ما كانت تردّده شادن.

– ليست تلك الشقيّة أو أنا من نقول ذلك، هي الحياة ومن حولك يفرضون عليك أن تقومي بفعل ما ينبغي فعله لردعهم.

فكّرتْ زهرة في استغلال لحظات تجلّيه، وغامرت بسؤالها المعلق منذ حين:

– كنت أظنّ أنّك لو عاد بك الزمن لما أشعلت عوداً في غابة العصاة.

– لولا تلك النار لما مكثتُ في حصني بسلام.

صمتت وقد شعرت تجاهه بالشفقة، يغشاها شعور بالخوف عليه، تعجبها فيه صلابته ولا تريد أن تراه ضعيفاً، عاد يسألها:

– اتركينا من أحداث الماضي، وأسألك هل تتمنّين شيئاً لغدك؟

يهرب مبتسماً بسؤاله من ذكرها للحريق الكبير، لتتواطأ مع رغبته وتجيبه:

– سأحدّثك بما أتمنّى بعد أن تحدّثني أنت.

– أن يعود ابني جمال.

يتوقف للحظات عن الكلام ثمّ يسترسل بصوت هامس عن مكر زيد، وألاعيب فاطم التي تنزوي بحملها عن الأنظار، يسهب في أمانيه متصوّراً كيف سيكون الحصن بعد وصول ابنه، ناظراً إلى وجهها تارة وأخرى إلى الوادي، تستمع وأناملها مشغولة تُفَلّي أغصان قاته،

t.me/qurssan

تحدّث كثيراً ليصمت، ثمّ عاود النظر إليها سائلاً: وأنتِ ما قولك؟ تربكها طريقته تلك، فعادة ما تسرح بها بعض حكاياته بعيداً بعيداً. تبادله النظرات ولا تجد ما تقوله، فتلوذ بابتسامتها، يعرف لحظتها أنّه كان يحدّث نفسه وأنّها كانت عن حديثه بعيدة، يمسح على رأسها ضاحكاً من نفسه، ثمّ يقول لها: لا عليك، لا عليك.

تتذكّر أن تقول له أمنيتها:

– أتمنّى أن تسمح لي بالخروج.

نظر إليها مستغرباً:

– وأنا؟

هزّتها لهفته واتّساع عينيه وهو ينطق بتساؤله فردّت بعفوية:

– وأنت ماذا؟

لم يردّ على سؤالها، وكأنّه أدرك أنّها لا تعي مقدار حاجته إليها، مدركة أردفت:

– أن أزور امرأة عمياء عرفتها يوم هربت مع شادن.

– هل مللتِ منادمتي؟

– أبداً، فقط أزورها وأعود.

– ثمّ كيف تقول مللت، وقد أصبحت ملاذي الذي أعيش بفضله بعد أن كنت في عداد الموتى؟ لم تكمل وأجهشت بالبكاء، ليمدّ كفّيه ويحتضنها، يمسّد شعر رأسها وقد عاد ينظر إلى وجهها بحنان:

– تظنّين أنّي من أنقذك؟

– ومن غيرك؟

– عليك أن تعلمي أن شبرقة هي من فعلت!

– سيّدتي شبرقة؟

– أتعرفين أنّ وجهك هو وجهها؟

t.me/qurssan

– يقولون إنّني أشبهها.

– حين رأيت وجهك معلقاً على العمود، كان هو وجهها يوم زفافها. فوجهها هو الذي دفعني إلى إنزالك عن العمود.

صمتت تفكر في ما يتحدّث به، بينما واصل: ألا تتذكّرين محبّتها لك صغيرة. أتذكّر أنّها حدثتني ذات مساء عن خوفها عليك بعد رحيل أمّك، ولذلك اخترت تلك التعسة لرعايتك والعناية بك، وأجزم بأنّ روحها ستظلّ ترعاك طوال حياتك.

صمتت لتسمع صدى صوت شادن يتردّد «يجب أن تتحلي بالإيمان يا زهرة، فلم أكن أرعاك وأقف إلى جوارك لولا أمرها بذلك!».

يراقب حيرتها، ثمّ التفتت إليه وقد أشرق وجهها بابتسامة وقالت:

– أنسيتني أمنيتي.

– سنذهب معاً.

تتفرّس في وجهه غير مصدّقة ما نطق به، نهض راسماً ابتسامة وقال:

– هيّا، سنخرج معاً.

ارتبكت تتصوّر ذلك الكائن الذي يخشاه الجميع وقد خرج من عزلته يحيط به حرّاسه متّجهاً إلى درم «الأخدام». لم يمنحها فرصة، أسرع يغيّر ملابسه هابطاً من لحظتها إلى الساحة، صارخاً أن يعدّوا له خيله، أطلت من النافذة، وقد أطلت من نوافذ الدور الأخرى عدّة وجوه، التفت إليها: هيّا أسرعي، أنا بانتظارك.

هبطت تغمرها سعادة وقد تزايدت وجوه النوافذ، ليأمرها بالصعود خلفه على ظهر خيله، وسريعاً ما خرج بها آمراً الحرّاس بعدم مرافقته، عبر الساحة الخارجية، ثمّ انحدر بها حتى الطولقة الكبيرة، يرفع كفّه كلما حاذى أحداً، يتلقّت الجميع غير مصدّقين أنّهم يرون

t.me/qurssan

الشيخ وقد خرج وحيداً على ظهر خيله. تدلّه زهرة على الطريق حتى اقتربا من درم «الأخدام». يسابقها قلبها فرحاً، وعند مشارف الدرم أحاطهم سرب من الأطفال العراة، ثمّ عدد من الخوادم يتابعنهم باستغراب، بينما زهرة تشير إلى الطريق حتى كانا أمام بقايا كوخ. نزلت تسأل من تجمهرن حولهما، لتصعقها إجاباتهن: «العجوز فارقت الحياة بعد مقتل ابنها». صمتت للحظات وهي تنقّل ناظريها بين وجه الشيخ ووجوه من حولها، استجمعت قواها:

– هل قُتلت؟

– بل جوعاً بعد رفضها الطعام والشراب!

دخلت الكوخ دامعة، لم يعد من شيء غير تراب مبعثر، عرفت ممّن دخلن في أثرها أنّ العمياء دُفنت في جوار ابنها وزوجها تحت أقدامها. ركعت تقلب التراب ليرتفع صراخها وهي تتمرّغ أرضاً.

اختار السيد الأمين زيد صلاة عيد الأضحى ليعلن قيامه بتطبيق شرع الله على الذين توافدوا بأعداد كبيرة للصلاة في باحات الضريح. خطب: «وبدوري أدعوكم إلى إعانتي على ما نويت عليه، التمسّك بكتاب الله وهدي نبيّه وآله الأطهار، ومواجهة أصحاب الضلالة، وعلى رأسهم شنهاص الذي بلغني قبل أيّام أنّه منذ تسلله إلى الوادي يتخفّى بملابس النساء، وأسألكم، هل التشبّه بالنساء من تعاليم ربّ العباد؟ وهل تأمنون لمن يعيش متخفّياً بأردية المكحّلات، يستبيح حرمات البيوت وينام بين النساء، ويفسد ضعاف النفوس بالقليل من المال الحرام الذي أتى به من خارج الوادي. واليوم أكرّر ما قلته بالأمس ليشهد الله ورسوله عليَّ، فأنا – كما تعلمون – لم أعلن دعوتي طمعاً في جاه أو سلطان بل تلبية لنداء «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» وطاعة لرسول الكريم القائل «إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا

t.me/qurssan

بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي» ومن هنا أعلن دعوتي إلى التمسّك بكتاب الله ونصرة رسول الهُدى، «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا». وأعاهدكم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسير بأخلاق من هدانا إلى صراط الله العظيم، القائل عز وجل «ثمّ أورَثْنا الكتابَ الذين اصطفَيْنا من عِبادنا». وأقول لمن يريد الإفساد في الأرض وتسليط أطماعه، قد أتاك أهل البيت ورثة النبيّ الصادق الأمين، قاطعو دابر الظلم والفساد، ناصرو دين الله القائل «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً». وقد رأيت أن أضع عليكم ما استخرت الله فيه وأدعوكم إلى نصرة الله القائل «كونوا أنصار الله» وأتباع سيّد الخلق وآله، فلن أكون شيخاً عليكم لأسلب وأبطش، بل أدعو إلى تطبيق شرع الله، ولن تكون أفعالنا بعيدة عن الدين القويم، فأدعوكم إلى طاعة الله والتقيّد بأوامره ونواهيه، كما يؤسفني أن أشيع إليكم خبر ما أصاب شيخنا من اختلال عقلي، وقد علمتم أنّه قد خرج قبل أيّام يهيم دون عقل، ووجب علينا القيام بواجبه وفاءً لأمر الله عز وجل».

شعر زيد وسط تلك الحشود بأنّه أمسى سيّد الوادي بلا منازع، وما زاد من قوّته أنّ شنهاص قد كُشفت حيلته، وعرف الجميع أنّ تلك المداوية التي تدخل البيوت وتنام بين النساء ما هي إلّا شنهاص.

بعد خروج مرداس دون حرس وبرفقته إحدى خادمات الحصن، أصبح الجميع يعاملونه كما لو أنّه مختلّ، وما زاد ألمه حين وصله ما تفوّه به زيد في خطبة عيد الأضحى واصفاً إيّاه بالمجنون، لا تعرف زهرة أتحزن لوفاة العمياء أم لحالة الشيخ الذي اختار الصمت، ما إن تعيده إلى حيويته حتى يغرق من جديد في نوبات صمت تتزايد مساحتها يوماً بعد يوم، تبحث عن مواضيع تشدّه، عن قرب عودة جمال، عن خططه للانتقام، يبتسم بعينين ساهيتين:

t.me/qurssan

– أظنّه سيصل في أيّ لحظة، لكنّ ما يؤلمني حال فاطم.

– فاطم في الشهور الأخيرة من حملها، سيكون لك ولدٌ ثانٍ من صلبك.

– لا أحد من صلبي.

– كيف؟

– لا تشغلي بالك.

يلوذ بالصمت ناظراً إلى الوادي وكأنّه يراه لأول مرّة، لم يكن أحد لاحظ تغيّر الشيخ عدا زهرة، التي افتقدت حكاياته.

ووقعت الفاجعة حين ارتفع صراخ إحدى خادمات فاطم بعدما وجدتها ممدّدة على فراشها وقد بُقر بطنها. قال لزهرة حين سمع بالخبر: لست أنا الفاعل، لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

ظلت في حيرة وهي تنظر إلى قامته القصيرة وبنيته المتهالكة، تفكّر في من يكون له مصلحة في قتل فاطم. تصارع ظنونها، لكنّها تظاهرت بتصديقه. حضر السيّد الأمين زيد معزياً في وفاة زوجة الشيخ. تكلم بكلمات مؤثرة عن فقدان أعزّ أبنائه، قال: فاطم لم تكن مجرّد ابنة، كانت لي الأخت والصديقة. أعزّيك يا صديقي العزيز مرّتين، مرّة لوفاة زوجتك وأخرى لوفاة ولدك الذي كنّا نستبشر بقدومه خيراً، لكنّها مشيئة المولى عزّ وجل.

كانت كلماته صادقة ومؤثرة. لكنّ ما أثار تعجب زهرة أنّ خبر مقتل فاطمة لم يتجاوز باب دارها، ولم تُقم لها جنازة، تحاول فهم ما يعتمل، تسأل الشيخ الذي أظهر حزناً عميقاً، ودوماً يلتفت إليها صامتاً دون أن تتغيّر ملامحه، ثمّ يعاود النظر إلى الوادي. أمسى مرداس يغرق في صمتٍ متواصل، تحاول زهرة إخراجه، تستحثه تارة، وأخرى تبكي بين يديه ترجوه، لكنّه يكتفي بالتقاط براعم القات،

t.me/qurssan

يلوكها بتمهّل، تكرّر حديثها عن جمال، وعن قرب عودته، ليفاجئها بعد صمته لأيّام: ليس لي ولد بهذا الاسم! أرجوك كفّي عن الهذر.

في الوقت الذي كان فيه مرداس قد فقد الأمل بعودة ابنه، كان السيد الأمين قد وجد ما يواجه خطر وصول جمال، أن يتجاوب مع إشارة عيشة، المولعة به منذ شهور، لتكون الورقة التي يمكن أن يُسيّر بها جمال، عيشة التي ظلّت لسنوات مهملة ومهجورة، أن يجعل منها أداة مطواعة، لم يفاجأ حين فاتحها بموافقتها، اشترطت عليه أن يضعه في الدار الخلفية حبيساً، ليعرض عليها أمراً آخر:

– وإن كنت راغبة في أن أضعه في القبر، فسأضعه!

– لم يحن الوقت، أريده أن يذوق ما أذاق بني عمّه لبعض الوقت.

– كنت أظنّ أنّ بك حنيناً لبعض أقاربك.

– الحنين موجود لوالدي. لكنّي أريده أن يراه في جواره.

خرج شنهاص سافراً عن وجهه، داعياً أنصاره إلى الاستعداد لنصرة دين الله القويم، معلناً اقتراب جهاد أهل البدع من الروافض والمشركين.

يستحثّ حميّة الناس ضدّ زيد الذي تجرّأ على حبس مرداس في دار صغيرة بداخل الحصن، وأمر بعدم السماح لأحد برؤيته، ولم يكتفِ بذلك بل قام بخطوة أخرى تمثّلت في زواجه بعيشة زوجة الشيخ السابقة، محتلّاً الدار الوسطى التي كانت سكناً لمرداس، ثمّ غيّر اسم الحصن وسمّاه «حصن الزيدي» مكلفاً أكبر أبنائه بالإشراف عليه وعلى حرّاسه، وعلى مخازن البنّ ومقاشره، كما أطلق على الوادي اسم «وادي الزيدي». وأضحى لزيد مقرّان: حصن الزيدي حيث الذخائر والسلاح والمال وزوجته عيشة، وقرية الهجرة حيث الضريح.

t.me/qurssan

سكنت عيشة الـدار الوسطى، وأعـادت تـوزيـع الخـادمـات على الدور، كان أشدّ ما يقلقها أن يفكّر زيد في نقل إحدى زوجتيه إلى الحصن، ولذلك شغلت جميع الدور بالخادمات، حتى لا تصبح مهجورة. وقـد ضمّت زهـرة إلـى خدمتها، إلّا أنّ قلبها كـان معلقاً بمرداس، تبحث عن طريقة لمعرفة أخباره، وقد أمسى حبيس دار خلف الدور الكبيرة، حاولت إقناع عيشة:

– أتمنّى على سيّدتي أن تلحقني بخدمة الشيخ.

ردّت عليها بغضب غير مسبوق:

– أشك في أنّ لك روحاً شيطانية.

– عفواً سيّدتي، فقط أن أراه!

ابتسمت خافضة صوتها:

– لماذا هذا الإلحاح؟ قولي لي ماذا كان يدور بينك وبينه؟!

كلماتها أعادتها إلى تلك اللحظات التي كان يسترسل فيها بحكايته وقد تحوّل إلى طفل كبير، يسعد حين يرى عينيها تتابعان حركة فمه. تحاول معرفة لماذا كان متعلقاً بها، لكنّها لم تعرف السبب. لم تجد ما تردّ على عيشة، أظهرت الانصياع لها، وقد بيّتت نيّتها بزيارته. تعبر الساحة الداخليّة، تتسلّل خلف إحدى الدور شرقاً، أشجار عملاقة تحيط بـدار صغيرة من طابقين، بجوار بابها المغلق مبنى صغير يبدو أنّه للحراسة، لا نوافذ عدا ثلاث في الـدور الثاني سُدّت بأحجار وطين، كلّ شيء ساكن مهجور، عادت أدراجها خوفاً من أن يراها أحد، طوال أيّام تلحّ على من يذهبن بطعامه، عرفت أنهنّ لا يرينه، وأنّ الحرّاس يتناولون ما يعدنه من طعام، تسأل إحداهنّ عن وسيلة لرؤيته، متمنّية عليها أن تساعدها. تبتعد مذعورة دون أن تردّ.

كان الأمر محيّراً، تتذكّر كيف استدرجت وشادن ذلك الحارس، ومصير ابنتي مـرداس، وفاطم التي يتهامس الجميع بأنّ ما كان في

t.me/qurssan

بطنها نتيجة لمعرفتها بأحد الحرّاس، تراود زهرة نفسها لتكرّر ما كان، لعلّها تصل إليه عبر أحد الحرّاس.

لم تصدّق عينيها وهو يسير بها وسط أكوام فضلات بشريّة وبقايا خرق وأحذية عبر فتحة واسعة بداخل ذلك الدار، سألته فلم يجب، رأت أمامها باباً سفليّاً، ظنّت أنّه سيُفتح وقد أخذ يهتزّ، ثمّ تسرّبت من شروخه أصوات، هزّ الحارس عصاه صاعداً سلّماً في الزاوية القريبة، ومع نهاية الدرج فتح باباً متهالكاً على مساحة واسعة دون فواصل عدا أربعة أعمدة تحمل سقفاً باهتاً، لم ترَ أمامها أحداً، فجأة ظهرت ثلاثة وجوه شاحبة يقف أصحابها عراةً على مبعدة، ورابعاً دون ساقين يتعكّز على ساعديه، كأنّهم انبثقوا من العدم، أرعبتها عيونهم الغائرة، وشعر رؤوسهم المتّصل بأجسادهم وقد تلبّد في جدائل غير متناسقة، يبتسمون بأفواه فاغرة عن أسنان لوّثها الهلاك، تبرز عروقهم النافرة على هياكل عارية، تراجعت فزعة دون شعور، صاح فيهم ثمّ رفع عصاه تلاحقهم بغلظة الضرب على ظهورهم وأذرعهم وقد رفعوها حماية لرؤوسهم. هرولوا بعيداً حتى اختفوا. سألته بخوف: من هؤلاء؟ أمسكها من ذراعها وسار بها منعطفاً حول ركن قريب لتفاجأ بالشيخ وقد اضطجع متّكئاً على وسائد مهترئة، لم يكن من شيء يستر بدنه ببياضه اللافت تاركاً جواره أغطية قديمة بعضها ممزق، يحرّك فمه فلا تعرف هل هو يمضغ أم يتحدّث دون صوت، كلّ ما حوله مبعثر، على بعدٍ لمحت كومة براز، وصحوناً فارغة، جلست إلى جواره تحدّثه دون أن يعيرها انتباهاً، استمرّت حركة فمه، استبشرت حين نظر إليها، سألته: أنا خادمتك زهرة! ظلت نظراته في وجهها دون معنى، دون أن يردّ عليها، رجته إن كان ينقصه شيء، ليذهب بنظراته بعيداً، وفمه يلوك الهواء، وكأنْ لا أحد إلّا هو في ذلك الخراب.

t.me/qurssan

لا تعرف كيف عرفت عيشة بزيارتها لتلك الدار، هدرت غاضبة وقد تكوّمت زهرة أرضاً، بينما مجموعة من الخادمات ينتظرن أمر سيّدتهنّ، التي رفعت رأسها ناظرة إليهنّ وأمرتهنّ بالانصراف، وعادت توجّه غضبها إلى زهرة: اخترتك لتكوني قريبة منّي، سألتني أن تزوري مرداس فحذرتك، وأنت تعرفين أنّ الأمين قد حرّم عليه الزيارة، وتعرفين أيضاً أنّ الموت لمن يخالف. صمتت عيشة وقد صوّبت عينيها إلى وجه زهرة وقالت بصوت هامس وهي تبتسم: أتعرفين أنّي حين أعلموني بعصيانك عدت بذاكرتي لسنوات حياتك، واكتشفت العجب العجاب، فلا أعرف هل أتخلّص منك؟ وقد رأيت أنّ من قرّبوك إليهم قضوا نحبهم، بداية بأمّك، ثمّ شبرقة، وصاحبتك شادن، ابنتي مرداس، فاطم، ومرداس كما نراه بين الحياة والموت! أليس في الأمر غموض؟!

رغم أسلوب سيّدتها الهامس، وابتسامتها العذبة التي أرادت أن يبدو في كلامها شيء من الظرافة، شعرت زهرة بما ترمي إليه، فردّت بصوت باكٍ:

– إذن يا سيّدتي اسمحي لي بالرحيل بعيداً.

– كيف ترحلين وسيّدك الأمين له رأي آخر، فهو يرى أنّ من يعيشون في الحصن يحملون أسراره، ولا يخرجون منه إلّا إلى المجنّة!

سرت قشعريرة باردة تنخر بدنها لوقع تلك الكلمات، لتكتشف أنّ عيشة ليست تلك المرأة التي يصفها الجميع بالسذاجة والطيبة. تتذكّر شادن التي علمتها الاعتزاز بالنفس، يتردّد صدى صوتها «عليك معيشة محيطك دون أن تفقدي عزتك لأيّ شأن، أن تكوني مع نفسك الكائن الذي تحبّين أن تكونيه، ذاتك التي ترينها».

بعد أيّام استدعتها عيشة إليها، وكما توقعت، صرفت من حولها، لتسألها وقد غلب على صوتها نوع من العاطفة: ألم تسألي نفسك لماذا لم أخبر السيد الأمين عن معصيتك؟!

t.me/qurssan

ذلك السؤال كان يتردّد في أعماق زهرة منذ زيارتها للشيخ، وإن بشكل مقلوب، فهي ظلت تتوقع العقاب، في الوقت الذي كانت تشعر فيه بأن عيشة لا تريد ذلك. ظلت صامتة ولم تجب عن سؤالها. أمسكت بوجه زهرة بين يديها وهمست: لأنّي أريدك بقربي، خادمتي المفضّلة!

في تلك الهُنيهة شعرت بأنّ عيشة عصيّة على الفهم:

– كما تريدين يا سيّدتي.

أدركت بعد وقت من مجالستها سرّ تودّدها لها، بعدما أخذت تمطرها بالأسئلة:

– أتتذكّرين ما كان يتحدث به مرداس إليك؟

– أيّ حديث تقصدين سيّدتي؟

– ألم يتحدّث عنّي، عن السيد الأمين، عن جمال؟!

– صحيح.

– هيا حدّثيني.

– من أين أبدأ، فالحكايات كثيرة؟

– كما تريدين!

– لكن لا أعرف أيٌّ منها يهمّك.

– كلّ ما عندك يهمّني، ما وراءنا.. احكيه لي!

تختار بواكير الأيّام لتشاركها فطورها، تدللها أمام غيرة الجميع، تقف زهرة محتارة ومتسائلة: ترى لو لم يزوّدني الشيخ بتلك الحكايات أكنت في عالم الأموات؟ أكان يعلم بأنّها ستكون لي ذخراً فظلّ يحكي؟! في البداية كانت تأتي بما يطرأ على ذهنها، لتتعرّف حكاية بعد حكاية إلى ما يشدّ عيشة وما لا يهمّها، تنتقي بحذر حتى لا تقع في المحذور. تطلبها بين حكاية وأخرى عن حكايات متصلة. تستوقفها عند بعضها، تسألها أن تعيد حكيها، أو تطلب منها إعادة

t.me/qurssan

حكاية قيلت قبل أيّام. وأحياناً تطلب منها تذكّر بعض تفاصيل نقطة أو حدث ذكرته في إحدى الحكايات.

اكتشفت بعد حين أن عيشة تحفر في جدار الحكايات بما تعين ابنها على زيد، ليتجاوز حيله التي تغلّب بها على مرداس، ولا تريد أن ترى جمال مغلوباً على أمره أمام دهائه. ولذلك أضحت واعية بأهمية ما لديها من حكايات، ما جعلها تقتصد في سردها، فهذا سلاحها الذي لا تمتلكه عيشة، تصمت عاجزة في بعض الصباحات لتختلق حكايات لم تسمعها، تلبية لشهوة تتنامى بداخل عيشة لتتمكّن من نصرة ابنها.

كانت زهرة تشعر مع مرور الأيّام بإحساس جديد بالأمان، لتغامر سائلة:

– هل ما زلت تريننني شؤماً سيّدتي؟

سؤال فاجأها، نظرت إليها بذهول من جرأتها، تحوّلت إلى نظرة مبهمة، ثمّ مدّت كفّها تملّس شعر رأسها:

– أما زلتِ تتذكرين ذلك؟ لم أكن جادّة، وإن لاحظت فإنّ حياتك عجيبة؟!

كانت تلك الكلمات مفتاحاً لأسئلة أخرى، فضّلت الاحتفاظ بها للوقت الذي تراه مناسباً، معتمدةً الحذر خشية أن يأتي اليوم الذي تراها فيه فرغت من محتواها.

وكان اليوم الذي لبّت فيه الجموع النداء لأداء صلاة الجمعة في قرية الجفنة يوماً مشهوداً. صعد شنهاص المنبر خطيباً ليقف سافر الوجه، مردّداً «هذا أنا اليوم سأواجهك يا زيد، وأتقرّب إلى الله بدمك أيّها الرافضي، أقاتلك نصرةً لشرع الله، ولإيقاف فرق الموت التي ذبحت وأحرقت وسرقت الرعيّة، ولم تستحِ من الله حين تكذب

t.me/qurssan

وقد ألصقتها بغيرك، لكنّ ما تصنعه هو من لبّ عقيدتك التي من أركانها التقيّة والكذب وقلب الحقائق، فلا تفصح عمّا تبطن، ولا تفي بما تعِد، ولا تخشى الله حين تسفك دماء الأبرياء، ولا تستحي من نبيّ الهدى وقد ادّعيت أنّك الصادق الأمين، ولم تخجل حين تزوّجت زوجة مرداس وأهنته بحبسك، نحن قادمون في سبيل الله، لنحطّم أضرحة الشرك رموز الطواغيت، قادمون لمحاربة البدع والضلالة مشوّهي دين الله الحنيف، معلنين قرية الجفنة داراً للإسلام».

استمرّ شنهاص خطيباً في الجموع التي توافدت من مختلف قرى الوادي، يدعوها إلى التمسّك بكتاب الله وسنّة رسوله الكريم، معلناً البدء بتطهير القرى من دعاة البدع والشرك، منكراً ما يدّعيه الروافض بورثتهم للنبوّة، مردّداً بعدما أكمل خطبته: الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر ولله الحمد، لتتبعه الجموع تردّد صدى تكبيراتها الجبال المحيطة.

فوجئ زيد بأخبار كثرة مناصري شنهاص، وإعلانه الحرب، منصِّباً نفسه شيخاً لأهل سنّة الرسول في كلّ مكان، داعياً إيّاهم إلى نصرته.

بدوره أعلن زيد النفير العام لرعيّته محدّداً الهجرة مركزاً للتجمّع، مكرّراً توجيه الدعوة لمحبّي آل البيت في كلّ مكان إلى مناصرته.

اصطفّ جميع أنصار آل البيت على أطراف الهجرة غرباً، بينما اصطفّ أنصار السنّة على مشارف الجفنة، وكانت تفصل بين المتحاربين ثلاث قرى. مع شروق صبح جديد سُمع الكل يردّد «الله أكبر، النصر للإسلام»، لتدوّي أول رصاصة، ولا يُعرف من أيّ اتّجاه كانت، تلتها مئات الطلقات من كلّ طرف، وقد زحف المتحاربون متخللين تلك القرى حتى كانت المواجهة، وسرعان ما ظهرت الغلبة

t.me/qurssan

للسلاح الجديد الـ«كلاشنيكوف»، الـذي زوّد الأميـن زيـد أنصار آل البيت به، وتراجع رجال أنصار السنّة إلى أطراف «دار الإسلام» الجفنة. ولم تغرب شمس ذلك النهار حتى أحكم أنصار آل البيت حصارهم على دار الإسـلام من ثـلاث جهات، سقط عـدد كبير من المهاجمين أثناء الحصار، الذي استمرّ ستة أيّام.

في اليوم السابع تغيّرت الكفة حين استطاعت مجموعة من أنصار السنّة الالتفاف ليلاً عبر سفوح الجبال الجنوبية، ليفاجئوا المُحاصرين مـن الخلف، دبّ الـذعـر بين أنصـار آل البيت وظنّوا بالخيانة، ليفرّوا من مواقعهم. استغلّ من في دار الإسلام الوضع ليشنّوا هجوماً واسعاً، فسيطروا على مرتفعات تهيمن على عدّة قرى، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانوا قد سيطروا على القرى الوسطية موجّهين هجومهم باتّجاه الهجرة عبر السفوح الجنوبية، ولم تمض أيّام حتى شوهد سكّانها يلوذون بالفرار شرقاً لكثرة الرصاص المنهمر عليهم، ركّز أنصار السنّة على صعود ربوة الضريح. استمات المدافعون ليتحصّنوا خلف جـدرانـه، ومـع قـدوم الليل تسللت مجموعة من أنصار السنّة ليزرعوا النواسف تحت جدرانه. دوّت الانفجارات وأضيئت جبال الـوادي، سُمع الـدويّ إلى أماكن قصيّة، ومع شروق الشمس ارتفعت هتافات «الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر ولله الحمد». وقد تحوّل الضريح إلى تلة ركام من الأحجار دُفن تحتها المدافعون الذين قيل إنّ بينهم ثلاثة من أبناء زيد. أمر الشيخ شنهاص أنصاره بنبش قبر المهاجر وتسوية الأرض لتكون مصلّى خالياً من القبور امتثالاً للسنّة النبوية، لكنّهم لم يجدوا في باطن قبر المهاجر سوى طلاسم على ألواح خشبية ولم يجدوا غيرها، لينتظموا صفوفاً يؤدّون صلاة الشكر لله.

أرسـل شـنـهـاص بـرسـول يحمل رسـالـة يـدعـو فيها زيـد إلى الاستسلام وحقن الدماء، واعداً إيّاه بأن يظلّ مستشاراً على الوادي

t.me/qurssan

كما كان، لكنّه أعلن رفضه مستشهداً بقول الرسول الكريم «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لما...».

ظلّت الهجرة قرية أشباح حتى سمح شنهاص لأهلها بالعودة شرط إعلان براءتهم من أعمال زيد، متعهّدين بأن لا يحملوا سلاحاً، وأن يعودوا كما كانوا مسالمين فلا يناصروا أحداً على أحد.

منذ بداية القتال كانت مجموعة من مشايخ الأودية المجاورة في مشاورات مستمرّة، ليظهروا مساعي حميدة لإيقاف الحرب، بادروا إلى إرسال مجموعة من رجالهم للفصل بينهم. ولم يفطن زيد ولا شنهاص إلى تلك الحيلة، إذ سرعان ما تزايد عدد الوافدين، ليتمركزوا في تلال وسطية، ولم يطل الأمر حتى سيطروا على عدّة قرى، لتنشب حرب متعدّدة الجبهات، عمّ خلالها النهب والسلب في طول الوادي وعرضه، لتتفرّق رعيّة زيد الذي فرّ محتمياً بالحصن، ويسيطر كلّ متغلّب على ما تحت يده من قرى. وأصبح الوادي مقسّماً إلى عدّة أقسام، حصن الزيدي وقرية المنحدر تحت سيطرة زيد، بينما شنهاص يسيطر على خمس قرى بينها قرية الهجرة، وتقاسم مشايخ المخاليف الأخرى بقيّة القرى وأعلنوا ضمّها إلى مخاليفهم. ولعدّة أشهر انشغل الجميع بالقتال، لتسود قعقعة الرصاص ودويّ النواسف ليلاً ونهاراً، استهدف الجميع الرجال والنساء ولم يسلم كبار السنّ... وحتّى المواشي والكلاب، وكلّ ما يتحرّك كان عرضة للرصاص، يقاتل كلّ شيخ طمعاً بالتوسّع، معلناً أحقيّته، مستشهداً بالكتاب والسنّة.

مع اقتراب قارون من الوادي، عرف ممّن يلتقيهم ما حلّ بالوادي، تسلّل من قرية إلى أخرى، متجنّباً قرية الجفنة حتى لا يلتقي بشنهاص، خشيةً من تعنيفه وقد رآه حليقاً لابساً بنطالاً وقميصاً ملوّناً، أينما عبر يحتكّ برعيّة يأملون ظهور منقذ، والبعض يبشّر بأنّ هناك

t.me/qurssan

علامات لظهور المهدي المنتظر. عبر قرى يتوزّعها عدّة مشايخ حتى وصل إلى قرية خاله، عرف من زوجته أنّه تزوّج بحبشية وقرّر أن يستقرّ في السودان، كما أخبرته بأنّ ولديها هاجرا إلى السعودية منذ أشهر، وبدورها تعيش وحيدة إلّا من زيارة ابنتيها في الجوار. ودَّعها عابراً بين قرى تمترس سكّانها خلف جلاميد حجرية، ولا يُرى منهم غير فوهات البنادق، لم يعد من مزارع، كلّ شيء خراب ورعب.

استجابت الأقدار حين تناقل الناس أخبار وصول الشيخ جمال ابن مرداس إلى صنعاء، وأنّ حكومة العسكر منحته منصباً كبيراً. بدأ الجميع يترقبون وصوله. وقد خفتت قعقعة الرصاص، وأرسل زيد رُسله يدعو شنهاص وبقيّة المتغلبين لإنهاء الاقتتال، عارضاً عليهم التحالف لمواجهة خطر محتمل، لم يسمِّ الخطر، لكنّ الجميع فهم مقاصده، بينما كان يحدّث زوجته عيشة عن استعداده للوقوف مع ابنها لاستعادة الوادي إذا ما وصل.

وصل قارون إلى قريته منحدر الحصن، يسأل لعلّه يجد أخباراً عن والده، يتمنّى ظهوره، دون أن يستدلّ على خبر. وجد بيتهم مسكوناً بآخرين، الأرض التي كانت تزرعها والدته مهملة وأشجار البنّ يبست. ترجّى ساكني بيتهم السماح له بدخوله، لعلّه يجد شيئاً من أمّه، أن يطلّ من نافذته، أو يرى الوادي من سطحه. اكتفوا بالنظر إلى شكله الغريب والضحك جماعياً.

انشغل بالبحث عن قبر أمّه، قادته إحداهنّ إلى زاوية في مجنّة القرية، لم يجد البقعة تشبه بقيّة القبور، مكان ترابي دون معالم، حتى إنّه لا يشبه أمّه، أو هو يشبه بساطتها. رفع وجهه نحو السماء دامعاً وقد نوى الرحيل. لم يعد من شيءٍ يربطه بذلك المكان الذي ظلّ يحنّ إليه، يفكر أيّ الاتجاهات يختار، رآها وقد تساوت أمامه، يفكّر في ترك قدميه تقودانه كيفما شاءتا، للحظة تذكّر رغبة قديمة،

t.me/qurssan

أن يشكر تلك السيدة التي أنقذته يوماً من الموت، صعد الطريق حتى مرتفعات تذكّره بيوم صعوده محمّلاً بالشِرك، لم تطل الطريق كما كانت، وصل إلى الساحة لتحاصره رهبة تصاعدت من أعماقه، للحظة ارتجف بدنه ببرودة غريبة، التفت حوله لعلّه يجد سبباً، كان كلّ شيء صامتاً، أعمدة التعذيب، ركام ضريح الجدّ الأكبر، المسجد ببابه المخلّع، المجنّة وقد تهالك سورها، باب الحبس يتنفس زخماً أسود، اقترب من البوابة الكبيرة لعلّه يسترق النظر إلى الساحة الداخلية، هزه صوت أحد الحرّاس:

– هيه، أنت عمَّ تبحث؟

– لا شيء.

– من أنت؟

– عابر.

– تبدو غريباً، ماذا تريد؟

– لا شيء، أردت أن أسلم، فأنا راحل.

– تسلم على من؟

– على السيدة عيشة.

– زوجة السيد الأمين!

صُدم قارون بذلك الخبر، مفضّلاً الظهور بمظهر العارف:

– أرسل من يخبرها أنّ قارون يريد السلام، لن تخسر شيئاً.

صمت للحظات، ظنّه سينهره لكنّه ابتسم:

– اسمك قارون.

– نعم قارون.

– سنرى إن كنت تتحاذق.

رفع الحارس صوته ليظهر زميل له، أشار أن يحلّ محلّه حتى يعود، ومضى. مرّ بعض الوقت، عاد لاهثاً:

t.me/qurssan

– هيه، اتبعني أنت!

يتمنّى أثناء عبور الساحة أن يمهله ليملأ عينيه، لكنّه عبرها مسرعاً ليصعد خلفه سلالم الدار الوسطى. شعر بسكون في البداية، ثمّ بأصوات نسائية، حتى وصل به إلى صالة واسعة في الدور الثالث، ظهرت امرأة أشارت إليه أن يتبعها، يزداد الضوء والسكون كلما صعد، وقفت به على أطراف قاعة احتشدت بالروائح العطرة، رفع ناظريه على امرأة تقف وحيدة وقد لُفّ رأسها بطرحة سوداء أتت على نصف وجهها، عادت ذاكرته إلى ضجيج سوط جبّار، وضوضاء الحرّاس:

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام، أهلاً بك.

لبرهة جاء صوتها من ذلك اليوم، تأكّد من أنّها هي نفسها:

– أنا قارون، وقد أتيت لزيارة قبر أمّي، وسررت بالسلام عليك قبل مغادرتي.

– أهلاً بابننا قارون، لكن أخبرني أين كنت كلّ هذا الوقت.

– شريداً.

– غبني لقلبك.

نطقت كلماتها وصمتت لهُنيهة، ثمّ رفعت كفّيها بالتصفيق، ليفصح أحد الأبواب عن مجموعة من النساء، أصغرهنّ فتحت فمها لشهقة زفرتها حين نظرت إلى وجه قارون، التفتت العيون إليها، نسيت أن تسحب عينيها، أو ربّما هي تعمّدت الإطالة، ثمّ توارت مرتبكة. كأنّه رآها يوماً ما، بحث في تلابيب ذاكرته عن وجه تلك الفتاة، تذكّر سوط جبّار يلسع أطرافه دون رحمة، يسمع صراخها، صباح كان جبّار يمثل قدراً حتمياً. تعالى خفقان قلبه وقد تداخل مع صوت عيشة التي أقبلت يومها هلعة «كفى يا جبّار، كفى».

t.me/qurssan

أدركت عيشة لحظتها ما يدور في خلده، أعاده صوتها من الماضي تطلب منه الجلوس، اتّكأ متردّداً جوار نافذة تطلّ على الوادي، أشارت تحدّثه: لقد شببْتَ كثيراً عن آخر مرّة رأيتك فيها، أين كنت؟

– في عدن.

– في عدن! وأنا أتساءل من أين لك بهذه الغرابة؟

– والشيخ جمال ما هي أخباره؟

– ألم تسمع بعودته؟

– لقد سمعت.

– بقدر شوقي، سأنتظره حتى يأتي هنا.

عادت زهرة تحمل أطباق طعام وكؤوساً. وقفت تتابعه بنظرات جذلى، تتمنّى الجلوس إلى جواره، أن تمسك بيده وتسأله عمّا يشغله، غاب كلّ ما حولها، وارتفع ضجيج أعماقها. لم تنتبه إلى أنّ عيشة ترقبها وتتخيّل ما يعتمل بداخلها. نهض مستأذناً، وتوجّه بكلماته نحو عيشة: شكراً، سلّمت عليكم، والآن أستودعكم الله.

انشغلت زهرة بمتابعته، قالت عيشة:

– هل ستعود للسلام على جمال حين يصل؟

وداعه أيقظ توهان زهرة، وتحفّزت نظراتها، وقد ردّ على دعوة عيشة:

– لا يوجد ما يبقيني في الوادي، قد أزور جمال في صنعاء.

فجأة انفجرت زهرة باكية أمام دهشة الجميع. في الوقت الذي رأت فيه عيشة أنّها استنفدت ما لديها من حكايات مرداس، وأنّ بقاءها لم يعد مجدياً، أشارت على الجميع بالخروج.

رفعت زهرة صوتها كالملهوفة:

– إن كنتِ تعنينني، فلن أخرج، إلّا إذا سمحتِ لي سيّدتي بالرحيل.

t.me/qurssan

نطقت تلك الكلمات ماسحة دموعها، توزّعت نظرات قارون بينهما محتاراً، وقد خشيت زهرة أن يذهب ويختفي للأبد. لم تشعر بأيّ إحراج من جرأتها، أو هي روح شبرقة تدفعها وقد حضرت من الماضي. لاحظت عيشة ذلك التغيّر على وجه زهرة وتلك النظرات العطوفة من قارون، أدركت أنّ زهرة في مواجهة فاصلة، شعرت بالعطف عليها، وقرّرت أن تكون في صفها مهما يكن الأمر، وأن تسمح لها بالمغادرة معه:

– لك ما تريدين يا زهرة!

ركعت أمام سيّدتها باكية، تحتضن ساقيها شاكرة، بدا الأمر لقارون سريالياً، أو أنّهما تلقيان به، إلى أن لمح الجدّية في صوتها:

– أنت يا قارون اليوم رجل، وزهرة فتاة ناضجة، سأتركها في ذمّتك، فلتتزوجا، وأنت يا زهرة انهضي واجمعي ما تحتاجين إليه!

– سيّدتي، لا أعرف كيف أشكرك.

ابتسمت عيشة لتحتضنها، ثمّ مسحت على رأسها:

– سامحيني إن كنت قسوت عليك يوماً، وتذكّري أنّ داري ستظلّ مفتوحة لك.

ثمّ وجّهت أمرها لإحدى النساء:

– رافقيهما وأخبري الحرّاس بالسماح لهما بالخروج.

تجرّأت وأمسكت بكفّه وكأنّه أليفها منذ سنين، تبعها بصمت وذهول، يفكّر في غده معها وهو الشريد. خرجت به من بوّابة الحصن، تعرف الطرق التي ستسلكها. عبرا الساحة صمتاً إلّا من صهيل مشاعرها، تعامله وكأنّها تعرفه منذ سنين، هبطا المنحدر حتى الطولقة الكبيرة، ثمّ انحرفت به عبر مجرى السيل غرباً، تنظر بين فينة وأخرى إلى وجهه صامتة، مندهشاً ممّا تصنع به، عبرت سهولاً واسعة، كان يودّ أن يسألها لكنّ خطواتها الجادّة كانت تشي

t.me/qurssan

بيقين وجهتها، اندهش حين اقتربت به من درم أخـدام، اخترقت أزقة الأكواخ، لتقف أمام كوخ لم يبقَ منه إلّا سيقان متفرّقة، تقاطرت بعض الخوادم يستطلعن الأمر، تسابقهنّ جوقة من الأطفال، سألتها إحداهنّ:

– أتبحثون عن شيء هنا؟

ردّت زهرة متأمّلة وجه قارون:

– نريد أن نسكن كوخ جدّتي.

التفتت الخوادم بعضهن إلى بعض متسائلات، ثمّ نظرن إليها غير فاهمات، دخلت تسوّي قاع الكوخ، بينما قارون مستغرب ممّا يـدور. قبيل مغيب الشمس وقفت مجموعة من «الأخـدام» تبوح عيونهم بتساؤلات عن وجودهما بينهم.

تعدّدت الوفود الذاهبة والآيبة إلى صنعاء ومنها، الكلّ يسعى لإقناع الشيخ جمال بزيارة الـوادي، شارحين له ما آلت إليه أوضاع الـوادي، فيما استمرّ زيد يرقب ما يـدور، متصوّراً وصول جمال إلى أبواب الحصن، يخرج رسالته تلك يكرّر قراءتها، يردّد وهو يذرع المكان وحيداً: ماذا عليَّ أن أفعل للتخلص من ذلك الأصهب؟

يلحّ على زوجته أن تسافر لزيارته في صنعاء، هادفاً إلى إبقائه بعيداً، وحتى لا تكون سبباً في قدومه، ومع تفاعل تلك المفارقات يكلف من يغادر إلى صنعاء ليرصد أغوار نفس جمال. وسريعاً ما عاد ليخبره بأنّ جمال يعيش حياة مترفة، يعاقر الخمر، ويقضي لياليه في مجون، ولم يفطن إلى أنّ عيشة قد اشترت رسوله، تيقن بعدها بأنّ مكانته على الحصن في أمان، مفضّلاً استمرار استخدام جمال كفزاعة يرعب بها شنهاص وبقيّة المتغلبين، مع استمرار محاولاته إقناع عيشة بزيارة صنعاء، آملاً أن تبقى إلى جوار ابنها، وبذلك يتغيّر الوضع.

t.me/qurssan

خيّم الترقب على الوادي، ليعود هدوء حذر بين أركان الصراع، وقد أظهر كلّ متغلب شيئاً من القناعة بما تحت يده. وعاد الرعيّة لحرث حقولهم. إلّا أنّ الأمين زيد كان في قلق دائم لعدم موافقة عيشة على زيارة صنعاء، فسعى لكسب ودّها، ولا يعرف أنّها أُعجبت باللعبة الجديدة، ترى الكل مذعوراً، وتوحي لزوجها بثقتها بإخلاصه، سائلة إن كان يعرف عن رسائل جمال، ليعترف لها بأنّ مجموعة منها وقعت بين يديه، وكان يظنّ أنّها لمرداس حسب ما خُطّ على أغلفتها، مدّعياً عدم قراءتها. لم يكن مثل ذلك الكلام لينطلي على عيشة، لتتأكّد من أنّ الغدر يسري في دمه، فسعت لتدجينه لمصلحة ابنها. إلّا أنّ وصول مجموعة من طرفه ليرافقوها إليه في صنعاء أغضبها، ليكرّر زيد رغبته في مرافقتها وشوقه لزيارة جمال، واعداً إيّاها بحمل هدايا قيّمة تشرّفها، يوماً بعد يوم يتأكّد سوء نيّته، وما يخطّط له، وتظهر كعادتها سذاجة وعدم فهم لما يدور، وكان يقينها بوصول جمال ما دامت في الحصن، إلّا أنّها كانت تخشى أن يعود مرداس للحياة من جديد، وقد عرفت من منادمة زهرة أنّه كان ينتظر عودة ابنه ليعود بهيمنته على الجميع، يذيق من أساؤوا إليه بعض ما أذاقوه، ولذلك تمنّت على زيد سرعة التخلص من مرداس ومن معه مبرّرة رغبتها:

– حتى يصفو لنا الجوّ.

نظر إليها وقد اتّسعت عيناه الصغيرتان:

– ووالدك؟!

حدجته بنظرة جامدة:

– كلهم!

كان يعرف خوفها من مرداس، وتذكّر أنّه عرض عليها سابقاً التخلص منه، لكنّ والدها وبقيّة أقاربها من رجال قرية المنحدر،

t.me/qurssan

لم يفهموا ما يدور في خلدها، ولذلك فكر بعمل يدهشها، لتعرف أنّ سذاجتها لم تخفِ ما كانت تفكّر به.

رغم حلول الظلام ظلّ «الأخـدام» يقفون في توجّس، لم يكن هناك ردّ على تساؤلاتهم، غير أنّ زهرة خرجت تردّد عليهم «هذا كوخ جدّتي. هيّا فليذهب كلٌّ لشأنه». سألها قارون بدوره «من جدّتك التي تذكرينها؟» مندهشاً من حماستها للبقاء في ذلك الكوخ. أشرقت الشمس على تجمهر بعض الخوادم والأطفال والرجال أمام الكوخ، تساؤلاتهم مرسومة على نظراتهم.

خرجت زهرة باسمة:

– ألم يرَني أحدكم هنا من قبل؟

كلّ ينظر إلى عيون من حوله بصمت، أردفت: العمياء جدّتي، من يعرفها منكم؟ كانت تسكن هذا الكوخ، وكنت أزورها. ابتسمت إحداهنّ وتقدّمت خطوات: لقد رأيتك يوم جئت مع الشيخ. ثمّ تداخل همس ونظرات ما لبثت ملامحهم أن انفرجت عن ابتسامات وكلمات ترحيب، انصرف الرجال وتقدّمت النساء يساعدنها في رفع عيدان السقف. البعض ينهرن الأطفال، منهنّ من ذهبن ليعدن حاملات أواني وأغطية وفراشاً متربةً، وقرعاً مليئاً بالماء. ولم تعد زهرة منذ ذلك الصباح غريبة.

ما كان يهمّ قارون هو أن يجد ما يشربه، يخرج قبيل الظهيرة ليعود بقليل من القات مكتئباً، يصارحها بأنّه إن لم يجد ما يشربه فسيرحل بعيداً عن الوادي. في البداية لم تفهم، حتى تلك الظهيرة وقد عاد طروباً على غير عادته، يهامسها: لقد اهتديت إلى أحدهم وأخرج من بين طيّات ملابسه قنّينة صغيرة: هذا هو المتاح هنا!

t.me/qurssan

تستغرب حين يرتشف عطراً، وقد جلست إلى جواره كما كانت تجالس الشيخ، تفلّي أغصان القات له.

في ليلة مقمرة جلس قارون ثملاً أمام باب الكوخ، تسأله عن أيّامه في عدن:

– عدن، مدينة من دخلها تسكنه طوال عمره.

– كيف؟

– تظنّين أنّني من هذا الوادي، لكنّي لم أعد منه!

– لم أفهمك.

– حتى أنا لا أفهم نفسي.

– حين تصمت أظنّني أفهمك حتى تتحدّث.

– دعينا والحديث، سأسمعك شيئاً ربّما تفهميني.

أخرج ناياً من طيّات ثيابه، همّ بالعزف، قاطعته:

– وتعرف أن تعزف.

التفت إليها:

– وأرقص ألف رقصة.

نهضت كمن لدغتها عقرب، وعادت بمزمار العمياء:

– هذا مزمار قديم أهدته لي من كانت تسكن هذا الكوخ، وقد حكت لي حكايات مدهشة.

وضع نايه على حجره، يقلب ذلك الناي فاحصاً إيّاه، ثمّ أخذ يزيل ما التصق به من دبق، بينما زهرة تحكي: عرفت من حكاياتها أنّ تلك العمياء جدّتي لأمّي، وأنّ المزمار لجدّي. صمتت لتميل في دلال واختبأت في صدره مغمضة عينيها، وما إن بدأ قارون ينفخ المزمار حتى ارتفع صوتها بإحدى أغاني العمياء، بعد لحظات شعرت بأرواحٍ تحوم حولهما، وقد تسلّلت رائحة العمياء، ظلّ صوتها يعانق أنغامه، يهتز فتهتز ملتصقة به في نشوة، امتدّ بهما الوجد طويلاً، وحين

t.me/qurssan

فتحت عينيها رأت وجوهاً تنظر إليها بحيرة، سرت همهمة بين من تجمّعوا، لترتفع أكفّهم بالتصفيق داعين إيّاهما إلى السمر حول نار سيشعلونها في ساحة تتوسّط الدرم.

منذ تلك الليلة، يشعل «الأخـدام» نـاراً عالية، يدعون قارون إليها، تراه زهرة وقد جلس عازفاً للناي كما كان جدّها. يثير بأنغامه البهجة في دائرة واسعة من الأجساد السمراء التي ترقص، يقوده ثمله مشاركاً رقصهم، ليلة بعد أخرى أمسى قارون صديقاً للّيل، معتمداً على مدّخراته القليلة. ينام نهاره ليصحو داعياً زهرة إلى مشاركته قاته ورشفات عطره، التي تسايره بالقليل منها، ثمّ تسير به منتشياً باتّجاه دائرة الليل، يراقص نارها بمزماره.

لا يعرف متى بدأ يتسلل بعض أبناء الرعيّة لمشاركتهم سهرهم، لينتشر خبر تلك الليالي بين رعيّة الوادي، وتزايد من يأتون خلسة من أبناء الرعيّة.

جلسا ذات مساء، يسألها قارون:

– أيّ حياة تريدين أن نعيشها؟

تردّ بغنج:

– ما نعيشه الآن.

– أسعيدة بالحياة معي؟

صمتت وثمّة شعور يدفعها لاحتضانه، تتأمّل عينيه لتراهما تشابهان عينيها، بدوره احتواها بين ذراعيه، أحسّ بنبض قلبها، وقد التصق صدرها بصدره، لأول وهلة شعر بأنّ لها صدراً أشعل ناراً في بدنه، قبّلته ليذهبا بغلمته بعيداً وقد تمدّدا على أرض كوخهما، في لحظة وَجْدٍ هامسها:

– أتقبلينني زوجاً؟

t.me/qurssan

لم تدرِ لحظتها إلّا أنّها انفجرت باكية، لم يتوقف بكاؤها، استمرّ في مهامستها:

– لمَ لا تكون لنا ليلة بهيجة، فندعو كلّ سكّان الدرم لمشاركتنا؟

صمتت هازة رأسها بالموافقة، يلعق دموعاً بللت وجهها.

في منتصف تلك الليلة وقف حول النار معلناً دعوته جميع سكّان الدرم إلى أن يشهدوا زواجهما، طالباً منهم مساعدته. ابتاع صباح اليوم التالي كبشين، واستعدّ الجميع ليشاركوا في إعداد الوليمة، إلّا أنّهم لم يجدوا أوعية تستوعب ما يكفيهم من طعام، فاضطرّوا إلى شيّ أوصال الكبشين على نار المساء الراقصة، في تلك الليلة ثمل قارون وزهرة ليشاركهما الجميع بالرقص والغناء. ومع نهاية السمر دُقّت الطبول ورُفعت المشاعل ليبدأ زفافهما من دائرة النار باتّجاه كوخهما. فجأة ظهرت في أطراف الساحة مجموعة من الرجال ببنادقهم، عرفهم قارون من ملابسهم القصيرة ولحاهم الطويلة، أنزلوا بنادقهم وأطلقوا زخات من الرصاص في الهواء، آمرين «الأخدام» بإخماد اللهب والعودة إلى أكواخهم، وأشار أحدهم إلى قارون:

– أرسلنا الشيخ شنهاص لنقتادكم إليه.

أبدى لهم ترحيبه، داعياً إيّاهم إلى المبيت بينهم حتى الصباح، لكنّه ردّ محتدّاً، وقد أمسكه من ذراعه:

– أن تسير الآن على قدميك خير من أن تُسحب أنت وزانيتك ميتين.

أشرقت الشمس وما زالوا يسيرون، لم يتفوّه أحد طوال الطريق عدا أقدامهم على حصى مجرى السيل الجاف، وبعد وصولهم أدخلوهما من باب دار عالٍ، ليتركوهما في زريبة خالية من المواشي، وبعد وقت اقتادوهما ليقفا أمام رجل بالكاد يشبه شنهاص الذي

t.me/qurssan

يعرفه قارون. تمدّد على متّكأ ممتلئ القوام، وقد تحوّل شعر رأسه ولحيته إلى اللون الناري، تغطّي طبقة من الهرد مساحة وجهه الضامر، لا يعرف كيف عرف حين وجّه كلامه صارخاً: ما زلت ثملاً يا قارون! ألا تتقي الله، أهذا ما عهدناك عليه؟

ذلك الصوت زاد غضباً: انتظرت وعدك أن تلحق بي فخذلتني لتهرب أنت وصاحبك إلى عدن، قلت قد يكون صاحبه الشيوعي زاد عليه، لكنّك عدت ولم تزُرني عذرتك، فربّما ظروف الوادي حالت دون ذلك. لكن أن تتحوّل إلى نافخ مزمار، سكّير، مصاحب لزانية فهذا ما لن أغفره لك.

صمت شنهاص وهو يرتجف من الغضب. يهرب قارون أن لا تلتقي عيناه بعينيه، وقف مهدّداً وقد رفع ذراعة المبتورة إشارة إلى غضبه: لن أتركك تنشر الرذيلة في الوادي، وهذا أنت بين يديّ، سأذبحك وأذبح ساقطتك ذبح النعاج.

رفع ناظريه وقال بصوت هامس:

– علامَ تقتلنا، هل نفخ المزمار أكثر جرماً عند الله من قتل النفس، أنا لست قاطع طريق، ولا سافك دم، ومن تصفها بالزانية هي زوجتي.

قاطعه متلجلجاً:

– تعلم بأنّ الله حرّم الخمر، وحرّم المزامير، وأنّ عقاب شاربه الجلد، وعقاب الزاني القتل رجماً.

وقفت زهرة منكرة أن يكون ذلك الهرم هو من صوّرته شادن، ذلك الصوت المزلزل، والنظرات المرعبة، والوعيد لا يشبه شادن. لم يشعر بدموعها وقد غمرت عينيها لتحجب وجهه، تمنّت لو أنّها لا تسمعه. تعاتب شادن:

t.me/qurssan

– أهذا والدك التي كنت تحدّثينني عنه، من أزهقت روحك للقياه؟ أهذا من خرجتِ لتعينيه؟

أعادها صراخه:

– وأنتِ أيّتها الفاجرة، ألم يعلّمك أهلك العفّة والحياء؟ ألا تتقين الله؟

ظلّ يهذر وقد أغمضت عينيها تتمنّى أن تصاب بالخرس.

بعد ذلك أعادوهما إلى الزريبة وقد استمرّت دموع زهرة تنهمر بصمت لا تدري أتبكي على ما ينوي شنهاص، أم تبكي شادن وفقدانها.

لا يدريان كم قضيا في الزريبة من أيّام، ليمثلا بين يدي شنهاص الذي كانت حدّة صوته قد قلت بعض الشيء: رأيت لما بيننا من سابق معرفة أن أعرض عليك الاستتابة، وأن تبتعد عن المعاصي، وإلّا فقسماً بمن حبسه جهنّم لتقرّبت بدمك للملك الدائم.

خرجا غير مصدّقين بالنجاة تحفّهما نظرات ملتحية يتشبّه أصحابها به في ملابسهم البيضاء وحفّ الشوارب، يحفّهما الصمت والدموع حتى وصلا، يتردّد صوت شنهاص، نظراته القاسية، محافظاً على قصر ثوبه الأبيض الذي عرفه به، لم يرَ ابتسامة في صوته.

وصل وزهرة إلى مشارف الدرم ليتجمّع سكّان الأكواخ يبكون. وما إن غابت الشمس حتى حضر من يدعوهم للسهر حول دائرة النار، صرخت زهرة على غير عادتها:

– هيّا اذهبوا عنّا، لا نريد أن نموت.

لكنّ قارون ابتسم لهم:

– سنلحق بكم، أشعلوا ناراً كبيرة.

واحتضنها هامساً:

t.me/qurssan

– يا زهرة، أتتذكّرين أنّهم لم يكملوا زفتنا؟ هيّا فلنثمل عطراً ونعِش لحظتنا، فغداً موت.

تلك الليلة كان عزفه حزيناً أبكى زهرة، لم يكن من أحد يدرك ما يحمله قارون من ألم غيرها، شاركهم الرقص حتى سقط أرضاً، ليُحمل إلى كوخه فاقداً الوعي، وأمست زهرة تبكيه حزينة. وليلة بعد أخرى تشاجره محاولة إقناعه بعدم المشاركة، تذكّره بتهديدات شنهاص ووعيده. يعدها بأنّها آخر ليلة، وما إن يأتي أول المساء حتى يخطو منتشياً في سعادة نحو النار.

حاولت زهرة إقناعه بالرحيل خارج الوادي فماطلها، ليصحو ذات نهار ولا يجدها إلى جواره. بكت لعيشة شاكية ما جرى لهما. أرسلت عيشة من يحضره إلى الحصن، تحدّثت إليه:

– أتعلم ابن من تكون؟

– ...

– أتعرف المَزْمَرة مهرة من؟

– ...

– أنت قبيلي، بل أنت ابن شيخ يا قارون، لا أصدّق ما أسمعه منذ زيارتك لي، أيُعقل أن تعيش عيشة «الأخـدام»؟ هذا لا يشرّفنا، سيؤجّرك زوجي أرضاً وبيتاً تسكنه أنت وزهرة مثل بقيّة الرعيّة.

فاجأها وقد ظنّت أنّ كلماتها أثّرت فيه:

– لكنّي لست رعويّاً لأحد.

– الرعيّة قبايل يا ولدي فلا تبخِّس بنفسك، وتبخس بنا معك.

كان صوت عيشة يتأرجح بين القسوة واللين: أنا على يقين من أنّك تعي ما أقوله، وأنّك ستغيّر من أسلوب معيشتك. الحياة ليست غناءً ورقصاً فقط، فاعقل ما تصنعه من عبث يضرّ بسمعة الجميع. سأتركك تشاور نفسك، وأخيِّرك بمسألتين: أن تفلح الأرض، أو أن ترحل

t.me/qurssan

عن الوادي بعيداً حيث لا تصل إلينا أخبارك، وإلّا فسيصل رجال زيد إليك قبل أن يصل شنهاص، وعندها ذنبك على جنبك.

اقتنع قارون بالخروج من الوادي شرقاً، فتنقلا من قرية إلى أخرى، يعبران أودية ومخاليف بجوع كاد يفتك بهما، حتى إذا ما سمعا بحفل عرس سارعا باللحاق به، وأمام منزل العريس وقف قارون يعرض مهاراته، وسريعاً ما تحلّق حوله جمع يتابعون عزفه، تجرّأت زهرة رافعة صوتاً يعانق مزماره، تزايد الناس يتهامسون حول مزمّر مُبنطل، ومغنّية بيضاء، ومن ذلك العرس تسبقهما أخبارهما من قرية إلى أخرى، ومن عرس إلى آخر يتنقلان وقد عُرف بين الناس بـ«الممسوخ»، وأنّه مَسَخ رفيقته ويعيشان عيشة «الأخدام». لم يكن قارون يهتمّ لما يتهامسون به. وما كان يهمّه أن يظلّ يعزف حتى لا يموت، يهتز طرباً مع أنغام مزماره، تتبعه زهرة بصوتها وقد التصقت نظراتها بنظراته في وله، ليرفع نشوة الحضور بحركات جذلى، تتبعه متمايلة مع نغمات مزماره في رقصة ثنائية، يسيران ذهاباً وإياباً في دوائر بين الحضور، كأنّما غمرتهما غيبوبة أو كأنّ صوتاً من سماوات عُلى يحرّكهما، تفتح عينيها لإحساس اقتراب وجهه من وجهها، وكأنّ عيونهما على موعد، يتبادلان النظرات بوجد، يشير عليها بطرف عينه أن تتقدّمه، لتخطو بخطوات موزونة، يلحق بها، محاكياً اهتزاز جسمها، ليرقصا معاً وقد زاد من حدّة نغم مزماره، يتمايلان كأنّما لا وجود لغيرهما، يهتزان كأغصان تداعبها الريح وقد فغر المدعوّون أفواههم دهشة وتعجّباً، يعودان إلى مكانهما مفسحين المجال للراقصين من ضيوف العريس. يتمنّى بعضهم أن يراقصها، أن يساير خطوها تحت «أتاريك» ليل الجاز ووشيشها.

لم يكن قارون يتصوّر كلّ ذلك الحبّ الذي تحمله زهرة، يطرب لنظراتها وحين يختليان يسألها، تنادمه مردّدة: خلقت لأخاف عليك، وكما كان خاطري يتمنّاك ها أنا أعيش خوفاً يكاد يقتلني،

t.me/qurssan

لست متأكّدة من أنا، لكنْ يسكنني يقين بحبّك، فهل تشعر بيقيني؟ يحسّ قارون في رفقتها بالأمان، تفهم لغة نظراته، متى تنضح عيناه بالسعادة، ومتى يحتلّ روحه الحزن.

سألها:

– لكنّك أذهلتني يوم سلامي على عيشة، شللتِ تفكيري.

– فاجأني حضورك، لحظتها فقدت صوابي خوفَ أن أفقدك، وكأنّ أكثر الأشياء خوفاً تجعل الفرد كائناً لا يعرف حتى نفسه، فحضورك أنساني كلّ المحاذير، حتى قول عيشة «من يسكن الحصن لا يخرج منه إلّا إلى المجنّة». هي قوّة لم أكن عرفتها فيَّ، لحظتها لم أكن زهرة التي أعرفها، ولم أستردّها حتى الآن.

– لكنّ صمتك طيلة الطريق كان يرعبني.

– حين خرجنا من الحصن، كان شريط حياتي يمرّ في ذهني، أحدّث نفسي هل أنا بحاجة إليك، لأكتشف أنّك أنت الذي بحاجة إليّ، وأنّك تائه، أفكّر في أن أكون حارستك حتى تعيش دون قيود، حياة حدّثتني بها جدّتي العمياء يوماً، فلا نطمع بالدنيا ولا تطمع بنا، وكنت أخشى ألّا تستسيغها، لكنّي الآن عرفت أنّ عدن قد جعلتك إنساناً لا يشبهه أحد.

يستمع مصدّقاً لها، وقد أحسّ بأنّها ظهرت في الوقت المناسب، متخيّلاً كيف ستكون حياته لو لم يفكّر بصعود الحصن. اعترف لها بأنّ إحساسها كان صادقاً حين أحسّت بضياعه، وإن كان غير مستوعب بساطة موافقة سيّدتها على الرحيل معه، كرّرت له:

– كان تصرّفي أمام سيدتي وليد اللحظة، فقد كنت تعيش معي منذ سنوات، وأشعر بقربك، وها أنا وأنت كما كنت أحلم.

– لماذا أنا؟

– لأنّ أمّي تسكنك!

t.me/qurssan

لم يستوعب قارون تلك الكلمات. إلّا أنّ إيقاع صوتها وعينيها الصغيرتين كانت مؤثرة على قلبه.

يعود بذاكرته باحثاً عنها في ذلك الصباح، تتداخل الأصوات، ويسمع صبيّة تصرخ، يراها بصعوبة تتلوّى من لسع السياط.

ظلّ الغموض يحيط قارون وزهرة بين سكّان القرى التي يمرّان بها، وظلّا مثار جدل وهمس، بدوره لم يكن يهمّه ما يتهامسون به، ما داما بعيدين عن يدي عيشة وشنهاص.

يحرصان على أن يعيشا كلّ ليلة بليلتها، ما إن يغلقان بابهما حتى يتعرّيا، يرتشف العطر من فوق جسدها، يرتشف من كأس فخذيها، يقضيان ما بقي من الليل في أحضان بعضهما عاريين، ينامان حتى منتصف النهار، مع بداية الليل يعطّر قارون فمه بجرعات عطِرة لينتشي محلقاً بصوت زهرة... قضيا أيّاماً عديدة منتقلين من وادٍ إلى آخر، ليفاجئ زهرة ذات ليلة:

– ألستِ مشتاقة لكوخنا؟

– بلى.

– فلماذا لا نعود؟

– لكنّ عيشة وشنهاص ينتظران!

– نمكث أيّاماً في كوخنا دون أن يشعر بنا أحد ثمّ نعاود الرحيل.

– وإذا ما عدنا فلن تعزف ولن أغنّي، ولن نظهر على أحد.

– لنجرّب.

– أيّام ونفرّ بعيداً عنهم.

عاد بها فرحاً إلى واديهما. تسلّلا ليلاً إلى كوخهما، كلّ شيء كما تركاه، لا يريدان لفت انتباه أحد. لكن ما إن تنفس الصباح حتى عرف الجميع بعودتهما، تفرّقوا لجمع الحطب، وما إن غابت الشمس

t.me/qurssan

حتى تعالت ألسنة نيران لم يرَ الدرم مثيلها، دمعت زهرة حين أخذ يعبّ العطر بفرح طفولي، ليخرج وسط صخب طبولهم، كانت الدائرة أكبر ممّا كانت في الأيّام السابقة، ضجّ صراخهم حول النار لمرآه، تسللت أصابعه ساحبة مزماره، نفخ ليعلو لحن شجيّ لم يُسمع مثيله من قبل، التفتت زهرة بنظرات عاتبة وقد شعرت بأنّ تلك النغمات تنادي صوتها، نظرت عينا قارون إليها مشجّعاً بإيماءة ترجمتها زهرة «عيشي لحظتِك»، خرج صوتها مصاحباً لنغمات مزماره، غنّت بعينين دامعتين، يرتفع صوتها ويطول، عاد إحساسها بهبوط أرواح حولها، صوت العمياء، رأت قارون تلك الليلة يرقص كما لم يرقص من قبل.

في صباح اليوم التالي فتحت زهرة جفونها على رجال يقفون بأسلحتهم أمام الكوخ، لا تدري ما عليها فعله، حاولت إيقاظ قارون، ليخرجوه مسحوباً إلى الخارج، يتصارخون: ألم تُنذرا بعدم العودة لارتكاب الفواحش.

تجمّع «الأخدام» بعيداً حذرين، خليط رجال ونساء وأطفال، سُمع نحيب هامس، بينما أخذ المسلحون بتكبيل قارون إلى جوار زهرة، ثمّ أطلقوا أعيرتهم النارية في الهواء ليتبعثر تجمّع «الأخدام»، ثمّ وقفوا يرقبونهما من بين أكواخهم وقد مضوا بهما مقيّدين بعيداً. يتردّد صدى كلمات عيشة «وإلّا فسيصل إليكما رجال زيد، وعندها لا تلومنّ إلّا نفسيكما»، ترمق زهرة قارون دامعة، بينما يحاول زرع ابتسامة لطمأنتها، كان يعرف حين عاد إلى الوادي أنّه إنّما عاد إلى عذاب.

هذه المرّة لم يريا عيشة، ولا زيد الذي كانت تتوعّدهما به، ربط الحراس كلّاً منهما إلى عمود، يسألان فلا يهتمّ أحد بهما، وليومين دون طعام أو شراب، حتى صباح يوم جمعة، حين تناهى إلى سمعهما هدير يرجف الأرض، ورغم إعياء العطش والجوع أخذت حواسّهما تتلقى تلك الإشارات.

t.me/qurssan

قارون

t.me/qurssan

t.me/qurssan

لم تُرَ في الوادي عربة تدخله من قبل، فلا طرق غير مسالك الدواب، إلى ظهيرة يوم مشمس حين سُمع هدير يصمّ الآذان، كان ذلك الهدير آتياً من جهات الجبال الشرقية، خرج من سمع يتساءلون وقد ظهر مدفع طويل على دبابة ضخمة تنحدر بين الجبال، تدكّ ما يعترضها من شجر وحجر مخلفة أعمدة من الغبار وأدخنة كثيفة، يتساءل الجميع من أين قدمت؟ يتمنّون معرفة غايتها. تجمّع خلق كثير يتابعون هبوطها بحذر ورهبة حتى وصلت إلى مجرى السيل، يراقبون هديرها من خلف الصخور بريبة وحذر، فهم لم يروا مثيلها يوماً وإن سمعوا بها، توقفت بعض الوقت جوار الطولقة الكبيرة تحرّك مدفعها الطويل يميناً وشمالاً، ثمّ واصلت ضجيجها صاعدة مرتفعات الحصن.

تسمع زهرة هديراً، وذلك العمود يهتز، تسأل قارون: أتشعر وتسمع ما أسمع به؟ لكنّه كان في شبه غيبوبة لشدّة حرارة الشمس، تصرخ وقد رأت تلك الدبّابة تتجه نحوهما، كان قارون قد استيقظ من إغماءته، وظنّ أنّها هلوسات الموت وهو يرى جموعاً غفيرة خلف تلك الآلة التي استقرّت بالقرب من الأعمدة، ومدفعها الطويل يدور حتى استقرّ باتّجاه الحصن لتدوّي قذيفة أرعبت الجميع وردّدت صداها

t.me/qurssan

جبال الوادي، وأمسى أحد أبراجه أثراً بعد عين، وقد توارى من كانوا يتابعونها مختبئين خلف شواهد قبور المجنّة وركام الضريح وجدران المسجد. يرى قارون مدفعها وقد استمرّ في الدوران، لتدوّي قذيفة أخرى باتّجاه الوادي غرباً، عرف الجميع في ما بعد أنّها أصابت دار شنهاص في الجفنة، ثمّ قذيفة ثالثة ورابعة وخامسة في اتّجاهات مختلفة، قيل إنّها أصابت دور المتغلبين على قرى الوادي. كانت زهرة تحاول فهم ما يدور، تصرخ بقارون الذي استعاد حواسّه يتابع ما يدور بهلع. توقف المدفع بعد ذلك عن الدوران، وصمتت جنازير الدبابة، ليصمت كلّ شيء إلّا من حركة الناس وقد بدأوا بالخروج من مخابئهم، ظلّ التساؤل يستثير الجميع لمعرفة من يتحكم بتلك الآلة الجبّارة، بعد سكون مريب ارتفع صرير حادّ ليفُتح باب في مؤخرتها، تراجع الناس خشية، يرقبون خروج مجموعة بملابس عسكرية، ما لبثوا أن صعدوا برشاشاتهم «الكلاشنيكوف» على سطحها، أعقب ذلك صرير آخر، فُتح باب أعلى برجها ليرى قارون وزهرة ظهر رأس تغطّيه قبّعة دكناء ونظارة سوداء، توالى خروج بقيّة جسمه حتى وقف بقامته الفارهة وبزته العسكرية على سطحها، رافعاً كفّيه ملوّحاً في مهابة، ناظراً ذات اليمين وذات اليسار وقد أزال نظارته لترى زهرة وجهه الأصهب الحليق، راسماً ابتسامة عريضة، يمسح بأصابعه حواجب كثة كأنّه شارب أخطأ موقعه، ارتفع صراخها: إنّه جمال، إنّه الشيخ جمال، ارتفع صخب الجموع وقد هرولوا ليحيطوا بالدبّابة من كلّ اتجاه، صرخ قارون في من اقتربوا منهما أن يفكّوا وثاقهما، رفع جمال صوته خطيباً: أيّها الإخوة، لقد أتينا لإنقاذكم، لتطهير وادينا من دنس المستغلين وبطشهم. أيّها الإخوة، إنّها ثورة من أجلكم، لن يكون بيننا بعد اليوم متسلط.

t.me/qurssan

ازداد تدافع الناس حول الدبّابة يمدّون أياديهم باتّجاهه مبتهجين، تحسّس قارون بين ثنايا ثيابه وأخرج المزمار، غمز لزهرة بطرف عينه فأضاءت ابتسامة بياض وجهها، ليرفع مزماره عقيرته بفرح وقد نسي كلّ منهما العطش والجوع والإعياء، ليعزف وزهرة تغنّي. التفت جمال ملوّحاً بيديه في الهواء، موزعاً ابتسامته الناعمة يميناً وشمالاً، ثمّ واصل خطبته: أيّها الشعب، لقد أتينا لإنقاذكم من المستبدّين وعملاء الخارج، أتينا لنحرّركم من الكهنوت باسم الله ومن السلالية والدجل، فلا مذهبية ولا سلالية بعد اليوم، كلنا إخوة سواسية. وأدعوكم اللحظة لتشكيل لجان ثورية لملاحقة أعداء الثورة وتعقب العملاء حتى نطهّر وادينا من رجسهم، من استباحوا كرامتكم واستعبدوكم.

كان زيد يتابع منذ بداية الهدير، حتى دويّ القذائف، وهتافات الجموع، وما ردّده جمال، ليدرك أنّ عليه أن ينقذ نفسه قبل فوات الأوان، فأظهر لعيشة سروراً غامراً بوصول جمال، موحياً لها تأهّبه لمشاركتها استقباله، ليستغلّ انشغالها، خرج يأمر الحرّاس بإخراج الشيخ مرداس ومن إلى جواره مؤكداً عليهم أن يقودوهم بعد خروج عيشة كما هم، لينشغل بعد ذلك بترتيب ما يخصّه.

لم يكمل جمال خطبته حين ظهرت أمّه بطولها الفارع، تحفّها جمهرة من خادماتها، شاقة طريقها بين الجموع، كان وجهها بحمرة شفق زاهٍ، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة شعّت من عينيها الواسعتين، بينما هبط جمال مزيلاً قبّعته عن شعرٍ طويل يتلاعب فوق كتفيه، راكعاً يقبّل ركبتيها، لترفع وجهه إلى عينيها وقد اغرورقتا بالدموع، في الوقت الذي انسلّ فيه زيد متنكراً بأردية خادمة من بين الحشود هابطاً نحو المنحدرات.

t.me/qurssan

وكانت المفاجأة ظهور مجموعة من العراة عند بوّابة الحصن، بعيونهم الفزعة، وشعورهم وأظافرهم الطويلة، وقد غطى الدبق أجسامهم الهزيلة، لتشهق عيشة وتصرخ «فعلها الديّوث!». لم يفهم من يحيطها ولا ولدها جمال من تعني بالديّوث، مدركة أنّ زيد قد فرّ بفعلته في الوقت الذي كانت تعتبر فيه مرداس من الأموات، لتصمت الجموع. بالكاد تعرّف جمال إلى والده، كانت عيشة تداري وجهها أمام نظرات العراة، ومن بينهم والدها وعمّها والد قارون، بشر بهيئات ترابية مخيفة. اقترب جمال من والده بعدما خلع جاكيته العسكرية ليستر عورته، ليخلع البعض شيئاً من ملابسهم يسترون بها من يعرفونهم، ما لبث أن تعالى نحيب، يحاول بعض العراة النطق لتظهر ألسنتهم غارقة بدماء صديدية، خمّنت عيشة أنّ زيد قطع ألسنتهم وفرّ. تحاول أن تنظر في عيني والدها لكنّها كانت أضعف من أن ترفع ناظريها. لم يتعرّف قارون إلى أحد منهم حتى حين أشاروا عليه بوالده وقف أمامه متبلداً، بينما زهرة تخشّب طولها فاقدة الحركة لنظرات مرداس التائهة.

تفرّقت الجموع بعد كلمة ختامية قصيرة دعاهم فيها جمال للحضور صباح غد: «اليوم اعذروني، فأنا جدّ متعب، وقلبي بحاجة إلى السكينة بعد رؤية ما شاهدتموه، وغداً ستشرق على وادينا شمس جديدة، فلا خادم بيننا ولا رعوي، كلنا سواسية ولا مكان للسلالية ولا للمذهبية، غداً بكم وادينا سيبدأ مسيرة الحياة الثورية، ولذلك أدعو كلّ الأحرار للاجتماع هنا أمام هذا الحصن، الذي سيتغيّر اسمه إلى حصن الثورة، لا حصن الزيدي، وهذه الساحة ساحة الثورة، هنا سننشئ ضريحاً رمزاً للثورة. ومنكم سنشكّل لجاناً ثوريّة لتنطلق لملاحقة من يُشتبه في مناصرته للخونة أعداء الثورة، واقتيادهم لينالوا جزاء خياناتهم.

t.me/qurssan

مع شروق صباح اليوم التالي توافد سكّان الوادي جموعاً كبيرةً نساءً وأطفالاً، خدماً ورعيّة، الكلّ احتشدوا بانتظار خروج جمال، وسماع ما سيقول، يتهامسون بأخبار زيد وشنهاص اللذين لجآ إلى الجبال الشرقية داعيَين أنصارهما من الغيورين على شرع الله وسنّة نبيّه الكريم إلى الالتحاق بهما للجهاد في سبيل الله، معلنين تحالفهما لقتال من يصفون أنفسهم بالثوريّين.

مرّ الوقت والجموع تتزايد في الساحة وحول الدبّابة، لكنّ جمال لم يظهر، وقبيل الظهيرة ظهرت عيشة متّشحة بسواد لافت، وقد تغضّن وجهها وكأنّه بلي في ليلة وضحاها، تشي نظراتها بحزن عميق، لم يكن أحد حولها غير زهرة التي غشي نظراتها توهان وحيرة، تنظر نحو دبّابة وحيدة تشمخ بمدفعها من وسط جموع الناس.

تهامس الناس بإشاعات لغياب جمال، منها أنّه حين أتى كان مريضاً، وقد اشتدّ عليه المرض حين رأى والده، ومنها أنّ قارون سامره طيلة الليل، وقبيل الفجر خرجا من الحصن، ولا يعلم أحد أين وجهتهما.

انقسمت الجموع، قسم يرى أن تتولى عيشة مواجهة المخاطر المحدقة حتى ظهور ولدها، وقسم رفض أن تقوده امرأة وانسحبوا مستشهدين بآيات القرآن وأحاديث المصطفى «لا ولاية لامرأة». تفرّق الجمع وظلت الدبابة رابضة جوار أعمدة الساحة في سكون، إلّا من عصافير أخذت تبني أعشاشها في داخل مدفعها، وعناكب نشطت تنسج بيوتاً في زواياها.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

شكر

للدكتور المقالح، من دعاني إلى مكتبه بعد قراءته مسوَّدة العمل، وأسمعني ملاحظات هامّة.

للأصدقاء الأدبـاء: القاصّ زيـد الفقيه بقدرتك على استبطان المعنى وإمكانيّاتك اللغوية التي تجاوزت الكثير من الزّلات، الشاعر محمد الأشول لدقتك في سبر أغوار النصّ وإشاراتك العميقة، الروائي أحمد قاسم العريقي بملاحظاتك في نقاشاتنا الدائمة حول الموروث الحكائي، والمعقول واللامعقول في السرد، الدكتور عصام واصل حين طلبت منّي الاطلاع على مسوّدة العمل قبل نشرها، رغم مشاغلك كمدرّس للأدب العربي في جامعة ذمار، وخصّيتني من وقتك بالكثير، الروائية والفنّانة التشكيلية سيرين حسن لتنبيهاتك إلى عدم التكرار وإلى تفاصيل في غاية الأهمّية، الأديبة بلقيس كامل وعدّة أوراق دوّنتِها عن الشخصيات وعدم الإسهاب في الوصف، تجاوزت بها نقاطاً هامة.

ومن شاركوا في النقاش في ورشة نادي القصّة 2 أغسطس 2017 الأدباء: فاروق مريش، منى الحملي، حسن الدبعي، حامد الفقيه، ثابت القوطاري، عبد الفتاح إسماعيل، نجيب التركي، وبقيّة من حضروا بنقاشاتهم حول مسوّدة هذا العمل، الشكر الجزيل لكم جميعاً.

t.me/qurssan

حصن الزبدي — في أواخر مرحلة الإمامة الزيديّة في صنعاء والاحتلال البريطاني في عدن، يُفضي تحالفٌ معقود بين مشايخ القبائل اليمنيّة وبعض فقهاء الدين إلى تسلّط الطرفين على رعيّة مستضعفين، وشريحة أخرى من المهمّشين يُطلق عليهم لقب أخدام أو عبيد.

يحاول بعض هؤلاء التمرّد على واقعهم، فيجابهون بالقمع وببطش شديد. يفرّ منهم من يفرّ إلى الغابات الكثيفة في الجبال المحيطة، ويبدأ من هناك فعل المقاومة. ينظّمون صفوفهم ويبدأون بشنّ هجمات ليليّة على مزارع المشايخ. تنجح تلك الهجمات بداية الأمر في زعزعة مكانة المشايخ وأعوانهم من الفقهاء، لكنّ الرهان صعب، فتحالف القبيلة والدين يشكّل حلقة يستحيل كسرها.

كما الحبّ الممنوع بين عدنيّ حرّ وفتاة من الأخدام...

«يأخذك المبدع اليمني الغربي عمران إلى عمق الروح اليمنيّة، فترى جبالها وتشمّ رائحة الهواء في القمم، والسفوح والكهوف، بينما يوغل بك في سراديب التاريخ والنفس البشرية والاجتماع والدين.»

— منير عتيبة (موقع الجسرة)

الغربي عمران — كاتب يمني، مواليد صنعاء (1958). هو عضو في «الأمانة العامّة لاتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيّين» وبرأس «نادي القصّة» و«مركز الحوار لثقافة حقوق الإنسان».

في رصيده الكثير من القصص والروايات، أشهرها «مصحف أحمر» (2010)، و«ظلمة يائيل» (2012)، التي فاز عنها بجائزة الطيب الصالح في دورتها الثانية عام 2012. حازت «حصن الزبدي» جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع، دورة 2019، وهي ثاني رواياته الصادرة عن نوفل بعد «مملكة الجواري» (2017).

/ الغربي عمران

ISBN 978-614-469-290-5

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان A.

t.me/qurssan